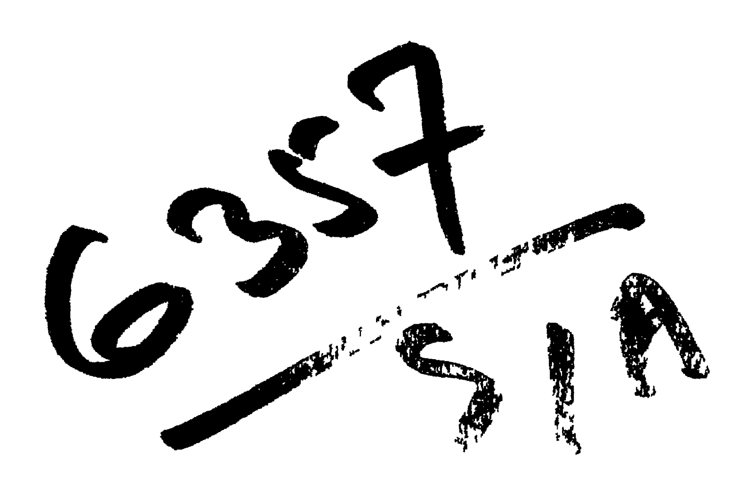
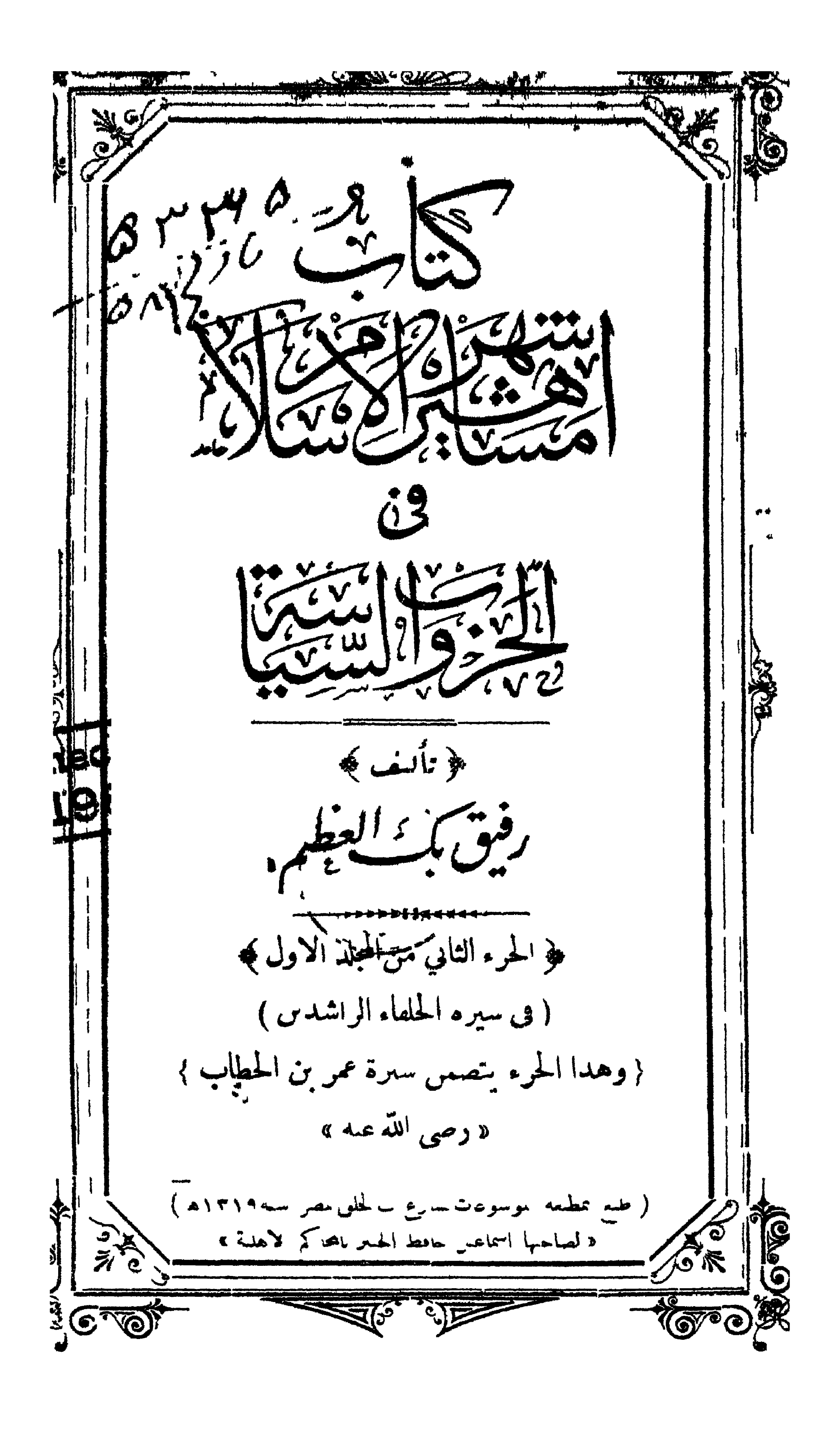

6357

6357
S/A



كتاب

اشهر مشاهير الاسلام

في

الحرب والسياسة

﴿ تأليف ﴾

رفيق بك العظم

﴿ الجزء الثاني من المجلد الاول ﴾

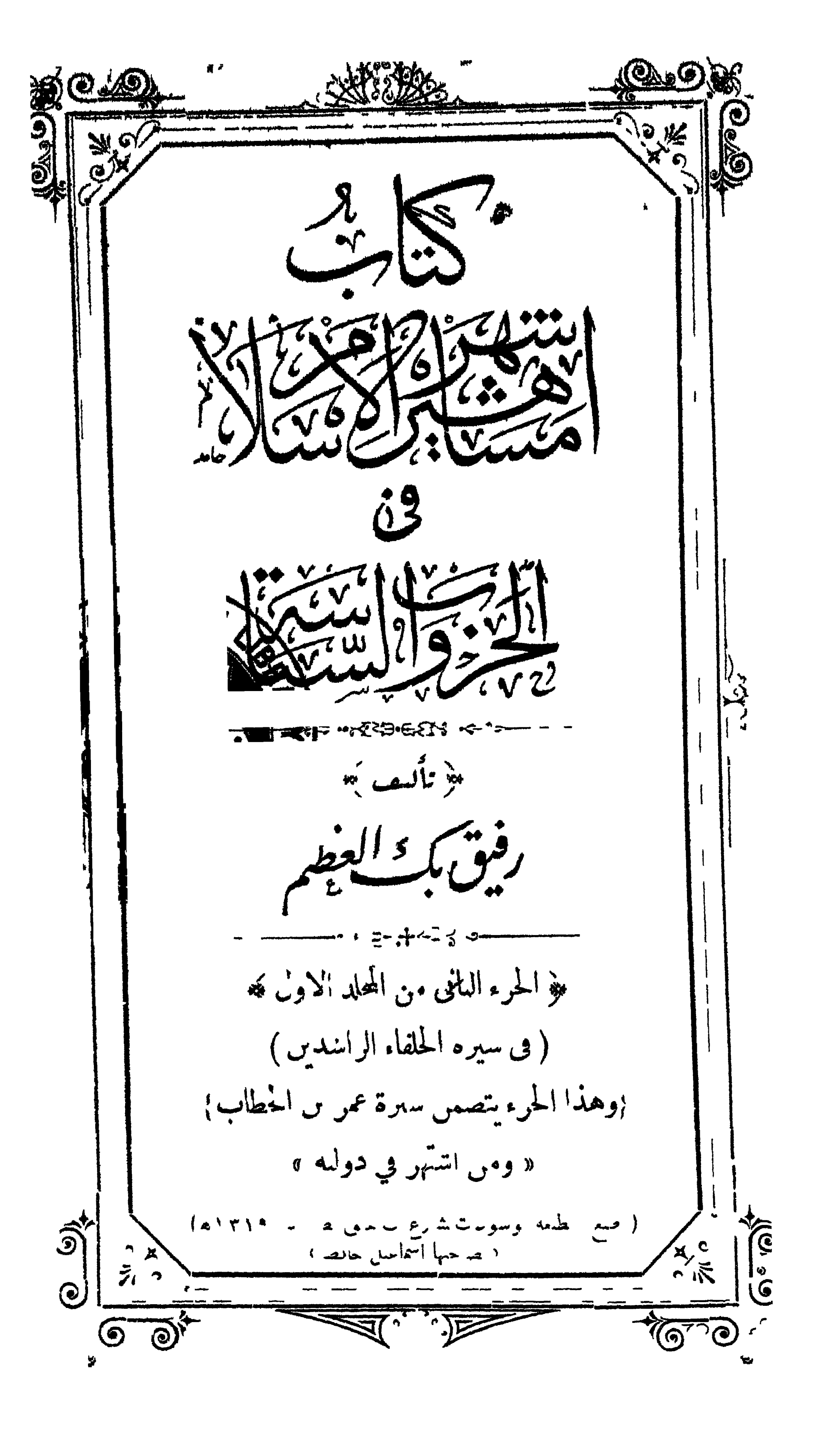
(في سيرة الخلفاء الراشدين)

{ وهذا الجزء يتضمن سيرة عمر بن الخطاب }

« رضي الله عنه »

(طبع بمطبعة موسوعات بشارع باب الخلق بمصر سنة ١٣١٩ هـ)

« لصاحبها اسماعيل حافظ المحامي بالمحاكم الاهلية »



كتاب

مشاهير الاسلام

في

الحرب والسياسة

تأليف

رفيق بك العظم

﴿ الجزء الثاني من المجلد الاول ﴾

(في سيرة الخلفاء الراشدين)

(وهذا الجزء يتضمن سيرة عمر بن الخطاب)

« ومن اشتهر في دولته »

(طبع بمطبعة الموسوعات بشارع باب الخلق بمصر سنة ١٣١٥ هـ)

(صححها اسماعيل حافظ)

عمر بن الخطاب

باب

حاله في الجاهلية

« نسبه وأسرته »

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب القرشي العدوي أبو حفص وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وقيل حنتمة بنت هشام بن المغيرة فعلى هذا تكون أخت أبي جهل وعلى الأول تكون بنت عمه لأن هاشما وهشاما ابني المغيرة أخوان فهشام والد أبي جهل وأخيه الحارث وأمّا هاشم فانه والد حنتمة وعم أبي جهل وأخيه هكذا صححه في أسد الغابة

شرفه وصناعته

سبق لنا في صدر الجزء الأول من هذا الكتاب ذكر الرهط من قريش الذين تنتهي إليهم الشرف في الجاهلية ومنهم عمر بن الخطاب وكانت تنتهي اليه السفارة كما سبق لنا ذكر حروب الصحابة الذين سترد سيرهم في هذا الكتاب وكان عمر بن الخطاب تاجراً وما زالت هذه صناعته في الجاهلية والاسلام حتى ولي الخلافة فتخلى عن التجارة لاشتغاله بمصالح المسلمين كما سيمر عليك مفصلا

﴿ مكانته عند قومه وسيرته فيهم ﴾

مكانة عمر عند قومه تعلم مما سيأتي في ذكر اسلامه وحسبه من ذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا ان يعز الاسلام بعمر فاستجيب دعاؤه وقد كان في قومه مشهوراً بالشده عزيز الجانب مع انه لم يكن ذا مال وغنى بل كان قليل المال يتاجر بماله أحياناً الى الشام وقد روى الحافظ بن عساكر في تاريخه ان عمر قدم الشام غير مرة في الجاهلية وأسر في أحدها واخرج عن زيد بن أسلم عن أسلم عن أبيه في حديث طويل ان عمر أسره في الجاهلية بطريق من دمشق واستعمله في بعض عمله فتغفله وقتله وخرج هارباً من دمشق

وكان في حال صغره قبل ان يتجر يرعى غنم أبيه فقد روى بن عساكر عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أبيه قال كنت مع عمر بن الخطاب بضجنان (اسم مكان) فقال كنت أرعى للخطاب بهذا المكان وكان فظاً غليظاً فكنت أرعى أحياناً واحطب أحياناً فأصبحت اضرب الناس ليس فوقي أحد الا رب العالمين ثم قال

لا شيء مما يرى الا بشاشته يبقى الاله ويودي المال والولد

هذا كان حال هذا الرجل العظيم في جاهليته وسترى كيف كان حاله في الاسلام والى أية درجة لعب به علو الهمة وصفاء العزيمة ولرأي في الاخلاص في خدمة الرسول الاكرم ودين الله القويم

باب

اسلامه وصحبته

(اسلامه)

كان المسلمون قبيل اسلام عمر بن الخطاب يجتمعون في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي في أصل الصفاء ستخفين لقلتهم وشدة قريش عليهم ولم يكونوا كما يزعم بعض المتخرصين من فقراء الناس وأداني قريش بل كان في ذلك العدد القليل من المسلمين كثير من سادات قريش وأعيانهم وذوي الشرف فيهم ومنهم أبو بكر الصديق وطلحة بن عبيد الله وعثمان بن عفان المشهورين بالغنى والثروة وسعيد بن زيد وحمزة بن عبد المطلب واضرابهم من صناديد قريش وأشرافهم الا أن معظمهم هاجر والى الحبشة لاضطهاد قريش لهم وكانوا لقلتهم في حاجة الى الاستكثار من ذوي العصبية أو الجرأة والاقدام من رجالات قريش ليستطيعوا اعلان دينهم والذب عن نبيهم وكان ممن عرف من قريش بسود الكلمة والبطش وسعة المكانة عمر بن الخطاب وأبو جهل وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتوقع خيراً للمسلمين باسلام أحد هذين الرجلين لهذا قال (اللهم أعز الاسلام بأحب الرجلين اليك عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام) يعني أبا جهل

استجاب الله سبحانه وتعالى دعاء نبيه صلى الله عليه وسلم بأحب الرجلين اليه وهو عمر بن الخطاب فأسلم في ذي الحجة لمضي ست سنين من البعثة وبعد اسلام تسعة وثلاثين رجلا وثلاث وعشرين امرأة وقيل بعد أربعين رجلا واحدى عشرة امرأة وكان له من العمر ست وعشرون سنة

وأما سبب اسلامه فقد جاءت فيه روايات كثيرة ومنها ما أخرجه الحافظ

عز الدين الجزري في أسد الغابة عن أسامة بن زيد عن أبيه عن جدّه أسلم انه قال . قال لنا عمر بن الخطاب أتحبون ان أعلمكم كيف كان بدؤ اسلامي قلنا نعم . قال كنت من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم فبينا انا يوماً في يوم حار شديد الحر بالهاجرة في بعض طرق مكة اذ لقيني رجل من قريش فقال أين تذهب يا ابن الخطاب انت تزعم انك هكذا وقد دخل عليك هذا الأمر في بيتك . قال قلت وماذاك . قال أختك قد صبأت . قال فرجعت مغضباً وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجمع الرجل والرجلين اذا أسلما عند الرجل به قوة فيكونان معه ويصيبان من طعامه وقد كان ضم الى زوج أختي رجلين قال فجئت حتى قرعت الباب فقيل من هذا قلت ابن الخطاب قال وكان القوم جلوساً يقرأون القرآن في صحيفة معهم فلما سمعوا صوتي تبادروا واختفوا وتركوا أو نسوا الصحيفة من أيديهم قال فقامت المرأة ففتحت لي فقلت يا عدوة نفسها قد بلغني انك صبوت قال فارفع شيئاً في يدي فاضربها به قال فسال الدم فلما رأت المرأة الدم بكت ثم قالت يا ابن الخطاب ما كنت فاعلا فافعل فقد أسلمت قال فدخلت وأنا مغضب فجلست على السرير فنظرت فاذا بكتاب في ناحية البيت فقلت ما هذا الكتاب أعطينيه فقالت لا أعطيك لست من أهله أنت لا تغتسل من الجنابة ولا تطهر وهذا لا يمسه الا المطهرون قال فلم أزل بها حتى أعطتنيه فاذا فيه (بسم الله الرحمن الرحيم) فلما مررت بالرحمن الرحيم ذعرت ورميت بالصحيفة من يدي قال ثم رجعت الى نفسي فاذا فيها (سبح لله ما في السموات والارض وهو العزيز الحكيم) قال فكلما مررت باسم من أسماء الله عز وجل ذعرت ثم ترجع الى نفسي حتى بلغت (آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) حتى بلغت الى قوله (ان كنتم مؤمنين) قال فقلت أشهد أن لا إله الا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . فخرج القوم

يتبادرون بالتكبير استبشاراً بما سمعوه مني وحمدوا الله عزّ وجلّ ثم قالوا يا ابن الخطاب أبشر فانّ رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا يوم الاثنين فقال (اللهم أعز الاسلام بأحد الرجلين اما عمرو بن هشام وأما عمر بن الخطاب) وإنّا نرجو أن تكون دعوة رسول الله لك فأبشر قال فلما عرفوا مني الصدق وقلت لهم اخبروني بمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا هو في بيت في أسفل الصفا وصفوه قال فخرجت حتى قرعت الباب قيل من هذا قلت ابن الخطاب قال . وقد عرفوا شدتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يعلموا باسلامي قال فما اجترأ أحد منهم ان يفتح الباب قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم افتحوا له فانه ان يرد الله به خيراً يهده قال ففتحوا لي وأخذ رجلان بعضدي حتى دنوت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أرسلوه فأرسلوني فجلست بين يديه فأخذ بمجمع قميصي فجذبني اليه ثم قال أسلم يا ابن الخطاب اللهم أهده قال فقلت أشهد أن لا إله الاّ الله وانك رسول الله فكبر المسلمون تكبيرة سمعت بطرق مكة قال وقد كان استخفى (1) قال ثم خرجت فكنت لا أشاء أن أرى رجلاً أسلم يضرب الاّ رأيته (2) قال فلما رأيت ذلك قلت لا أحب الاّ أن يصيبني ما يصيب المسلمين قال فذهبت الى خالي (يعني أبا جهل بن هشام) وكان شريفاً فيهم فقرعت الباب عليه فقال من هذا فقلت ابن الخطاب قال فخرج اليّ فقلت له أشعرت اني قد صبوت . قال فعلت قلت نعم . قال لا تفعل . فقلت بلى قد فعلت . قال لا تفعل وأجاف الباب دوني وتركني قال فلما رأيت ذلك انصرفت فقال لي رجل تحب ان يعلم

(1) هكذا ولعلها وقد كانوا مستخفين

(2) وفي رواية فلم أشأ أن أرى رجلا يضرب ويضرب الا رأيته ولا يصيبني من ذلك شيء

اسلامك. قال: قلت نعم. قال: فاذا جلس الناس في الحجر واجتمعوا أتيت رجلا لم يكن يكتم السر فاصغ اليه وقل له فيما بينك وبينه اني قد صبوت فانه سوف يظهر عليه ويصيح ويعلنه: قال: فاجتمع الناس في الحجر فجئت الرجل فدنوت منه فاصغيت اليه فيما بيني وبينه فقلت أعلمت اني قد صبوت: فقال: ألا ان عمر بن الخطاب قد صبا: قال: فما زال الناس يضربوني واضربهم فقال خالي ما هذا: قال: فقام على الحجر فأشار بكمه فقال الا اني قد أجرت ابن أختي. فانكشف الناس عني وكنت لا أشاء ان أرى احداً من المسلمين يضرب الا رأيته[1] وانا لا أضرب: قال: فقلت ما هذا الشيء حتى يصيبني مثل ما يصيب المسلمين. قال. فأمهلت حتى اذا جلس الناس في الحجر وصلت الى خالي فقلت اسمع فقال ما أسمع: قال: قلت جوارك عليك رد. فقال لا تفعل يا ابن اختي. قال. قلت بل هو ذاك: فقال: ما شئت. قال: فما زلت أضرب وأضرب حتى اعز الله الاسلام اهـ

وروي ان عمر لما اسلم قال. يا رسول الله علام نخفي ديننا ونحن على الحق وهم على الباطل فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم انا قليل وقد رأيت ما لقينا فقال له عمر والذي بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر الا جلست فيه بالايمان ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في صفين من المسلمين حمزة في أحدهما وعمر في الآخر حتى دخلوا المسجد فنظرت قريش الى حمزة وعمر فأصابتهم كآبة شديدة ومن يومئذ سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاروق لانه أظهر الاسلام وفرق بين الحق والباطل

وأخرج الحاكم عن ابن عباس قال لما أسلم عمر قال المشركون قد

«١» يريد الا رأيته يضرب فحذف لفظ يضرب وهو استعمال شائع والمعنى ان الناس وافوا رغبته ولم يحتج هو الى الضرب نفسه

انتصف القوم اليوم منا وأنزل الله (يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين)

وأنت ترى من هذا مكانة عمر في قومه وسمو منزلته في قبيله وما كان لاسلامه من دخول الوهن على نفوسهم اذ قروا وظهور المسلمين عليهم ورجحان كفة المؤمنين على كفتهم وحسبك دليلاً على هذا شهادة القرآن كما رأيت ويؤيدها شاهد العيان أيضاً فان المسلمين بعد اذ كانوا يعبدون الله مستخفين أعلنوا بعد اسلام عمر دينهم وأخذوا يبثون بين الناس دعوتهم لا يبالون بما قام في نفوس قريش من الحقد عليهم وتعمد ايصال الضرر والأذى اليهم فقد روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه انه قال (كان اسلام عمر فتحاً وكانت هجرته نصراً وكانت امارته رحمة ولقد رأيتنا وما نستطيع ان نصلي في البيت حتى أسلم عمر فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا فصلينا) أخرجه في أسد الغابة وأخرج البخاري عن ابن مسعود أيضاً قال (ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر)

ولا جرم فعمر بن الخطاب رضي الله عنه هو الرجل الفذ الجليل الذي قوى الله به الاسلام في منعته وأمر في هجرته ومهد سبيل النشر لدعوته والفتح لأهله فكان رضي الله عنه القدوة الصالحة للمسلمين والمثل المضروب في التقوى والعدل والشهامة ونصرة الدين وتأييد الحق والشدة على الأعداء وإقامة الميزان بالقسط وتعميم دعوة الاخاء والحرية بين الأمم فاسلامه كان من المنن العظيمة التي من الله بها على المسلمين وأيد بها جانب الدين

صحبته

صحب عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحسن صحبته وبذل في نصرته مهجته وروحه في سبيل الذب عن المسلمين ونافح عن سيد المرسلين وظهر من

الشدة على أعدائه والمظاهرة لأوليائه ما أزعج قريشاً عن أذى النبي صلى الله عليه وسلم وخفف وطأة تعسفهم على اتباعه واضطهادهم المسلمين قبل الهجرة الى المدينة حتى اذا أذن الله للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالهجرة أخذوا يهاجرون مستخفين الا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فانه لشجاعته وقهره لقريش وشدة بأسه عليهم هاجر على ملأ قريش . فقد أخرج الحافظ عز الدين الجزري والحافظ ابن عساكر عن عليّ رضي الله عنه قال ما علمت أن أحداً من المهاجرين هاجر الا مختفياً الا عمر بن الخطاب فانه لما هم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه وانتضى في يده أسهماً واختصر عنزته ومضى قبل الكعبة والملأ من قريش بفنائها فطاف بالبيت سبعاً ثم أتى المقام فصلى متمكناً ثم وقف على الحلق واحدة واحدة وقال لهم شاهت الوجوه لا يرغم الله الا هذه المعاطس من أراد ان تثكله أمه ويؤتم ولده ويرمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي . قال عليّ فما تبعه أحد الا قوم من المستضعفين علمهم وأرشدهم ومضى لوجهه

وأخرجا عن البراء بن عازب قال أوّل من قدم علينا من المهاجرين مصعب ابن عمير أخو بني عبد الدار ثم قدم علينا ابن أم مكتوم الاعمى أخو بني فهر ثم قدم علينا عمر بن الخطاب في عشرين راكباً فقلنا ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هو على أثري ثم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر معه

وما زال عمر في هجرته كما كان في مكة شديداً على المخالفين قوّاماً على الحق منافحاً عن رسول الله مراقباً لاعدائه حريصاً عليه من وصول أذاهم اليه مبعضاً لمن أبغضه لا يفتأ يراقب حركات المنافقين ويستطلع ضمائرهم لو قدر حتى لو عرض في أحدهم سوء سريرة في دخوله وخروجه وألزمه حد الادب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والاحترام عنه والخضوع بين يديه . روى ان عمير بن وهب الجمحي

عاهد صفوان بن أمية القرشي بعد وقعة بدر على أن يأتي المدينة ويقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقدمها واستأذن على رسول الله فخرج اليه عمر بن الخطاب وتفرس فيه الشر فأخذ بحمالة سيفه وقال لرجال معه من الانصار ادخلوا على رسول الله واحذروا هذا الخبيث فلما رآه رسول الله قال لعمر اتركه يا عمر ثم سأله عما جاء به فقال جئت لهذا الاسير (يعني أباه وهب لأنه كان أسيراً عند المسلمين أسروه في وقعة بدر) قال اصدقني قال ما جئت الا لذلك قال بل قعدت أنت وصفوان وجرى بينكما كذا وكذا فدهش عمير وأسلم لساعته

وكان ممن يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم بلسانه من قريش سهيل بن عمرو فأسره في وقعة بدر مالك بن الدخشم الانصاري فلما أتى به رسول الله قام اليه عمر وقال دعني أنزع ثنيته يا رسول الله فلا يقوم عليك خطيباً أبداً. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعه يا عمر فسيقوم مقاماً تحمده عليه فتركه (١)

ورأى مرة يهودياً ممسكاً رسول الله يطالبه بدين له فعظم ذلك عليه وأخذ بخناق اليهودي وقال دعني أقتله يا رسول الله فقال دعه يا عمر ان لصاحب الحق مقالا

وله من هذا القبيل اخبار كثيرة ايام صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم تدل على عظيم محبته له واخلاصه في الذب عنه والشدة على من ناواه

---

(١) تحقق مقام سهيل هذا الذي قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ايام الردة وذلك ان قريشاً لما وصلهم نعي رسول الله اضطربوا وكادوا يرتدون فقام سهيل بن عمرو على باب الكعبة وصاح بهم فاجتمعوا اليه فقال يا أهل مكة لا تكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد والله ليتمن هذا الامر كما ذكر رسول الله الى آخر ما قال مما هو مسطور في التواريخ فامتنع أهل مكة عن الردة

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستشير أصحابه في بعض الأمور فكان أبو بكر وعمر أفضلهم عنده وأكثرهم بالصدق لهجتهما وعظيم إخلاصهما ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام في عمر (إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه) رواه الترمذي عن ابن عمر وفي رواية أبي داود عن أبي ذر قال (إن الله وضع الحق على لسان عمر يقول به) وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدَّثون (ملهمون) فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر (متفق عليه كما في المشكات) لهذا كان رضي الله عنه يرى الرأي فينزل به القرآن حتى بلغت موافقاته عشرين ونيفاً ومنها آية تحريم الخمر فإنه لما قال (اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً) نزلت آية التحريم ومنها آية الحجاب فإنه أمر نساء النبي صلى الله عليه وسلم ان يحتجبن فقالت له زينب وإنك علينا يا ابن الخطاب والوحي ينزل في بيوتنا فأنزل الله تعالى وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب) ومنها آية الاستئذان في الدخول وذلك أنه دخل عليه غلامه وكان نائماً فقال اللهم حرّم الدخول. فنزلت آية الاستئذان

الى هذا المقام وصل عمر رضي الله عنه في صدق اللهجة وقول الحق وجميل الصحبة وحسبه فضيلة في نفسه وفضلا على المسلمين في صحبته كونه كان سبباً في تحريم الخمر الذي هو آفة الانسانية وجرثومة الشر وعلة العلل الاجتماعية والامراض العقلية والجثمانية في كل زمان ومكان

هكذا كان عمر رضي الله عنه ناوماً في صحبته ملازماً للنبي صلى الله عليه وسلم شديد الحرص عليه والحب له والمداومة عنه وشهد معه من المشاهد بدراً وأحداً والخندق وبيعة الرضوان وحنيناً والفتح وخيبر وغيرها وكان ممن ثبت مع رسول الله في أحد

أخرج في أسد الغابة عن الزهري وعاصم بن عمر قال: لما أراد أبو سفيان الانصراف (عقب وقعة أحد) أشرف على الجبل ثم نادى بأعلى صوته: ان الحرب سجال يوم بيوم بدر أعل هبل (أي ظهر دينك). فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب: قم فأجبه: فقال الله أعلى وأجل لا سواء. قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار. فلما أجاب عمر أبا سفيان قال أبو سفيان هلم الي يا عمر فقال رسول صلى الله عليه وسلم: ائته فانظر ما يقول. فجاءه فقال له أبو سفيان. أنشدك بالله يا عمر أقتلنا محمداً: قال: لا وانه ليسمع كلامك الآن فقال أبو سفيان أنت أصدق عندي من ابن قمئة وأبر (لقول ابن قمئة لهم قد قتلت محمداً)

وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر غازياً الى ذات السلاسل في جيش أميره عمرو بن العاص وأرسله في جيش اميره أسامه بن زيد مولى رسول الله وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وسافر أسامة بالجيش بعد وفاته وبقي عمر بالمدينة استبقاه أبو بكر كما رأيت في سيرته وبالجملة فان عمر رضي الله عنه خدم الاسلام في صحبته كما خدمه في خلافته وكان مخلصاً في ايمانه مخلصاً لنبيه عظيم الحب له حتى بلغ من حبه له انه لما مات صلى الله عليه وسلم لم يصدق بموته وأصابه من شدة الحزن دهشة وذهول حتى قام فقال. من قال أن محمداً قد مات علوت رأسه بسيفي هذا وليبعثه الله فليقطع أيدي رجال وأرجلهم. والقصة مشهورة أوردنا المهم منها في سيرة أبي بكر رضي الله عنه فكأن عمر ألهم هذا القول حتى أرهب المنافقين وأذهلهم عن الكلام ريثما جاء أبو بكر وسكن اضطراب النفوس ببيانه

﴿ خلافته ﴾

تقدم معنا في الجزء الأول أن أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه عهد بالخلافة الى عمر بن الخطاب قبل وفاته فوليها يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادي الآخرة يوم وفاة أبي بكر ولما تلي كتاب العهد على المسلمين بايعوه جميعاً ولم يتأخر عن بيعته أحد من المهاجرين والانصار مع انه كان توقف بعضهم عن بيعة أبي بكر حالة كونها شورى بين المسلمين كما رأيت في الجزء الاول وانما رضي المسلمون بعهد أبي بكر لعمر بن الخطاب وان خالف قاعدة الشورى وتسامحوا بحق انتخابهم الخليفة لامرين

(الامر الاول) توقعهم الخلاف على الخلافة بين النفر المتطلعين اليها من المهاجرين السابقين فيما لو تركت شورى تتنازعها الاهلية وتجاذبها العصبية وقيام العذر لأبي بكر في عدم تركها شورى لهذا السبب الذي استشعر به قبل وفاته وقد بسطنا الكلام على هذا في باب خلافته فلا حاجة للمزيد

(والامر الثاني) تفرّس المسلمين في عمر الكفاءة على القيام بهذا الامر واقتداره على سدّ ذرائع الفتنة كما تفرّس فيه ذلك أبو بكر وكبار الصحابة الذين استوثق لهم منهم قبل عهده اليه بالخلافة وقد صدقت في عمر رضي الله عنه فراستهم وتحقق بكفاءته رجاؤهم وكانت خلافته رحمة على الأمة كما مرّ في حديث بن مسعود

اخرج الحافظ بن عساكر عن أبي عبيده قال قال عبد الله بن مسعود . أفرس الناس ثلاثة . الملك حين تفرّس في يوسف والقوم فيه زاهدون . والمرأة التي

تفرّست في موسى فقالت (يا أبت استأجره انّ خير من استأجرت القويّ المتين)
وأبو بكر حين تفرس في عمر فاستخلفه

ثم قد استاء بعضهم من استخلاف أبي بكر لعمر الا ان استياءهم لم يكن لفقد الكفاءة ممن أسندت اليه الخلافة وانما كان انصرافا عنهم أو خوفاً من شدة عمر عليهم كما بسطناه في سيرة أبي بكر ومع هذا فانّ أبا بكر رضي الله عنه لم يقض الاّ بعد ان جعل الساخط راضياً فقد أخرج الامام أبو الفرج ابن الجوزي في السيرة العمرية وابن عساكر في تاريخه عن عاصم قال جمع أبو بكر الناس وهو مريض فأمر من يحمله الى المنبر فكانت آخر خطبة خطب بها فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس احذروا الدنيا ولا تثقوا بها فانها غرارة وآثروا الآخرة على الدنيا واحبوها فبحب كل واحدة منهما تبغض الأخرى وان هذا الامر الذي هو أملك بنا لا يصلح آخره الا بما صلح به أوّله ولا يحمله الا أفضلكم مقدرة وأملككم لنفسه أشدكم في حال الشدّة وأسلسكم في حال اللين وأعلمكم برأي ذوي الرأي . لا يتشاغل بما لا يعنيه ولا يحزن لما ينزل به ولا يستحيي من التعلم ولا يتحيّر عند البديهة قويّ على الأمور ولا يجور لشيء منها حده بعدوان ولا تقصير يرصد لما هو آت عتاده[١] من الحذر والطاعة وهو عمر بن الخطاب) ثم نزل فحمل[٢] الساخط أمارة الراضي بها على الدخول معهم توصلا

ومن هذا يعلم ان أبا بكر انما اختار للخلافة عمر رضي الله تعالى عنهما علما بحقيقته وسداً لذرائع الفتنة وطلباً لخير المسلمين ومصلحتهم لا محاباة ولا لغرض آخر كما شهد بذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقد أخرج الحافظ عز الدين الجزري

---

(١) [illegible] نسخة المعدود وفي الحاجة (٢) هكذا في السيرة العمرية وفي تاريخ [illegible] وجعل [illegible] ولم يذكر [illegible] (توصلا)

في أسد الغابة عن سويد بن غفلة الجعفي أنه دخل على علي بن أبي طالب في خلافته فقال: يا أمير المؤمنين اني مررت بنفر يذكرون أبا بكر وعمر بغير الذي هما أهل له من الاسلام. فقام (أي علي) فخطب الناس خطبة طويلة مما جاء فيها عن أبي بكر واستخلافه لعمر قوله (حتى حضرته الوفاة فرأى ان عمر أقوى عليها ولو كانت محاباة لآثر بها ولده) الى آخر كلامه وربما جاء منا في مكان آخر

وهذا الذي تحقق عند المسلمين من حسن نية أبي بكر وكفاءة عمر دعاهم الى الرضا ببيعته والاتفاق على قبول خلافته وان خالفت قاعدة الشورى بين المسلمين وقد قام رضي الله عنه بهذه الوظيفة السامية قياماً محموداً لا يجاريه فيه أحد من قادة الأمم وساسة الحكومات بل كان من عظم أثره وأثر أبي بكر في الخلافة الاسلامية ان كانا مثلا لمن بعدهما يضرب بالعدل وحسن السياسة وحجة على من تنكب طريقهما من الخلفاء وخالف سيرتهما من الامراء

أخرج في أسد الغابة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال «ان الله جعل أبا بكر وعمر حجة على من بعدهما من الولاة الى يوم القيامة فسبقا والله سبقاً بعيداً وأتعبا والله من بعدهما اتعاباً شديداً فذكرهما حزن الأمة وطعن على الائمة»

ولقد صدق رضي الله تعالى عنه فيما قال فانه لم يخرج قوم من المسلمين على الامراء بعد هذين الخليفتين الا مطالبين بمثل عدلهما محتجين بسيرتهما حتى فريق الخوارج الذين يذهبون الى عدم الحاجة الى الامام كانوا يحتجون على الخلفاء بسيرة الامامين الأولين وأول ما احتجوا كان خروجهم على علي رضي الله تعالى عنه هذا على مكانه من الدين والتقوى والعدل حتى ان الخوارج لم يستطيعوا ان يجدوا عليه في سيرته الا مسألة التحكيم التي تبحث في حقيقة لا عليه

وحسب عمر رضي الله تعالى عنه من خلافته ان تكون مثلا في العدل وحجة

على الخلفاء والولاة من بعده بل حسبه من سيرته فخراً وذكراً أن كل المؤرخين سواء كانوا من المسلمين أو المنصفين من غير المسلمين أجمعوا على أنه أعدل من ساس الأمم وأعظم رجل فى الاسلام ولو قدر المسلمون قدر هذا الرجل العظيم الذى يفتخر به تاريخ الاسلام لشيدوا باسمه الآثار العظيمة فى كل مكان ليبقى ذكره حياً بين الناس كما هو حى فى التاريخ وبعد فان أحط البشر عقولا وأضعفهم بصيرة فريق الغلاة من الشيعة الذين يطعنون فى ذلك الرجل العظيم الذى أصبح فى حسن السيرة مثلا فى العالمين وحجة على الخلفاء والسلاطين فأى عار على المسلمين بإزاء الأمم الأخرى ان يكون فيمن ينتسب الى الاسلام جماعة يقدحون فى عمر بن الخطاب على تفرده بالشهرة وجلاله وقدره وجلائل أعماله وآثاره وسبقه بالايمان وخدمته الاسلام فى صحبته وخلافته حتى كان غرة جبين التاريخ الاسلامى وذكرى الفخر العاطر الخالدة مع ان الاسلام يبرأ الى الله من أمثال تلك الفرق التى أسس نحلها ابن سبأ اليهودى وانصاره من أعداء الاسلام ومريدى الشر بالمسلمين ولا يزال أولئك الناس يدعون النسبة الى الاسلام وهو يبرء الى الله من نحلهم الفاسدة التى لا يقبلها ذو عقل ولا تنطبق على دين ولا حكمة وانما هو التقليد الاعمى والجهل يفعلان فى العقول والاوهام ما لا تفعله السموم فى الاجسام

باب

أول أعماله فى الخلافة

كان أول كلام تكلم به عمر رضى الله عنه يوم استخلف ان صعد المنبر فخطب الناس فقال ... ما من العرب مثل جمل أنف اتبع قائده فلينظر قائده حيث يقود

وأما أنا فوق الكعبة لا حملنهم على الطريق

وأول عمل عمله في خلافته ثلاثة أمور. إنتداب الناس مع أبي عبيد الثقفي لحرب الفرس: وعزل خالد بن الوليد وتوسيد الامارة العامة في الشام الى أبي عبيدة عامر بن الجراح. وبعث يعلى بن أمية لأجلاء أهل نجران فأما خبر أبي عبيد فسيأتي معنا في باب الكلام على فتوحات عمر (رض) وأما خبر خالد بن الوليد فقدم معنا ذكره في سيرته وسنعود الى شيء منه عند الكلام على فتوح الشام. وأما خبر نجران فنتكلم عليه هنا لأنه لا يخلو من فائدة تاريخية فيها وعظة وذكرى لقوم يعقلون

﴿ إجلاء أهل نجران ﴾

سبق لنا فيما مر من هذا الكتاب كلام على الدعوة الى الاسلام وأن لا إكراه فيها وأن أساسها التبليغ فمن قبلها كان من المسلمين ومن أبى فعليه أن يخضع لسلطانهم وان يعطيهم جزءاً من ماله يستعينون به على حماية ماله وعرضه ونفسه وله عليهم حق الوفاء بما عاهدوه عليه وأن لا يفتن عن دينه ولا يؤخذ منه من الجزء الا ما رضيه في عهده وان يكون له الذمة والعهد أين حل وحيثما وجد من ممالك الاسلام مادام وافياً بعهده مؤدياً لجزيته لا يخون المسلمين ولا يمالئ عليهم عدوهم وأحسن شاهد على هذا نسوقه اليك في هذا الفصل خبر أهل نجران اليمن وكانوا من الكتابيين لتعلم كيف كانت معاملة أهل الذمة ومبلغ محافظة الخلفاء على عهودهم معهم ما لم يخونوا أو يغدروا وتحرير الخبر عنهم انه كان وفد وفدهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم الى الاسلام فأبوا وسألوه الصلح وان يقبل منهم الخراج فصالحهم على شيء معلوم يؤدونه كل سنة للمسلمين وكتب لهم بذلك كتاباً جعل لهم فيه ذمة الله وعهده وان لا يفتنوا عن دينهم ومراتبهم فيه ولا يحشروا ولا يعشروا وأن يؤمنوا على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وغيرهم

وبعثهم وأمثلتهم لا يغير ما كانوا عليه ولا يغير حق من حقوقهم ولا يطأ أرضهم جيش ومن سأل منهم حقا فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين ولهم على ذلك جوار الله وذمة رسوله أبداً حتى يأتي أمر الله ما نصحوا وأصلحوا وشترط عليهم أن لا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر الصديق رضي الله عنه أقرهم على حالهم وكتب لهم كتاباً على نحو كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع انه كان يتخوفهم ويود إجلاءهم لما روي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يبقين في جزيرة العرب دينان: ولما حضرت أبا بكر الوفاة أوصى عمر بن الخطاب باجلائهم لنقضهم العهد بأصابتهم الربا

فانظر كيف ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يرى ان لا يجتمع في جزيرة العرب دينان لان العرب أمة حديثة عهد بالاسلام وقد عانى صلى الله عليه وسلم ما عانى في جمع كلمتها وتوحيد وجهتها فمن الخطر أن يوجد بين ظهرانيها قوم يتدينون بغير دينها فيفتنون من جاورهم عن الاسلام على حداثة عهدهم فيه وعدم تمكنهم بعد من اصوله الصحيحة

هذا من وجه ومن وجه آخر فان النجرانيين كانوا يتاجرون بالربا ولا يخفى ما فيه من الضرر على من جاورهم من أهل اليمن الذين ينضب التعامل بالربا معين ثروتهم ويؤذن بفقرهم على غير شعور منهم لا سيما وان الشريعة الاسلامية قد حرمته تحريما باتا ولا نؤمن من ان النجرانيين باستمرارهم على تعاطي الربا يحملون بعض من جاورهم من المسلمين على ارتكاب الاثم بالتعامل معهم بالربا

مع هذه الاسباب التي تلجئ الى إكراه النجرانيين على الاسلام فان النبي صلى الله عليه وسلم لم يكرههم على ذلك لان شريعته لم تأذن باكراه أهل الكتاب على الاسلام لهذا تركهم على دينهم بعد أن دعاهم الى الاسلام الذي هي أحسن

فأبوا أعطاهم كتاب العهد المذكور إلا أنه اشترط عليهم فيه أن لا يخونوا المسلمين ولا يتعاملوا بالربا كما رأيت ولما استخلف أبو بكر أكد لهم عهدهم الأول مع أنه كان يرى في وجودهم في جزيرة العرب من الخطر ما كان يراه النبي صلى الله عليه وسلم فلم يسعه في أمرهم الآ ماوسع الرسول (ص) حتى اذا علم انهم خانوا العهد وتعاملوا بالربا أمر في حال مرضه عمر بن الخطاب (رض) باجلائهم عن جزيرة العرب دون أن يفتنوا في دينهم

ولما استخلف عمر (رض) كان أول بعث بعثه بعث أبي عبيد الى العراق كما قدمنا وبعث يعلى بن أمية الى اليمن وأمره باجلاء أهل نجران وأن يعاملهم بالرأفة ويشتري أموالهم ويخيرهم عن أرضهم في أي أرض شاؤا من بلاد الاسلام (لا أن يعاملهم معاملة القوي الغالب للضعيف المغلوب كما هو شأن كل دولة من الدول قبل الاسلام وبعده حتى الآن في معاملة الأمم التي تخالف مذهبها وتخضع لقوة سلطانها)

أخرج الطبري عن سالم في حديث مر بعضه ما هو بمعناه قال فيه عن عمر انه أوصى يعلى بن أمية باهل نجران فقال

أئتهم ولا تفتنهم عن دينهم ثم أجلهم من أقام منهم على دينه وأقرر المسلم وامسح أرض كل من تحلى منهم ثم خيرهم البلدان وأعلمهم أنا نجليهم بأمر الله ورسوله أن لا نترك بجزيرة العرب دينان فليخرجوا من أقام على دينه منهم ثم نعطيهم أرضاً كأرضهم إقراراً لهم بالحق على أنفسنا ووفاء بذمتهم فيما أمر الله من ذلك بدلاً بينهم وبين جيرانهم من أهل اليمن وغيرهم فيما صار لجيرانهم بالريف

وكتب لهم كتاباً هذه صورته كما أوردها البلاذري في فتوح البلدان

«أما بعد فمن وقعوا به من أهل الشام والعراق فليوسعهم من حرث الارض

وما اعتملوا من شيء فهو لهم مكان أرضهم باليمن »

على هذا الوجه أجلى عمر (رض) النجرانيين النصارى منهم واليهود فتفرقوا فنزل بعضهم الشام وبعضهم النجرانية بناحية الكوفة وبهم سميت ولم تقف العناية بهم في اجلائهم والمحافظة على ما بيدهم من العهد وتعويضهم عما تركوه من العقار والمال عند هذا الحد بل كانوا يجدون بعد ذلك من الخلفاء كل رعاية ورفق ولم يرفعوا لاحد منهم مظلمة إلاّ أنصفهم ورفع أذى عماله عنهم وشملهم بالعدل وحاطهم بالعناية

من ذلك انهم شكوا امرة الى عثمان رضي الله عنه لما استخلف ضيق أرضهم ومزاحمة الدهاقين لهم وطلبوا اليه تخفيف جزيتهم فكتب الى الوليد بن عقبة بن أبي معيط عامله على الكوفة كتاباً يوصيه فيهم ويأمره أن يضع عنهم مائتي حلة من جزيتهم لوجه الله وعقبى لهم من أرضهم . وستأتي صورة الكتاب في خلافة عثمان رضي الله عنه

وروى البلاذري عن الكلبي انه لما ولي معاوية أو يزيد بن معاوية شكوا اليه تفرقهم وموت من مات منهم واسلام من أسلم منهم وأحضروه كتاب عثمان بن عفان بما حطهم من الحلل وقالوا انما ازددنا نقصاً او ضعفاً فوضع عنهم مائتي حلة تتمة اربعمائة حلة فلما ولي الحجاج العراق وخرج ابن الاشعث عليه اتهمهم والدهاقين بموالاته فرد جزيتهم الى ما كانت عليه فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة شكوا اليه ظلم الحجاج ونقصهم فأمر فأحصوا فبلغوا العشر من عدتهم فألزمهم مائتي حلة جزية عن رؤوسهم فلما ولي يوسف بن عمر العراق في خلافة الوليد بن يزيد الاموي ردهم الى ما كانوا عليه عصبية للحجاج فلما انقضت دولة الامويين واستخلف بنو العباس لسفاح رفعوا اليه أمرهم وما كان من عمر بن عبد العزيز

ويوسف بن عمر فردهم الى ماتي حلة ولما استخلف هرون الرشيد شكوا اليه تعنت العمال اياهم فأمر فكتب لهم كتاب بالماتي حلة وبالغ بالرفق بهم فأمر أن يعفوا من معاملة العمال وان يكون مؤداهم بيت المال بالحضرة كي لا يتعنتهم أحد من العمال

هذا ما رواه المؤرخون في شأن هؤلاء الكتابيين الذين أجلاهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن جزيرة العرب وقد رأيت تمام مبلغ عناية عمر (رض) بهم لما لم يبد من اجلائهم للاسباب التي مر ذكرها وقد كان من السهل اكراههم على الاسلام ودخولهم فيه كما دخل أولئك الملايين من مشركي العرب وعامة سكان الجزيرة العربية طوعاً أو كرهاً وانما هو الشرع الاسلامي منع من اكراه غير مشركي العرب على الاسلام كما منع من نقض العهد وخفر الذمة إلا بسبب مشروع لهذا لما خان النجرانيون عهدهم تعاملهم بالربا وقد عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يتعاملوا به في الجزيرة ساغ لامير المؤمنين اجلاؤهم الى غيرها بعد ان عوضهم عن المال والعقار مثلاً ومن ثم لم يزل الخلفاء من بعده بالغين بالرفق بأهل الكتاب وقياماً بواجب السيادة العادلة ووفاء بعهد الله ورسوله يعاملون النجرانيين بأحسن ما تعامل به عامة الرعية من المسلمين ويدفعون عنهم أذى الظلم والاجحاف كما رأيت

﴿ حكم الاسلام في المسيحيين وحكم الاوربيين في المسلمين ﴾

يتضح معنا من هذه الحكاية ثلاثة أمور (الامر الاول) عدم اكراه النجرانيين على الاسلام مع تعين الخطر من وجودهم في جزيرة العرب لحداثة عهد أهلها بالاسلام ذلك لان عدم الاكراه من أصول الشريعة الاسلامية والجهاد الذي يعظم أمره أعداء المسلمين انما شرع لحماية الدعوة لا للاكراه الا جهاد مشركي العرب يومئذ فقد شرع لارغامهم على الاسلام لاسباب حكيمة

لا تخفى على بصير أهمها تطهير نفوس تلك الامة العظيمة من شرور الوثنية واستئصال شأفة الجهل والتوحش من جزيرة العرب التي كانت وسطاً بين ممالك الشرق والغرب من آسيا وافريقيا وأوربا بل هي نقطة الصلة السياسية والتجارية بين تلك الممالك فانتشار أنوار المدنية والدين فيها يستلزم انتشارها بطبيعة المجاورة والاشراف على تلك الممالك أيضاً وقد كان ذلك كما هو معلوم

(والامر الثاني) عدم حيد الخلفاء عن أمر الشارع فيما أمر به من الوفاء بالعهود وتأكيدهم لعهد النجرانيين الواحد تلو الآخر على ضعف هؤلاء وقلتهم وقوة الخلافة الاسلامية وسلطتها وان ذلك لم يكن عن رهبة أو رغبة بل عن محض تمسك بالعهد وعدل بين الشعوب الخاضعين لسلطة الخلافة وسلطان الاسلام من كل ملة ودين

(والامر الثالث) حرص أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) على قاعدة حماية الذمي في نفسه وماله بتعويضه النجرانيين عن أرضهم ومالهم بالمثل من أرض المسلمين ومالهم لما قضت الضرورة باجلائهم عن أرضهم الى غيرها من بلاد المسلمين وقد رأيت ما ذكرناه استطراداً في سيرة أبي بكر عن عمر رضي الله عنهما وما فعله من هذا القبيل مع أهل عربسوس من ثغور الروم وكيف انه لما أمر باجلائهم عن أرضهم لخيانتهم جوار المسلمين ونكثهم عهد الامانة والصدق أمر بأن يعوضوا عن مالهم وعقارهم ولعمهم ضعفين ومازال الخلفاء في أيام الفتوح العظيمة وما بعدها يحافظون على حق القرار الثابت والملك القديم للاقوام المغلوبين للمسلمين الخاضعين لسلطانهم سواء كانوا من المسيحيين أو غيرهم ولم يؤثر عن أحد منهم انه طرد قوماً من أرضهم أو نزعها منهم بغير حق ولا عوض ولا غرو اذ ربما يقع من هذا القبيل على بعض الافراد من جور بعض العمال الذين

غلبت شهواتهم على الفضيلة فحادوا عن طريق الشرع فانه قد يصيب أفراد المسلمين من جور هؤلاء أكثر مما يصيب غيرهم وليس في هذا ما يقدح بأصول الحكم الاسلامي الذي يأبى الظلم ويدعو الى الرأفة والعدل

هذا شأن الاسلام في المحافظة على حقوق الأمم المغلوبة وقد رأيت مما تقدم انه لم يعط للمسلمين من حقوق الغالب التي ينتحلها الغالبون في كل عصر الا ما تدعو اليه الضرورة القصوى وتستلزمه سلامة الملك والدين لا ما تدعو اليه شهوات الملك ورغبات الأمة الغالبة وقد علم هذا المسلمون وخلفاؤهم وان لاهل الذمة ما لهم وعليهم ما عليهم مما لعوا في الرأفة بأهل جوارهم والداخلين في ذمتهم من أرباب الملل الاخرى فتركوا لهم حرية التملك والدين ولم ينزعوهم حقاً من حقوق المواطنة والجوار بل كانوا يعتبرونهم جزءاً من الدولة وعضواً من أعضاء مجتمعهم لا غنى عن مشاركته في العمل ومشاطرته أسباب السعادة المدنية والحياة الوطنية يؤيد هذا اعتماد الخلفاء الامويين والعباسيين على أهل الكتاب من اليهود والنصارى في ترتيب دواوين الخراج وترجمة علوم اليونان وتقريب النابغين منهم في علوم الهندسة والطب اليهم واعتمادهم في شفاء عللهم عليهم بل بلغ بالمسلمين اعتبارهم لاهل الكتاب عضواً من جسم هيئتهم الاجتماعية لا يجوز فصله في حال من الاحوال ان جيوش التتار لما اكتسحت بلاد الاسلام من حدود الصين الى الشام ووقع في أسرهم من وقع من المسلمين والنصارى ثم حصد المسلمون شوكة التتار في الشام ودان ملوكهم للاسلام خاطب شيخ الاسلام ابن تيمية رأس العلماء في عصره أمير التتار قطلوشاه باطلاق الأسرى فسمح له بالمسلمين وأبى أن يسمح له بأهل الذمة فقال له شيخ الاسلام لابد من افتكاك جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا ولا ندع أسيراً لا من

أهل الله ولا من أهل الذمة فاطلقهم له (١)

وكيف لا يقوم بها المسلمون وخلفاؤهم بحماية أهل ذمتهم وقد استوصى بهم النبي صلى الله عليه وسلم أمته خيراً وكذلك الخلفاء الراشدون من بعده كما رأيت فيما مر من هذا الكتاب وكما سترى بعد ونحن ننقل اليك هنا على سبيل الاستطراد ما جاء في كتاب كتبه عمر بن الخطاب (رض) الى عمرو بن العاص عامله على مصر وهو قوله

«واعلم يا عمرو ان الله يراك ويرى عملك فانه قال تبارك وتعالى في كتابه (واجعلنا للمتقين إماما) يريد ان يقتدى به وان معك أهل ذمة وعهد وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم وأوصى بالقبط فقال «استوصوا بالقبط خيراً فان لهم ذمة ورحماً» ورحمهم ان أم اسماعيل منهم وقد قال صلى الله عليه وسلم «من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فانا خصمه يوم القيامة» احذر يا عمرو أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم لك خصماً فانه من خاصمه خصمه. والله يا عمرو لقد ابتليتُ بولاية هذه الامة وآنست من نفسي ضعفاً وانتشرت رعيتي ورق عظمي وأسأل الله أن يقبضني اليه غير مفرط. والله اني لأخشى لو مات جمل بأقصى عملك ضياعاً ان أُسأل عنه يوم القيامة»

---

(١) رأيت هذه الحكاية التاريخية المهمة في نسخة خطية من الرسالة القبرصية التي قدمها شيخ الاسلام ابن تيميه لسرجوان ملك قبرص لافكاك أسرى المسلمين منه ودفعت هذه الرسالة الى الفاضل الشيخ علي أفندي يوسف صاحب جريدة المؤيد الخطيره فطبعها من عهد قريب على نفقته ومن الاسف ان تغفل مؤرخو المسلمين أمثال هذه الحوادث المهمة التي هي مرمى غرض التاريخ الصحيح ولو وعوا نقل كل الحوادث الاجتماعية التي لها علاقة باصول المدنية الاسلامية وعصورها لنفعوا الاسلام والمسلمين

تأمل قول هذا الخليفة العظيم الذي يوصي بمعاملة أهل الكتاب ترى الرهبة من الله بادية في كلامه، وعلائم الخشوع والحنان المنبعثة عن وجدانه الطاهر مرتسمة في تضاعيف كتابه حتى كأنه واقف بين يدي الله يسأل عن حقوق خلقه ويحاسب عن عمله في رعيته . إن في هذا لآيات من العدل وغايات في إنصاف الرعية غير المسلمة لا يدرك شأوها الولاة والسلاطين في كل أمة من أمم الارض الآن

وأعظم من هذا وأجل أن آخر وصايا عمر التي أوصى بها عند وفاته كانت بالمهاجرين والانصار وأهل الذمة اذ كتب لمن يخلفه كتاباً قال فيه : وأوصيه باهل ذمة الله وذمة محمد صلى الله عليه وسلم ان يوفي بعهدهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم وان يقاتل من ورائهم الخ ما جاء في الكتاب كما ستراه في محله ان شاء الله

هذا شأن الحكم الاسلامي في أهل الذمة ومبلغ عناية الخلفاء بالخاضعين لسلطانهم من غير المسلمين أوردناه مؤيداً بالشواهد التاريخية مع انه يكاد يدرك ببداهة الحس لان اليهود والنصارى في الممالك الاسلامية مازالوا يتمتعون بكل ما يتمتع به المسلمون من الحقوق مدى ثلاثة عشر قرناً ولم تنزع منهم أرض ولم يطردوا ويشردوا عن أوطانهم ولم يفتنوا عن دينهم ولو أصيبوا بما يصاب به المسلمون في ممالك النصرانية لما بقي منهم في هذه القرون الطويلة باقية مع ان الاسبانيول ما لبثوا ان دخلوا بلاد الاندلس واكتسحوا ذلك الملك الاسلامي العريض حتى فتنوا المسلمين عن دينهم وطردوهم عن ملكهم واغتصبوا تراثهم وسفكوا دماءهم وشردوهم عن بلاد الاندلس تشريداً ما أبقى لهم في بضع سنين باقية ومحا كل ما تركوه من آثار العلم والمدنية في تلك البلاد التي كانت جنة الارض في عصرهم

واذا انتحل للاسبانيول عذر البربرية والتوحش وانهم انما كانوا يومئذ في عصور الجهالة الاوربية فهل يقال انهم كانوا أحط في الاخلاق والمدنية من تلك الامة البدوية التي نشأت في جزيرة العرب على الغارة والسلب وسفك الدماء وعبادة الاوثان ثم لما اندفعت للفتح وأتيحت لها قوة الغلب على الأمم وأخصها أهل الكتاب كانت سياستها في الملك ورأفتها بالمغلوبين ما رأيت فيما تقدم

نقول ولا نكران للحق ان الاسبانيول لم يكونوا في تلك الدرجة من الهمجية بل كانوا كل الأمم الاوربية في دور تمدن جديد نبتت أصوله بين العرب يومئذ وأظلت فروعه ممالك الغرب وانما عمله علوم الدين وتعصبهم الديني هو الذي جعل هذا البون البعيد بين الفريقين وباين في السياسة بين الفاتحين وأين من يوصي الجيوش الفاتحة بالرفق بالمسيحيين واعتبارهم بعد الغلب بجزء لا ينفصل عن مجتمع المسلمين له مالهم من رعاية وعليه ما عليهم من حق كما في وصايا الخلفاء الى رأيت ممن يصور للأمم المسيحية المسلمين في صورة وحش ضار يتحفز للوثوب على الشعوب وهؤلاء هم قادة المسيحيين وحملة الدين المسيحي ومنهم مثيرو نار الحروب الصليبية من القسس ومدبرو مكائد جمعية التفتيش الديني (الانكيزسيون) في اسبانيا بل ومنهم كان في هذا العصر عصر المدنية والنور المستر غلادستون وزير انكلترا الشهير بحملاته الخطابية على الاسلام والمسلمين

أليس بعجيب ان يقرر الاسلام مبدأ المساواة بين الشعوب الخاضعين لسلطانه ويحتم على أهله حماية اليهود والنصارى في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ونحلهم ومعابدهم على هذه الحماية علماء المسلمين كل ما جاء حادثة يؤكد عهد السابق مدى هذه القرون الطويلة ولا يوجد الى هذا العهد من قادة الأمم النصرانية وحملة الانجيل في الممالك الغربية من يرفع غشاء التعصب الصفيق

وينصف المسلمين فى دينهم ويماء لهم ولو بحسنة من حسناتهم اللهم ان هذا لمنتهى الصمم فى الوجدان والتجرد عن العدل والتقمص فى لباس الاوهام والى الله نبرأ عنه معاشر المسلمين مهما كان حالنا واتى بلغ انحطاطنا والتاريخ شاهد عدل

رب معترض يقول اننا بالغنا فى تعنت الأمم المسيحية والتبرئ من وصمة التعصب الذميم الذى نرمي به الدول الغربية مع أن المسلمين بشر كأولئك الناس لا تتنزه نفوسهم عن الظلم والتعصب ولم يخل تاريخ حكومتهم من اعنات رعيتها من غير المسلمين وان كان دينهم يأمرهم بمحاسنة أهل جوارهم من الكتابيين فنجيب عن ذلك نعم ان المسلمين ليسوا ملائكة معصومين هبطت عليهم السكينة من السماء الآن دينهم الذى أمر بالعدل بين الرعية والوفاء بعهود أهل الذمة وجاء للتأليف بين القلوب ونهى عن ظلم أهل الكتاب والتعدي على حقوق الجوار هذب نفوسهم واجتث أصول التعصب الاعمى من أفئدتهم فكانوا أحسن الامم معاشرة مع مجاوريهم من الكتابيين فأطلقوا لهم حرية الدين واقامة الشعائر والعادات وأمنوهم على المال والارض وحرية المتاجرة وشاركوهم فى الاعمال وحسبك من ذلك أن الشارع سمى الرعية غير المسلمة ذميين أي داخلين فى ذمة المسلمين وعهدهم لا يضارون فى عرض ولا نفس ولا مال فأصبح هذا الاسم علماً على المسيحيين واليهود عند المسلمين يذكرهم بالعهد اذا نسوا ويستلينهم اذا قسوا ولما تناسى المسلمون هذا الاسم الآن كما تناسوا كثيراً من شعائر دينهم وتسامحوا أصول شرعهم اذا نفخ في المسلمين شئ من روح التعصب على المسيحيين وجفوا اخوانهم فى الوطنية وان لم يكونوا اخوانهم فى الدين فانما كان نافخ هذه الروح ومصدر نار الفرقة والخلاف بين الفريقين حروب الصليب التى أسعر لهيبها في المشرق خطباء الدين والسياسة فى الممالك المسيحية وما تلا ذلك من

تحول قوة لغلب في العصور المتأخرة الى الدول الاوربية وايغالها بسبب ذلك في التحكم الجائر على دول الاسلام والتداخل بشؤون المسيحيين في المشرق تداخلا ممزوجاً بالاغراض السياسية مبنياً على القسوة والجبروت في مناواة دول الاسلام مع مايضاف الى هذا من دس الدسائس للتغرير بالمسيحيين في مناوأتهم لمجاوريهم المسلمين والخروج على الحكومة الاسلامية بدعوى التظلم من جور الحكام الظالمين حتى أصبحت المملكة العثمانية منذ قرن تقريباً كميدان حرب تباع فيه أرواح المسلمين والمسيحيين بلا حريرة ولا اثم الا الجهل الذي زج بهم في غمار الفتن خدمة لمصلحة الدول الاوربية على غير علم عن يخدمون ومن ثمّ كان المسؤول عن شروح الجفاء والتعصب في نفوس المسلمين هم قادة المسيحية وساستها وحملة كتابها لا المسلمون أنفسهم

أجل قد وجد في بعض العصور الاسلامية ناس من علماء الدين الاسلامي متعصبون تناسوا وصايا نبيهم وخلفائه الراشدين بأهل الذمة لكنهم أفراد من أهل العلم الناقص لا يدل على عمايهم حكم. إنما تطرق اليهم ذلك التعصب من بعض مذاهب الشيعة الذين يتأولون الآيات بما يوافق مذهبهم الباطل سامحهم الله وهداهم ومع هذا فلم يبلغوا مبلغ علماء الدين المسيحي من التعصب ضد الاسلام والمسلمين كما انه وجد حكام تعسفوا في الحكم وآذوا أهل الكتاب فسلبوهم كثيراً من مزايا التمتع بحسن المجاورة والمعاشرة مع المسلمين لكن أولئك قوم قد نزع الله الرحمة من قلوبهم وقصرت عن مدارك العدل مداركهم فكان المسلم والذمي في جورهم سواء وأي ولقي المسلمون منهم من البلاء أكثر مما لقي المسيحيون على ان الدول الاوربية لو تركت المسلمين وشأنهم مع مواطنيهم من المسيحيين ولم تنفث فيهم سم النفور والجفاء لوجدوا لأنفسهم سبيلا للراحة

ومندوحة عن تحمل الظلم والعناء

ومع هذا فان جور بعض الحكام لا يعتبر أساساً فى نوع الحكم والحكم فى معاملة الذمي فى الاسلام هو ما رأيت مما مر فى هذا الفصل من عناية الخلفاء بالكتابيين ووصاياهم باهل الذمة والعهد واذا قابلنا بين هذا الحكم وبين الحكم فى معاملة المسلم عند الدول المتمدنة المسيحية فى هذا العصر لرأينا الفرق واضحاً والتباين بينهما فاضحاً إذ ان الاسلام لم يأت بقانونين متباينين لحكم الامم الغالبة والمغلوبة وانما أتى بقانون واحد الناس كلهم فى شرعه سواء واما قوة الغلب التى أتيحت فى العصور المتأخرة للدول المسيحية فقد نزعت من قلوب زعمائها كل حنان ورحمة فى معاملة المسلمين معاملة القوي القاهر للضعيف المغلوب حتى بلغ بتلك الدول أن جعلت وزارة المستعمرات منفصلة عن جسم الحكومة الوطنية تدير شؤون رعيتها فيها على أساس العسف والاستبداد وان كانت تدار شؤون أمتها الغالبة على أساس الدستور والعدل وحسبك بهذا ان دولة فرانسا التي توسعت فى هذا العصر بدعوى الانسانية والعلم والحرية أصبحت أشد الدول المسيحية وطأة على رعاياها المسلمين ونزع الفرنساويون في الجزائر منازع القوة والجبروت فانتزعوا من المسلمين أراضيهم وأملاكهم وأوقافهم وحجروا على حرية التعليم عندهم واستبدوا في أموالهم وأرواحهم حتى بات خرثرى في حالة من الضنك والفقر والجهالة يتفطر لها القلب وحتى كانت الدولة الفرنساوية أبغض الدول الى المسلمين في هذا العصر ويتلوها فى المرتبة هولاندا في معاملتها الداسية لمسلمي الجاوى ويتلوهما النمسا في معاملتها لمسلمي " بوسنة وهرسك ويتلو هذه الروسية وحكومات البلقان وهكذا كل دولة ورثت شيئاً من ملك المسلمين وامتهم ومع أن دولة انكلترا هي أخف الدول المسيحية وطأة على المسلمين

وأسدهن سياسة في المستعمرات وأطلقهن لحرية التعلم والتملك والمتاجرة والدين في مستعمراتها الشرقية سواء كانت اسلامية أو غير اسلامية الا اننا نرى بين الحكومة الانكليزية في حكمها في البلاد الشرقية وبين الأمة الانكليزية في معاملتها الشرقيين بوناً شاسعاً وفرقاً عظيماً اذ بينا نري أساس الحكم الانكليزي في الأمم الخاضعة له خارج الجزيرة البريطانية مبنياً على ما تقدم من حسن السياسة نرى من وجه آخر أفراد الأمة الانكليزية يمتهنون الشرقي امتهاناً لا يطيقه بشر بل لا يجوز صدوره عن بشر ويغالون في حب الذات الى حد يكاد يبغض للمسلمين وغيرهم من المحكوميين لتلك الأمة ذلك الحكم الانكليزي مهما بلغ من العدل ومن أغرب ما رأينا في الجرائد من هذا القبيل ان أحد أمراء الهند الكبار مر على مدينة رأس الرجاء الصالح في افريقيا الجنوبية من عهد قريب فلم يتيسر له النزول في فندق من فنادق تلك المدينة لانها كلها تضيف الانكليز ولا سبيل لشرقي مهما كان مقامه أن يدخل مكانا فيه رجل انكليزي بل والانكليز هناك يأبون ان يروا معهم حيثما كانوا رجلا من الشرقيين ورأينا كثيراً من أمثال هذه الحادثة في الجرائد مما يدل على التناهي في الجبروت والاغراق في حب الذات[1]

---

(١) بعد كتابة هذا الفصل اطلعنا في العدد ٣٥٨١ من جريدة المؤيد الصادرة يوم الاحد عشرة ذي القعدة (سنة ١٣١٩) على رسالة من دربان نتال في أفريقا الجنوبية يقول المرسل فيها ما نصه « ارسلت لكم نسخة من جريدة (مكري) المطبوعة في نتال في (نور مايريت) وهي ان المؤذن بينما كان واقفا على رأس منارة عالية يؤذن لم يشعر الا وصاص ناري أصابه من يد أحد المتمدنين الانكليز لانه أزعجه بصوته فسقط المؤذن على [illegible] حمراء محرقة قضت نحبها في هويها (كذا) وقد قبض على الجاني وهيهات ان يلاقي عقاب الموت لانه لم يعهد ان انكليزياً يقتل في وطني بهذه البلاد ولا في الشرق كله ثم ذكر حادثة أخرى وقعت لامام هذا الجامع يأبى القلم أن يسود ذكرها صحيفات هذا الكتاب

فأين ماتعامل به المسلمين الدول الاوربية فى هذا العصر الذى دالت به لهن الدولة وأتيح لهن الغلب على الأمم مما كانت تعامل به دولة المسلمين فى ابان مجدها وأيام فتوحها رعيتها من المسيحيين وأين ماعامل به عمر بن الخطاب ومن بعده من الخلفاء أهل الكتاب من النجرانيين مما تعامل به دولة فرانسا مسلمي الجزائر الذين لم يبق لهم أرض ولا مال ونزع ذلك منهم الفرنساويون بلا عوض ولا حق ولا عدل

لا جرم أن الحق والعدل والانصاف يقضي على حملة الدين المسيحي الذين كانوا يصورون المسلمين فى صورة وحش صار ان يصوروا التمدن الاوربي وأهله فى أقبح صور الحيوانية وأخس لباس التوحش والهمجية بعد ما بسطناه من المقابلة بين حكم الاسلام فى المسيحيين وحكم التمدن فى المسلمين ومن العار على هذه المدنية أن تصل الى أرقى درجات الزهو بالمظاهر والصور وهي تنحط الى دركات التسفل فى الاخلاق والتنائي عن الرحمة والبعد عن فضيلة العدل فتنقض بأهلها على المسلمين انقضاض الجوارح على فريستها الضعيفة ولا ذنب لأولئك المسلمين الا كونهم كانوا أمة عزيزة الجانب قوية السلطان فأتاح الله لهم وسائل الغلبة على الامم وبسط جناح السلطان على جزء عظيم من الارض حكموا أهلها بالعدل وساسوا رعيتهم بقاعدة الاخا والمساواة وأحيوا تمدن الرومان واليونان ونشروا على الممالك نور المدنية والعلم حتى اذا دالت بحكم سنن البقاء دولهم وانطفأ مصباح مدنيتهم واختل نظام ملكهم بتغلب شهوات أمرائهم وجهل قادتهم أصبحوا فى نظر الدول الاوربية ذات الغلب عليهم لا يستحقون الرأفة ولا يجارون بغير الظلم والاستعباد ان هذا لشيء عجيب

يقول الاوربيون ان المسلمين أمة نفخ فيهم روح التعصب وأجدبه

والبعض ان لا يدين بدينهم من الناس وهو قول مبني على الاستمرار النقص عند الباحثين وعلى الغرض أو التعصب الذميم عند السياسيين وعامة القائلين بهذا القول وانما تسلط هذا الوهم على عامة الاوربيين لما كان يكتبه عن الاسلام رؤساء الدين المسيحي في أوربا في القرون المتوسطة من الاضاليل التي كانوا يريدون بها إيقاف تيار الاسلام ومن ثم أصبح الاوربيون حتى هذا العهد كأنما هم في عالم والاسلام في عالم آخر لم يحققوا من أمره وأمر أتباعه شيئاً في الدين والاخلاق ولو بحثوا عن ذلك أقل بحث مجرد عن الغاية السياسية أو التعصب لأدركوا خطأهم ببداهة الحس اذ أن قوماً مضي عليهم ثلاثة عشر قرناً وهم باسطون جناح السلطان على قسم عظيم من الارض يقطنه ملايين من المسيحيين يتمتعون الى الآن بسائر ما يتمتع به الوطني في وطنه لقوم تشهد لهم بداهة التاريخ بأنهم ألزم الاقوام لأدب الجوار وأبعدهم عن تحكم الغلب وجبروت السيادة لدى يظهرون كل فاتح عظيم

آن للاوربيين ان يمزقوا عن بصائرهم حجب الغرض والوهم ويعلموا ان الاسلام يأمر أهله بالتآلف وحسن المعاشرة والجوار ومجاملة من أحسن اليهم وان لا يخاشنوا الا من خاشنهم وأراد امتهانهم وان المسلمين بما فطروا عليه من كرم الاخلاق وجميل المعاشرة أعظم الناس اعترافاً بالجميل ورضىً بالقضاء وميلا للفضيلة وقد قضي جهل أمرائهم بتقلص ظل سلطانهم السياسي عن معظم ممالكهم الشاسعة فدالت دوله المشرق للغربيين فاذا حكمهم هؤلاء بالعدل وساسوهم بالرأفة وعاملوهم معاملة الطير امتلكوا قلوبهم واستأنسوا بافرهم واستفادوا من إخلاصهم كما تستفيد الآن دوله انكلترا من اخلاص المسلمين الذين تحت حكمها الواسع لاطلاقها لهم حرية الفكر والدين ونشرها بينهم أنوار المعارف والعلم والآمن الظلم الفاضح والعار المشين على الدول المتمدنة المسيحية

وأخصها جمهورية فرانسا الجائرة على المسلمين أن تعامل محكوميها من المسلمين بعكس ما تعامل به الدول الاسلامية حتى هذا اليوم رعاياها المسيحيين من منحهم حرية التمتع بسائر ما يتمتع به رعاياها المسلمون من الحقوق لا سيما في المملكة العثمانية ومن العبث ان تختط الدول الاوربية لنفسها خطة العسف وحب الاثرة والجور في حكمها في الشرق وترجو مع هذا تمكن سلطانها في هذا الجزء العظيم من الارض وفيه ثلاثمائة مليون من المسلمين كانت لهم السيادة عليه والسلطان العظيم فيه ومن الحكمة وحسن السياسة أن يعوضوا عن هذا السلطان بجميل المعاملة وحقوق الوطنية والقرار ولو كانوا أمة صغيرة أو شعباً حقيراً لا يؤبه له كهنود أميركا مثلا لساغ للدول الاوربية أن تعاملهم بما شاءت من ضروب القسوة والاذلال حسبما يوحيه اليها شرع التمدن الحديث وأما أمة كالمسلمين شأنها ما ذكرنا فمن المحال أن ترضى لنفسها الاذلال وإن طال عليها المطال والله ولي الرشد وهو الموفق بين القلوب

باب

فتوح الشام

علمنا مما مر في الجزء الأول كيف أن الجيوش الاسلامية فلت جموع الروم على اليرموك وذكرنا ثمة ما كان من الخلاف بين المؤرخين في ترتيب الوقائع التي كانت قبل ذلك الى فتح دمشق وفي الحقيقة إن تلاحق الوقائع التي حدثت بالشام من أوائل السنة الثالثة عشرة الى أوائل السنة الرابعة عشرة أوجد اضطراباً في الروايات في ترتيب تلك الوقائع واختلافاً بين الرواة في تعيين الزمن لا في أصل

الوقائع بل هذه اتفق عليها ثقات المتقدمين من رواه تاريخ الفتح الاسلامي كسيف ابن عمر الأسدي وابن اسحاق والواقدي ومن تلاهم من مدوني التاريخ كابن جرير الطبري والدينوري وابن واضح وغيرهم من المتقدمين وقد استقصى ابن جرير في تاريخه معظم الروايات الواردة عن المحدثين بأخبار الفتح على اختلافها وترك الحكم فيها للناقد شأن كل المؤرخين في الاسلام ونحن نعتمد ما اعتمده المؤرخون بعدُ في سرد الوقائع المختلف في تعيين زمنها إذ ليس سرد الروايات من الاهمية في شيء مادام من الثابت حصول الوقائع وما أطن ذلك الاختلاف بين الرواة ناشئاً الا عن حصول عدة من الوقائع في آن واحد أو وردها الرواة متفرقة من طرق شتى فاختلط أمرها على المؤرخين وبعض الرواة أو أن تلاحق بعض الوقائع ببعض أوجب ذلك الاختلاف كما ذكرنا قبل والعبرة في كلا الحالين في تحقيق الخبر لا في تعيين الزمن كما لا يخفى على بصير

﴿ فتح دمشق ﴾

(وانحياز هرقل الى حمص)

لما انتصر المسلمون في وقعة اليرموك كان هرقل في أورشليم وقد جاءها لاجل الاحتفال بعيد تخليص الصليب المقدس الذي استرده من دولة الفرس قبل ذلك ولم يكن هو ورجال دولته يوقنون بان قوة المسلمين تبلغ من كيدهم مالم تبلغه جيوش دولة الفرس العظيمة حتى جاءه خبر انتصار المسلمين في اليرموك فنخب قلبه وأسقط في يده فنظر فرأى أن مقامه في أورشليم (القدس) خطر عليه سيما اذا انساح المسلمون في أحشاء البلاد فأسرع بالرحيل الى شمال سوريه ولحق بمدينة حمص ليجعلها مقراً لاعماله الحربية ومن ثم أخذ يبث المقاتلة ويذكي العيون ويسرّح القواد الى مواقف الحرب وسلم أخاه تدارق (العلا تيودور) القيادة العامة

وتربص وفي حمص وقد أخذ عليه بعض المؤرخين عدم حضوره الوقائع بنفسه وانه لو حضرها لكان ذلك أدعى لتشجيع جنوده وأرجى للنصر على أن هرقل كان ملكا حازما ليس بالجاهل ولا الجبان يدلك على هذا ظفره قبل حربه مع العرب بالفرس [1] لهذا فلا بد لتجافي هرقل عن جيشه في حرب المسلمين من عذر

---

(١) كان الفرس عبروا بلاد الروم ودوخوا ممالك الدولة البزنطية حتى وصلوا الى القسطنطينية وذلك حوالي سنة (٦١٤ م) فاشهر هرقل عليهم الحرب ثانية سنه (٦٢١ م) أي بعد الهجرة بسنة واسترد هذه البلاد والقصة مشهورة جاءت في القرآن الكريم في قوله تعالى (الٓمٓ غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) ويعني بأدنى الارض اذرعات وهي أدنى أرض الروم الى العرب وكانت الروم قد هزمت بها في اعظم وقائعها وكان سبب نزول الآيات ان النبيّ صلى الله عليه وسلم كان قد ساءه وساء المسلمين ظفر الفرس اولا بالروم لان الروم أهل كتاب وفرح مشركو العرب لان المجوس أميون مثلهم فلما نزلت هذه الآية راهن أبو بكر الصديق أُبَيّ بن خلف على أن الظفر يكون للروم الى تسع سنين مصداقاً لما نزل به القرآن و لرهن مائة بعير (ولم يكن الرهن يومئذ حراماً) فظفرت الروم وغنمه أبو بكر وأتى الخبر بظفر الروم النبي صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية وكانت سنة ست للهجرة واذ كانت حملة هرقل على الفرس ابتدأت سنة (٦٢١ م) أو التي بعدها أى قبل الهجرة بسنة واحدة وكان الروم غلبوا مرة في هذه السنة فيكون استمرت هذه الحرب نحو سبع سنين وانتهت بظفر الروم مصداقاً لما نزل به القرآن الكريم في قوله تعالى (في بضع سنين) والبضع ما بين الاربعة الى التسعة وقد جاء في تواريخ الغربيين ما يؤيد ذلك وحاصل ما ذكره عن هذه الحوادث ادوارد جيبون الانكليزي في (تاريخ الامبراطورية الشرقية) ان كسرى ابرويز ملك الفرس غزا بجيوشه مملكة الرومان الشرقية [illegible] في سنة ٦١٤ م [illegible] هذا فدوخ سورية ومصر وآسيا الصغرى حتى وصل الى حدود القسطنطينية ومن [illegible] الامبراطور هرقل [illegible] هرقل [illegible] [illegible] [illegible] حسبي [illegible] هو [illegible] الفرس [illegible] في [illegible] [illegible] عصي [illegible] [illegible] والمؤن وخرج [illegible] في سنة ٦٢٢ م من القسطنطينية حتى [illegible] [illegible] جيوشه

اضطره لهذا التخلف ولعله لما رأى منهم شدة البأس والدربة على الحرب وحسن السياسة في البلاد التي افتتحوها وشعر بميل السوريين اليهم وتأففهم من جور الحكام الرومانيين خامر نفسه شيء من اليأس من امكان دفع المسلمين عن البلاد لا سيما وان الحرس الروماني في البلاد السوريه لم يكن في عدد كاف لحماية البلاد وانما كان حماتها من العرب المتنصرة ومن نفس سكان البلاد الذين كانوا خليطاً من السريان والعرب واليهود والروم واذا صح هذا الرأي فلا يؤاخذ هرقل على انحيازه الى حمص وتباعده عن مواقع القتال أخذاً بالحيطة لنفسه وتمسكاً بأسباب النجاة اذا ظفر المسلمون بجنود الروم وانكفأوا على شمال البلاد

لم يكن المسلمون يومئذٍ على ما عهدوه من البداوة جاهلين أحوال البلاد غير خبيرين بقوة أهلها وطرقها ومسالكها بل كانوا على بصيرة من أمرهم ووقوف على مبلغ قوة عدوهم بمن كان فيهم من سادات قريش الذين اختبروا حالة البلاد في الجاهلية باختلافهم اليها للمتاجرة لهذا أعدوا لهذه الحرب عدتها من التدرب والاناة وحسن البصيرة في ترتيب الجيوش وقيادتها يضاف الى هذا

ومن ثم مخر الاسطول في عباب البحر الابيض حتى انتهى الى الاسكندرون بعد معاناة نصب شديد في البحر وهناك رأى هرقل في خليج الاسكندرون مرسى أميناً لسفنه لا تصل اليه كيد البحر ولا كيد عدو فأمر بان ترسو فيه السفن وانزل الجنود الى حدود سورية وكيليكيا «اذنه» ونصب معسكره قرب إِسُس في السهل الذي انتصر فيه الاسكندر المقدوني على ملك الفرس «وهو سهل الاسكندرون» وأخذ يدرب جنوده على فنون الحرب ويمرنهم على الطعن والضرب ولما علم بذلك الفرس انكفأوا الى داخل البلاد فتعقبهم هرقل وانتصر عليهم بحسن تدبيره الحربي ومزق جموعهم كل ممزق ثم جهز عليهم حملة ثانية وضرب بهم حتى اجلاهم عن ممالكه ولما كانت سنة «٦٢٨ م» انعقد الصلح بين الفريقين وكان ولي ملك فارس كسرى اردشير بعد أن قتل أباه ابرويز وصالح هرقل على ان يعيد جميع الممالك الى أصحابها اهـ وجاء في تاريخ الكامل لابن الاثير ما يتفق معنى بما ذكرناه وفيه زيادة تفصيل

ما يصاحب عامة المقاتلين من الشجاعة العربية وكمال الايمان وعدم الرهبة من الموت في سبيل نصرة الاسلام وتعميم دعوة القرآن . لهذا فلا يتوهمن متوهم من بداوة أولئك الفاتحين الشجعان أن حروبهم مع الروم أو الفرس كانت همجية على غير نظام ولا ترتيب بل انهم كانوا على أحسن ما يكون من البصيرة بأمر الحرب يعلم هذا من دقق النظر في كيفية حروبهم مع الروم في الشام وكيفية قيادتهم للجيوش وتبصرهم في تدويخ البلاد كما سيأتي بيانه في غضون الكلام على فتح دمشق وغيرها وسنفرد له فصلا خاصاً نفصل فيه الكلام على ذلك أحسن تفصيل ان شاء الله تعالى وها نحن ذاكرون هنا كيفية مسير المسلمين الى دمشق بعد اليرموك نقلاً عما ذكره الطبري من رواية سيف وذلك ببعض تصرف واختصار قال

لما هزم الله جند اليرموك وتهافت أهل الواقوصة وفرغ من المقاسم والانفال وبعث بالاخماس وسرحت الوفود استخلف أبو عبيدة على اليرموك بشير بن كعب بن أبي الحميري كي لا يغتال بردة ولا تقطع الروم على مواده(1) وخرج أبو عبيدة حتى نزل بمرج الصفر وهو يريد اتباع الفالة ولا يدري يجتمعون أو يفترقون فأتاه الخبر بأنهم اجتمعوا بفحل وأن المدد قد أتى أهل دمشق من حمص فهو لا يدري أبدمشق يبدأ أو بفحل من بلاد الأردن فكتب في ذلك الى عمر وانتظر الجواب وأقام بالصفر فلما جاء عمر فتح اليرموك أقر الأمراء على ما كان استعملهم عليه أبو بكر الا ما كان من عمرو بن العاص وخالد بن الوليد فانه ضم خالداً الى أبي عبيدة وأمر عمراً بمعونة الناس حتى يصير الحرب الى فلسطين ثم يتولى حربها

ولما انتهى كتاب أبي عبيدة الى عمر بالذي ينبغي أن يبدأ به كتب اليه أما بعد

---

(1) أي كي لا تقطع عليه جند مواصلته حتى لا تنقطع معونته [illegible]

فابدأوا بدمشق فانهدوا لها فانها حصن الشام وبيت مملكتهم واشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بإزائهم في نحورهم وأهل فلسطين وأهل حمص فان فتحها الله قبل دمشق فذلك الذي نحب وان تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق فينزل بدمشق من يمسك بها ودعوها وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على فحل فان فتح الله عليكم فانصرف أنت وخالد الى حمص ودع شرحبيل وعمراً وأخلهما بالاردن وفلسطين وأمير كل بلد وجند على الناس حتى يخرجوا من امارته

فسرح أبو عبيدة عشرة قواد أبا الاعور السلمي وعبد عمرو بن يزيد بن عامر الجرشي. وعامر بن حثمة. وعمرو بن كليب من يحصب. وعمارة بن الصعق بن كعب وصيفي بن علبة بن شامل. وعمرو بن الحبيب بن عمرو. وابدة (أو وليدة) بن عامر بن خثعمة وبشر بن عصمة. وعمارة بن مخش (أو مخشي) قائد الناس ومع كل رجل خمسة قواد وكانت الرؤساء تكون من الصحابة حتى لا يجدوا من يحتمل ذلك منهم فساروا من الصفر حتى نزلوا قريباً من فحل فلما رأت الروم ان الجنود تريدهم بثقوا المياه حول فحل فاردغت الارض ثم وحلت واغتم المسلمون من ذلك وحبس من فيها عن المسلمين وكان أول محصور بالشام أهل فحل ثم أهل دمشق

وبعث أبو عبيدة ذا الكلاع حتى كان بين دمشق وحمص ردءاً. وبعث علقمة بن حكيم ومسروقاً فكانا بين دمشق وفلسطين والامير يومئذ يزيد بن أبي سفيان[1] فقدم خالد بن الوليد وعلى مجنبتيه عمرو وأبو عبيدة وعلى الخيل عياض ابن غنم وعلى الرجل شرحبيل بن حسنة فقدموا على دمشق وعلى الروم نسطاس ابن نسطوس (وفي رواية باهان) فحصروا أهل دمشق ونزلوا حواليها. فكان

---

(١) أي انه امير على حرب دمشق

أبو عبيدة على ناحية وعمرو على ناحية وخالد على ناحية ويزيد على ناحية وهرقل (هرقليوس) يومئذ بحمص محاصر وأهل دمشق نحواً من سبعين ليلة حصاراً شديداً بالزحف والترامي والمجانيق والروم متحصنون بالمدينة يرجون الغياث وذوالكلاع بينهم وبين حمص يمنع عنهم المدد وجاءت خيول هرقل مغيثة لأهل دمشق فاشجتها الخيول التي مع ذى الكلاع وشغلتها عن نصرة الدمشقيين فلما أيقن أهل دمشق أن الأمداد لا تصل اليهم فشلوا ووهنوا وقد كانوا يظنون انها كالغارات قبل ذلك اذا هجم البرد قفل المسلمون فسقط النجم والقوم مقيمون فعند ذلك انقطع رجاؤهم وندموا على دخول دمشق وفي غضون ذلك ولد للبطريق الذي على أهل دمشق مولود فأعد للقوم ولمية فأكلوا وشربوا وغفلوا عن مواقفهم ولا يشعر بذلك أحد من المسلمين الا ما كان من خالد فانه كان لا ينام ولا ينيم ولا يخفى عليه من أمورهم شيء عيونه ذاكية وهو معني بما يليه قد اتخذ حبالاً كهيئة السلاليم وأوهاقاً فلما أمسى من ذلك اليوم نهد ومن معه من جنده الذين قدم بهم عليهم وتقدمهم هو والقعقاع بن عمرو ومذعور بن عدي وأمثاله من أصحابه وقالوا اذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا الينا وانهدوا للباب فلما انتهى الى الباب الذي يليه هو وأصحابه المتقدمون رموا بالحبال الشرف وعلى ظهورهم القرب التي قطعوا بها الخندق فلما ثبت لهم وهقان تسلق القعقاع ومذعور وأثبتا الأوهاق بالشرف وتسلق خالد وأصحابه وكان المكان الذى اقتحموا منه أحصن مكان يحيط بدمشق وأشده مدخلا ولما استووا على السور حدر خالد عامة أصحابه وانحدر معهم وخلف من يحمي ذلك المكان لمن يرتقي وأمرهم بالتكبير فكبر الذين على رأس السور ونهد[1] المسلمون الى الباب ومال الى الحبال

(١) في القاموس نهد الرجل نهض ولعدوه صمد لهم

بشر كثير ووثبوا فيها وانتهى خالد الى أول من يليه فأنامهم وانحدر الى الباب فقتل البوابين وثار اهل المدينة وفزع الناس ولا يدرون ما الشأن وتشاغل أهل كل ناحية بمن يليهم وقطع خالد بن الوليد ومن معه أغلاق الباب بالسيوف وفتحوا للمسلمين فأقبلوا عليهم من داخل حتى ما بقي مما يلي باب خالد مقاتل الا أنيم ولما شد خالد على من يليه وبلغ منهم الذي أراد عنوة اجتمع من أفلت الى أهل الابواب التي تلي غيره وقد كان المسلمون دعوهم الى المشاطرة فأبوا وابعدوا وجاءوا الآن يبذلون لهم الصلح فاجابوهم وقبلوا منهم وفتحوا لهم الابواب وقالوا ادخلوا وامنعونا من أهل ذلك الباب فدخل أهل كل باب بصلح مما يليهم ودخل خالد مما يليه عنوة فالتقى خالد والقواد في وسطها هذا استعراضا وانتهابا وهذا صلحاً وتسكيناً فاجروا ناحية خالد مجرى الصلح فصار صلحاً وكان صلح دمشق على المقاسمة الدينار والعقار ودينار عن كل رأس فاقتسموا الاسلاب وكان أصحاب خالد فيها كاصحاب سائر القواد وجرى على الديار ومن بقي في الصلح جريب حنطة من كل جريب أرض ووقف ما كان للملوك ومن صوب معهم فيئاً[1] وقسموا للذي الكلاع ومن معه ولأبي الأعور ومن معه ولبشير ومن معه (وهم القواد الذين أرسلهم أبو عبيدة ليحولوا بين دمشق والامداد) وبعثوا بالبشارة الى عمر وقدم على أبي عبيدة كتاب عمر أن اصرف جند العراق الى العراق فسرّحهم وهم عشرة آلاف وعليهم هاشم بن عتبة ومعه القعقاع بن عمرو

---

(١) الفيء هو ما نيل من المحاربين بعد وضع الحرب أوزارها وصيرورة داره دار إسلام وهو الجزية وعشر التجارة وما يصالح عليه من المال وحكمه أن يكون لسائر المسلمين فيه نصيب وقد فصلنا الكلام على هذا تفصيلا في كتابنا (تنبيه الأفهام الى مطالب الحياة الاجتماعية والاسلام) وبينا ثمة أن ما ترمي اليه مقاصد الاشتراكيين في هذا العصر سبقهم اليه الاسلام لكن على وجه معقول لا يصادم أحكام العقل والحس

وذكر البلاذري في سبب فتح دمشق غير ما تقدم من رواية الطبري وقال ان فتحها كان بمالئة الاسقف الذي كان أعطاه خالد عهداً وأماناً على دمشق حين مروره عليها في أول مجيئه الشام وذلك بان أرسل اليه الاسقف بعض أصحابه وأعلمه بان القوم في عيدلهم وان الباب الشرقي ردم وليس عليه أحد من الحرس (وقد مرت حكاية هذا الاسقف وصورة الكتاب في سيرة خالد بن الوليد) وان خالداً لما دخل المدينة كان أبو عبيدة دخلها من باب آخر عنوة فالتقيا في دخولهما بالمقسلاط وهو موضع النحاسين بدمشق وهو البريص الذي ذكره حسان ابن ثابت في شعره حين يقول

يسقون من وَرَدَ البَرِيْصَ عليهم   بَرَدَى يصفق بالرحيق السلسل

ولا يخفى ما في هذه الرواية من الوهن لان الصحيح الثابت في الاخبار أن أبا عبيدة لم يدخل دمشق عنوة بل دخلها صلحاً

وقد اتفق كثير من الرواة والمؤرخين على أن الذي تولى عقد الصلح مع الدمشقيين هو خالد بن الوليد وأمضاه له أبو عبيدة بعد أن أطلعه على كتاب عمر (رضى) بعزله عن امارته وممن ذكر هذا الطبري في روايته عن ابن اسحق والبلاذري في تاريخه فتوح البلدان وفي هذا ما يدل على أن خبر عزل خالد لم يأت وهم على اليرموك بل انما أتى وهم على دمشق أو مرج الصفر وكتمه عنه أبو عبيدة ريثما تم الفتح وفي حكاية قيام المسلمين من اليرموك وتربصهم في الصفر في انتظار كتاب عمر بالذي ينبغي أن يبدؤا به مما يستنتج منه ترجيح ورود الكتاب بعزل خالد وهم على الصفر والله أعلم

واما صلح أهل دمشق فقد كان كما مر في رواية الطبري على دينار على كل رأس وجريب من الحنطة على كل جريب من الارض وعلى المقاسمة على العقار والديار

على أن هنالك ما يوهن رواية من روى أمر المقاسمة فقد جاء فى كتاب كتبه عمر بن الخطاب الى أبى عبيدة بن الجراح مانصه (وأما الحنطة والشعير التى وجدتموها فى دمشق وكثرت مشاجرتكم عليها فهى للمسلمين واما الذهب والفضة ففيهما الخمس) وهذا يدل على ان المسلمين اختلفوا فى هل يشاطروا الدمشقيين على نصف ماوجدوه عندهم من الدينار والدرهم فكتب ابو عبيدة يستشيره فى الامر فأمره أخذ خمس الفضة والذهب فقط وسيرد معنا هذا الكتاب بجملته فى باب كتبه ان شاء الله

وقال البلاذرى فى فتوح البلدان مانصه «زعم الهيثم بن عدى ان أهل دمشق صولحوا على انصاف منازلهم وكنائسهم وقال محمد بن سعد قال أبو عبد الله الواقدى قرأت كتاب خالد بن الوليد لاهل دمشق فلم أر فيه انصاف المنازل والكنائس وقد روي ذلك ولا ادرى من أين جاء به من رواه ولكن دمشق لما فتحت لحق بشر كثير من اهلها بهرقل وهو بانطاكية فكثرت فضول منازلها فنزلها المسلمون انتهى مانقله البلاذري من قول الواقدى ويؤيده كتاب خالد بن الوليد الذى اعطاه لاهل دمشق وفيه الامان على كنائسهم ودورهم لا يسكن منها شئ وقد مرت صورة الكتاب فى سيرة خالد على انه سواء صحت هذه الرواية أو الرواية الأولى فان المسلمين أجروا نصف كنيسة ماريوحنا مجرى الصلح والنصف الآخر مجرى السيف وهو النصف الشرقى الذى يلى الباب الذى دخل منه خالد بن الوليد وجعلوه مسجداً لهم ومازال كذلك حتى أيام الوليد بن عبد الملك فاشترى النصف الآخر منهم وجعله كله جامعا لم يزل يعرف لهذا العهد بجامع بنى أمية وسيأتى الكلام عليه فى سيرة الوليد ان شاء الله

وأما باقى كنائس دمشق فالمعروف انه كان منها بيدهم بعهد من المسلمين

الى خلافة عمر بن عبد العزيز خمس عشرة كنيسة وروى البلاذري ان بعضهم أقطع كنيسة منها لبنى نصر فردها عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه الى النصارى هذا وأما الجزية فانها كانت فى بادئ الامر ديناراً على كل رأس كما علمت مما تقدم ثم عدلها عمر بن الخطاب (رض) فجعلها على ثلاث طبقات على الغنى بنسبة غناه والمتوسط بنسبة توسطه والفقير بنسبة فقره

الى هنا انتهى ما أحببنا ايراده من الخبر عن فتح دمشق التى كانت أم المدن السورية ومهد الصناعة الشرقية وزهرة البلاد وازدادت بعد الفتح الاسلامي لا سيما فى عهد الامويين مجداً على مجدها وعمراناً على عمرانها وأما ولايتها بعد الفتح فقد صارت الى يزيد بن أبى سفيان ثم الى أخيه معاوية ثم قدر لها ان تكون بعد ذلك عاصمة ذلك الملك الاسلامى العظيم الممتد من حدود الهند فى الشرق الى شطوط الاطلانتيك فى الغرب على عهد الامويين لا عاصمة سورية وحدها وسيأتى الكلام على هذا فى محله ان شاء الله

وقد اختلف المؤرخون فى الزمن الذى افتتحت به دمشق فروى بعضهم انها فتحت فى اواخر سنة ١٣ للهجرة وبعضهم قال فى أوائل المحرم افتتاح سنة ١٤ وبعضهم قال انها فتحت فى رجب من هذه السنة والله الاصح

﴿ بطلان خبر ﴾

سألنى بعضهم عن حكاية رآها فى تاريخ انكليزى وهى ان خالد بن الوليد لما فتح دمشق صالح اهلها على أن من يريد منهم الجلاء يمهل بعد سفره ثلاثة أيام ثم مضت وادركه المسلمون فدمه يدورون هل دمشق حلوا وتبعهم المسلمون بعد ثلاثة أيام فقتلوهم ولا يخفى ما فى هذه الحكاية من العار على المسلمين يومئذ فيما لو صح عنهم مثل هذا الخبر مع انهم كانوا فى الامم العامة الهدى وامدهم عن

مثل هذا الظلم الذي يأباه دينهم وتنزه عنه شيمهم العربية وأخلاقهم الفطرية فبحثت عن هذا الخبر فما دونه رواة الأخبار من المتقدمين كالطبري والبلاذري وابن واضح المعروف باليعقوبي وفي تواريخ المتأخرين كتاريخ ابن الاثير الذي هو أوثق التواريخ فلم أجد لهذا الخبر من أثر وإنما رأيته في بعض تواريخ معاصرينا من المسيحيين كتاريخ سورية لجرجي أفندي ينى وتاريخ الوافي لامين أفندي شميل وكلا التاريخين وان كان مؤلفاهما عربيين الا أن عبارتهما تدل على أن مافي التاريخين مترجم عن لغة أعجمية لم تذق طعم العربية البتة وان المؤرخين كانا أبعد الناس عن تحقيق أمثال تلك الحوادث من كتب التاريخ العربية الوثيقة التى لم تغادر كبيرة ولا صغيرة الاأتت على ذكرها تفصيلا في البعض واجمالا في البعض الآخر ولم تغفل حادثة من أدنى حوادث الفتح فكيف تغفل مثل هذه الحادثة ولعل بعض مؤرخي الاوربيين الولعين بالبحث عن مساوي المسلمين وستر محاسنهم التقطوا ذلك الخبر من كتب المغازي والقصاصين كفتوح الشام وامثاله من الكتب التى هي أبعد عن الثقة وأقرب للخلط والخبط منها الى التاريخ أو عن كتب مؤرخي الروم وهي لاتخلو عن لغو القول والمبالغة في ذم الفاتح بالطبع

على أنه مما يوهن أساس هذه الفرية ويدل على بطلان هذا الخبر ماقاله بعض مؤرخيهم من أن المسلمين ادركوا أولئك الناس وراء اللادقية وفتكوا بهم بعد انقضاء الاجل (وكان بزعمهم ثلاثة ايام) ومن البديهي أن البلاد يومئذ كانت كلها دار حرب وكانت الجنود الرومانية والسورية كلها مرابطة في البلاد واقفة على قدم الأهبة لصد المسلمين الذين لم تتمكن سلطتهم بعد تجاوزت دمشق وحوران والناس واقفون لهم على قدم الاهبة في كل مكان لما يتوقعونه من انكفائهم على البلاد بعد فراغهم من دمشق فكيف يتيسر لسرية منهم ان تقتحم

البلاد الى ماوراء اللاذقية وهذا حال أهلها من اليقظة والاستعداد ومالتحامل لجند المسلمين على تتبع أثر قوم لهم عليهم عهود وميثاق فاذا قيل الطمع فيقال ان امامهم البلاد لم تزل فسيحة الارجاء كثيرة الغنائم والخيرات وليس فيهم من يشك بمصير البلاد وأهلها وكنوزها اليهم في أقرب آن وان قيل غير ذلك من نحو التعصب أو الظلم أو غيره فيقال ان التاريخ يبرئ تلك العصابة المؤمنة بكتاب الله الآمر بالعدل الناهي عن الظلم عن أمثال تلك المساوي الشائنة وقد مرّ معنا فى هذا التاريخ مايدل على ترفع أولئك القوم الفاتحين عن الخسائس التي قضى عليها نظام دينهم الجديد وشرعهم المستقيم وعدا هذا كله فان الفاتحين مهما بلغ بهم فساد الاخلاق والظلم فالسياسة تقضي عليهم بالمجاملة والرفق مع القوم المغلوبين ريثما يتم لهم الفتح والعرب يومئذ فقد كان فيهم من القواد المحنكين مثل أبي عبيدة وعمرو بن العاص وخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان فكيف يمكن جندهم من إتيان مثل ذلك المنكر والبلاد على وشك الفتح وينبغي للمسلمين ان يتألفوا قلوب أهلها بحسن المعاملة وجميل المعاشرة مع أن العرب لم يكونوا فى جاهليتهم مع شهرتهم بسفك الدماء ومثابرتهم على الغزو يعرضون للنساء والاطفال بالقتل فكيف بهم فى الاسلام وقد حرم عليهم سفك الدماء ظلما أن يعرضوا الأولئك المساكين بالقتل وربما كان معظمهم من النساء والاطفال ان هذا لمما تأباه نفوسهم العربية وتمنعهم منه المروءة والدين اذن فذلك الخبر باطل من كل الوجوه واذا ورد فى كتب مؤرخي الروم فمصدره الغرض واذا ورد فى كتب القصاصين فمصدره الجهل ولا يشك فى هذا عاقل البتة

بحث

(في هل كانت دمشق قاعدة الغساسنة)

سبق لنا في التمهيد الذي قدمناه في الجزء الاول عند الكلام على فتوح الشام ان قلنا على سبيل الاستنتاج إن معظم ولاية الشام كانت على عهد الفتح في أيدي العرب وانه كانت عليهم حماية البلاد واليهم ينتهي نفوذ الكلمة والسلطان الى أن قلنا (والظاهر ان دمشق نفسها كانت عربية يومئذ بدليل انها كانت تحت الحرث الغساني أحد ملوك بني غسان على عهد الفتح الاسلامي فهي اذن عاصمة ذلك الملك العظيم الممتد منها الى الشمال والشرق حتى البادية ومن الجنوب والجنوب العربي حتى الحجاز والعقبة وكله كان مأهولا بالعرب)

وقد التمسنا في ذلك الجزء من أهل الفضل والعلم أن يتكرموا علينا ببيان مواضع الخطأ فيما ننقله أو نرتئيه في كل جزء لنبادر الى اصلاحه في الجزء الذي يليه فكان ممن أجاب ملتمسنا الفاضل المدقق جورجي افندي زيدان في مجلته (الهلال) الغراء فأخذ علينا ذلك القول بعبارة تدل على كمال أدب وفضل وتنبئ عن سعة في الاطلاع وميل عرفناه به للتحقيق ومؤدى انتقاده علينا بهذا الصدد ان العرب لم يكونوا يومئذ الا في البادية وحوران وان دمشق لم تكن تحت بني غسان بل كانت حاضرة ولاية يحكمها ولاة من قبل القياصرة وان حاضرة بني غسان كانت بصرى في حوران وانه لم يقرأ ان أحداً من ملوك غسان أقام في دمشق أو تولى حكومتها الا اذا كنا اطلعنا على نص لم يطلع هو عليه وأن عرب الشام لم يكونوا إلا آلة بيد الروم يسوقونهم لقتال عرب العراق والفرس عند الحاجة وليسوا في المكانة التي وصفناهم بها ثمة ونحن مع شكرنا لاحضرة صديقنا الفاضل كتابنا محل النظر والانتقاد وإقرارنا بالعجز عن بلوغ

تناول المحققون في التاريخ نخبة عاملي
بنينا ذلك الاستنتاج غمه على ما رواه الطبري من أن خالد بن الوليد لما جاء
من العراق لنجدة المسلمين بالشام فتح كل ما مر عليه من البلاد في مروره على
القلمون الاسفل وكان آخر فتحه مما يلي دمشق (قصم) وقاتل فيها بني مشجعة
ثم انحدر إلى المرج من ثنية العقاب فقاتل فيه بني غسان والذي أوهمنا أن الطريق
الذي مر عليه خالد منذ دخل البادية الشامية الى أن بلغ دمشق كان مأهولا بالعرب
جعلُ الطبري آخر الفتح مما يلي دمشق وقبل وصوله الى ثنية العقاب (قُصَم) وانه
قاتل فيها بني مشجعة من قضاعة على انا بعد ان كتبنا ذلك الفصل راجعنا ما كتبه
ياقوت في معجمه عن (قصم) فاذا هو يقول انها موضع بالبادية قرب الشام وقد يلما
ذلك الاستنتاج بما يفيد ضعفه اذا صح قول ياقوت تفاديا من ارتكاب الخطأ في وضع
الظن موضع اليقين كما رأيت في الجزء الماضي الا أن هذا اذا نفى قولنا أن القلمون
الاسفل كان مأهولا بالعرب لا ينفي قولنا أن ما يليه شرقا الى شطوط الفرات
كان من أماكن العرب بدليل ان ذلك القسم لم يزل من منازل العرب الرحل الى
الآن والبلاد التي فيه كضُمير والقريتين وتدمر والسُخْنة كل سكانها من العرب
بل وهناك بعض القرائن التاريخية التي تدل على أن ذلك القسم الذي كان مملكة
مستقلة عاصمتها تدمر الشهيرة كان محكوما بالعرب ومن تلك القرائن انفراد
مدينة تدمر في طرف البرية في وسط منازل العرب

ومنها أن أحد أشراف هذه المدينة المسمى أودينا توس الذي قام وهاجم
سابور ملك الفرس وافتك منه بلاد ما بين النهرين (الجزيرة) التي كان أخذها من
الرومان ثم أسس لنفسه ملكا وبسط سلطته على الجزيرة وسورية في أواسط
القرن الثالث قبل المسيح قد اختلف المؤرخون في أصله هل هو عربي أم سرياني

فاذا رجحنا كونه عربياً بقرينة موقع رطه الجغرافي وهو تدمر ثبت بمان هذه المدينة وما حولها من البلاد كانت عربية ولم تزل كذلك

وكذلك لا ينفي قولنا ان القسم الواقع شرقي دمشق وهو مرج راهط كان مأهولا ببني غسان لان النص صريح على ان خالداً واقعهم فيه يوم عيدهم . وكذلك لا ينفي قولنا ان القسم الذي يلي دمشق من جهة الجنوب الى حوران حتى العقبة والحجاز كان مأهولا بالعرب فانه معلوم بالبداهة وكان اشهر مدنه بصرى والشمسكين واطلعنا فى تاريخ الطبري وفى فتوح البلدان على نص يفيد ان شمالى سورية أيضاً كانت بعض مدنه مأهولة بالعرب فقد جاء فيهما ان أباعبيدة لما افتتح قنسرين صالحه أهل حاضر قنسرين وكانوا من تنوخ ومصّروا هـذا الحاضر لما تخوافدعاهم إلى الاسلام فأسلم بعضهم واقام على نصرانيته بنو سليح من قضاعة ثم اسلموا فى خلافة المهدي العباسى وكذلك حاضر حلب وهو غير حاضر قنسرين كان من مدن العرب ولا نبعد أيضاً ان يكون العرب هم الذين مصّروا غزة فى الجنوب الغربي من سورية فسميت غزة هاشم نسبة الى هاشم الثريد كما يقولون

وحق لقوم يشغلون بالسكنى قسماً عظيما من سورية ويتوطنون في أحشاء البلاد مع ما اشتهر عن العرب من حب الاستقلال والحرية أن يكون لهم من النفوذ والسلطان فى البلاد أكثر مما لغيرهم من العناصر الأخرى التى كانت تقطن هذه الولاية العظيمة كالسريان والأرمن والروم واليهود وبقية الأخلاط الذين هم ليسوا الامن الجالية حاشا العرب والسريان والبلاد وان كانت يومئذ تابعة لدولة الروم الا انه لا يعقل أن يكون الجنس الروماني أكثر الاجناس القاطنين فى سورية ولا أقواها أيضاً وإن كانت بيده حكومة البلاد

اذا تقرر هـذا فلا بدع أن يكون على الملوك من بنى غسان حراسة البلاد

وأن يكون لهم فيها قوة وأمر وسلطان لاسيما وأنهم رجال حرب كما أنهم أهل ثروة وغنى لأن البلاد التي هم فيها كحوران والكرك ومعان وتدمر كلها بلاد زرع وضرع وهي من أخصب البلاد السورية ولم تزل كذلك الى هذا العهد واذا أضفنا الى هذا وهن السلطة الرومانية يومئذ وضعف سلطانها في البلاد لا نكون مبالغين فيما قلنا عن استقلال شأن العرب في سورية وان كان ذلك من قبيل الاستنتاج

وأما قولنا إن دمشق كانت قبيل الفتح الاسلامي تحت الحارث[1] الغساني فانا وإن لم نقف في شأنه على نص صريح سوى قول الدكتور فانديك سيأتي بيانه إلاّ أن هناك من الاخبار التاريخية ما يستنتج منه أن عاصمة بني غسان قبيل الفتح كانت دمشق الشام ومن تلك الاخبار ما ذكره الطبري في تاريخه عن مجيء خالد ابن الوليد من العراق الى الشام حيث قال ما نصه

ثم نزل (يعني خالداً) الكثب حتى صار الى دمشق ثم مرج راهط فلقي عليه غسان وعليهم الحارث بن الايهم (يريد به جبلة) الخ الخبر

وجاء في السير ان النبي صلى الله عليه وسلم أرسل شجاع بن وهب بكتاب الى الحارث بن أبي شمر الغساني يدعوه الى الاسلام فأتاه وهو بغوطة دمشق يهيئ النزل لقيصر وقد كان قاصداً إيلياء فشغل عنه الحارث ثم دعاه يوماً وقرأ الكتاب الذي معه وغضب وقال من ينتزع مني ملكي الخ

ولما وفد حسان بن ثابت الانصاري قبل اسلامه على آل جفنة وهم ملوك

---

(١) اسم الحارث يطلق على كل ملك من ملوك غسان كما يطلق اسم قيصر على ملوك الروم وكسرى على ملوك الفرس وملك غسان الذي كان على عهد الفتح هو جبلة بن الايهم

غسان امتدحهم بأبيات قال فيها

لله در عصابة نادمتهم يوماً بجلق في الزمان الأول

ومنها

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل
يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل

والبريص الذي جاء في الابيات هو قصر لآل جفنة على نهر بردى الذي هو نهر دمشق وحلق من أسماء دمشق وقد تقدم معنا في خبر فتح دمشق ماقاله البلاذري في تاريخه من أن خالداً وأبا عبيدة التقيا في دخولهما الى دمشق بالمسلاط وانه هو البريص

ولا يخفى على الناقد أن التصاق ملوك غسان بدمشق كما يرى من هذه الروايات يحمل المؤرخ المحقق على الحكم بانهم كانوا قبيل الفتح أصحاب السيادة على دمشق والذي يترجح عندنا أن الفرس لما دخلوا الولايات الرومانية سنة (٦١٤م) أقروا ملوك غسان على ما كان لهم وأقاموهم ملوكاً على الشام ولما استعاد هرقل من الفرس البلاد لم يشأ أن ينزع من ملوك غسان الولاية لضعفه في حرب الفرس وخوفه من شغب القوم فاستمرت بيدهم ولاية دمشق لحين الفتح الاسلامي بل هناك دليل آخر على أن سلطة بني غسان يومئذ تجاوزت ولاية دمشق وربما شملت سورية كلها فقد ذكر المؤرخون أن جبلة بن الايهم بن جبلة وهو آخر ملوك غسان ابتنى بين اللاذقية وطرابلس مدينة سماها باسمه وهي جبلة التي لم تزل عامرة الى هذا العهد فاذا كان ملوك جفنة من بني غسان قبيل الفتح انما كانوا أمراء على عرب البادية وحوران وآلة بيدي قيصر الروم يصد بهم غارات عرب العراق (كما قال صديقنا جرجي أفندي زيدان) فما علاقة جبلة

بسواحل الشام وما الداعي له لتمصير الامصار في أرض ليس له ولا لقومه سلطة فيها ولا سلطان

لا جرم أن سلطة العرب كانت يومئذ مبسوطة على الشام وكانت عاصمة ملوكهم دمشق ولولا ذلك لما تسنى لجبلة أن يبتني تلك المدينة ويسميها باسمه ويؤيد ذلك ماقاله الدكتور فانديك فى المرآة الوضية عند كلامه على دمشق وهو بنصه

وكانت (يعني دمشق) قبل الاسلام تحت آل جفنة ملوك غسان الذين يقول فيهم حسان بن ثابت وذكر البيتين الثاني والثالث من الابيات التي سبق ايرادها

وليت شعري لماذا استعظم صديقنا على العرب أن يكونوا ملوك الشام قبيل الفتح الاسلامي وهو يعلم أنهم أبناء بجدتها والسابقون الى حومتها وانهم تسلطوا على هذه البلاد مراراً قبل الميلاد وبعده كما ذكر ذلك صديقنا فى مجلته من عهد قريب نقلا عن يوسيفوس المؤرخ القديم ولا مراء فى أن الحارث أحد ملوك العرب على عهد طيباريوس قيصر المتوفي سنة ٣٧ للميلاد استولى على دمشق بعد حرب شديدة وقعت بينه وبين صهره هيرودس على أثر طلاق هيرودس لبنت الحارث ومما يؤيد سلطة الحارث على دمشق يومئذ قول بولس في رسالته الثانية الى الكورنثيين وهو بنصه

(وفى دمشق والى الحارث الملك كان يحرس مدينة الدمشقيين يريد ان يمسكني) وقد سبق ان قلنا ان اسم الحارث كان يطلق على ملوك العرب بالشام وعدا هذا فاننا اذا رجحنا قول القائلين بان أصل وديناتوس التدمري الذي سبق ذكره عربي لا سرياني (والجنسين من أصل واحد) فلا يستبعد ان يكون للعرب من السلطة فى الشام قبيل الفتح الاسلامي ما كان لهم على عهد طيباريوس قيصر

وعلى عهد اودينا توس الذى تملك الجزيرة والشام ثم امتد ملك زوجته الملكة زنوبيا الشهيرة الى مصر وأرعبت سطوتها ملوك ذلك العصر

هذا ما انتهى اليه علمنا في تحقيق هل كانت دمشق عربية أم لا هذا على غموض تاريخ هذه الامة العربية وما دام العلماء مجدون في البحث عن آثار الأمم القديمة فستكشف الايام من تاريخ عرب الشام ما كشفته من عهد قريب من تاريخ عرب اليمن (حمير) مما يدل على بلوغ هذه الامة منتهى درجات المدنية في العصور الغابرة والله أعلم

﴿ وقعة فحل ﴾

رأي المسلمون بعد فتح دمشق أن يناجزوا هرقل الا أنهم خافوا ممن وراءهم من جيوش الروم في بيسان وكانوا ثمانين الفاً على قول بعض الرواة كما ذكر ذلك الطبرى فاختاروا مناجزة هؤلاء أولاً فاستخلف أبو عبيدة على دمشق يزيد بن أبي سفيان وسار بجيش المسلمين قاصداً بيسان وعلى الناس شرحبيل بن حسنة اذ كانت اليه ولاية الحرب في الأردن فبعث خالد بن الوليد على المقدمة وأبا عبيدة وعمراً على مجنبتيه وعلى الخيل ضرار بن الازور وعلى الرجل عياضاً ولما انتهوا الى أبي الاعور (وقد كان بين الاردن وبين دمشق يمنع المدد عن أهل دمشق) قدموه الى طبرية فحاصرها وهم نزلوا بفحل وكان الروم شقوا المياه بينهم وبين فحل منعاً للمسلمين عن الوصول اليهم فكان عملهم هذا وبالاً عليهم لانهم أصبحوا بعد خروجهم للحرب كالمحصورين وكان به هلاكهم كما كان ذلك يوم اليرموك اذ تركوا النهر وراءهم وعسكروا على الضفة التي تلي جند المسلمين فاصبحوا بين خطرين حتى اذا تمت عليهم الهزيمة لم يروا طريقاً للفرار فأخذتهم سيوف المسلمين وهذا يدل على ضعف معارف قوادهم يومئذ بفنون الحرب وتمكن

الهلع والاضطراب من نفوسهم تمكنا أشاع بينهم الخلل وأفقدهم حسن التدبير

لما رأى المسلمون تلك المياه والوحل نزلوا بفحل وحال بينهم التقدم الى حيث

تقيم العدو بيسان فكتبوا الى أمير المؤمنين بذلك وأقاموا ينتظرون الجواب وهم

في رغد من ريف الاردن والروم في ضنك وقد ظنوا في المسلمين الغفلة فهم

تخرجوا عليهم بقيادة قائد اسمه سقلار أو صقلار ورجوا أن يأخذوهم على غرة

والمسلمون حذرون وكان قائدهم شرحبيل لشدة يقظته وحزمه لا يبيت ولا يصبح

الا على تعبية واستعداد للحرب فلما هجموا على المسلمين لم يناظروهم فاقتتلوا أشد

قتال كان ليلتهم ويومهم الى الليل فاظلم الليل عليهم وقد حاروا فانهزموا وهم حيارى

وقد أصيب قائدهم سقلار والذي يليه (أي القائد الثاني) واسمه نسطوس وركبوهم

فلم يعرف الروم مأخذهم فانتهوا في الهزيمة الى الوحل فأدركتهم أوائل خيل

المسلمين فأخذوهم وما يمنعون يد لامس

كان المسلمون يسمون هذه الوقعة ذات الرداغ لما لاقوا فيها من الوحل

الذى كانوا له كارهين فكان عونا لهم على العدو ولما انتهت الحرب بفحل انصرف

أبو عبيدة ومعه خالد بن الوليد الى حمص ومضى بذى الكلاع الحميرى الذى كان

مرابطا بين جنود المسلمين وحمص ليمنع المدد عن العدو

أوهن المسلمون بفحل قوى العدو وأوقعوا الرعب فى قلوب الروم

فتأهب كل أمير لقصد الجهة التى ولي حربها فسار أبو عبيدة الى حمص وسار

شرحبيل الى بيسان وطبرية وتجهز يزيد بن أبي سفيان للخروج الى سواحل الشام

﴿ بيسان وطبرية ﴾

سار شرحبيل الى بيسان ومعه عمرو بن العاص والحارث بن هشام وسهيل

ابن عمرو وكلهم من أمجاد قريش وساداتها فلما بلغ أهل بيسان ما أصاب جند الروم

بفحل تحصنوا من المسلمين بكل مكان فحصرهم المسلمون أياما ثم خرج بعضهم لقتال المسلمين فأناموهم وصالحهم من بقى على صلح دمشق وبلغ أهل طبرية الخبر فصالحوا أبا الاعور على ان يبلغهم شرحبيل ففعل فصالحوا شرحبيل على صلح دمشق أيضاً ونزل القواد بجندهم فى مدائن الاردن وقراها وكان ذلك سنة أربع عشرة للهجرة

﴿ مرج الروم ﴾

لما علم هرقل بما أصاب جنده فى دمشق والاردن وبلغه مسير أبى عبيدة الى حمص رأى أن يرسل جيشا الى دمشق إما ليشغل عن حمص جيش المسلمين وإما ليغنم فرصة تفرق الجيوش الاسلامية عن دمشق فتسترد ها جنوده من يزيد بن أبى سفيان فارسل ذلك الجيش بقيادة توذر (لعله تيودور) فنزلا الجيش فى مرج الروم غربى دمشق وبلغ ذلك أبا عبيدة فجاء ونزل بازاء شنس وخالد بازاء توذر فبارلهم لما نزلوا شنس وسار توذر يطلب دمشق فسار خالد وراءه فى جريدة وبلغ يزيد بن أبى سفيان إقبال تودر عليه فاستقبله بالجند فاقتتلوا ولحقهم خالد وهم يقتتلون فأخذهم من خلفهم ولم يفلت منهم الا الشريد وقتل خالد توذراً وقال

نحن قتلنا توذراً وشوذرا   وقبله ما قد قتلنا حيدرا

نحن أزرنا الغيضة الأكيدرا

وأما أبو عبيدة فقد ناهد بعد خروج خالد شنس فاقتتلوا بمرج الروم وأصابهم ما أصاب توذر وقتل أبو عبيدة شنس وانهزم فلهم الى حمص وتبعهم بعض المسلمين فلما انتهى الخبر الى هرقل أمر عامل حمص بالمسير اليها وسار هو الى الرُّها (اورفا) وفي رواية الى انطاكية وقال للعامل بلغني أن طعامهم (يعنى المسلمين) لحوم الإبل وشرابهم ألبانها وهذا الشتاء قد أقبل فلا تقاتلوهم الا في كل يوم

باردة فانه لا يبقى الى الصيف منهم أحد

واذا صح صدور هذا الكلام عن هرقل فانه من الغرابة بمكان لان رجلا مثله مجم عود القوم وجرب حربهم وعرف ثباتهم منذ سنتين لكبير عليه أن يعلق آماله على مجرى الطبيعة ويفوه بمثل هذا الهزر من القول الا اذا أراد به تخفيف الهلع عن قلوب الجنود المدافعة وتهوين الخطب على قواده ريثما يتم عليهم أمر القضاء الذى علمه هرقل من خلال الحوادث الماضية وانما يدافع ذلك القضاء بآخر ما عنده من وسائل القوة والتحريض كى لا تهن نفوس الجنود ولا يستولى اليأس على ضمائر الشعب

﴿ ذكر بعلبك وحمص ﴾

(وسواحل دمشق)

علمنا مما سبق أن يزيد بن أبى سفيان كان يتجهز بعد فتح دمشق للمسير الى سواحل دمشق وأن أبا عبيدة قصد حمص ولما جاء تودر الى مرج الروم تربص يزيد وعاد اليه أبو عبيدة ولما انتهى أمر تودر لما انتهى اليه قصد يزيد سواحل دمشق وذلك سنة (١٤) وعلى مقدمته أخوه معاوية بن أبى سفيان فابتدأ بصيدا ففتحها ثم فتح عرقة وجبيل وبيروت وجلا كثيراً من أهلها ممن رغبوا الجلاء وتولى فتح عرقة معاوية بنفسه ثم ان الروم غلبوا على بعض هذه السواحل فى آخر خلافة عمر وأول خلافة عثمان فقصدهم معاوية ففتحها ورمها وشحنها بالمقاتلة وأقطعهم القطائع وانما تجرأ الروم على غزو السواحل لان المسلمين لم يكن لهم يومئذ أسطول يمنع غارة الروم على السواحل اذ لم يكن من رأى أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب (رض) ركوب المسلمين للبحر وغزوهم فيه

وأما أبو عبيدة فقد قصد حمص عن طريق بعلبك وقدم اليها السمط بن

الاسود الكندى وقدم خالداً الى البقاع فافتتح خالد بلاد البقاع ونزل أهل بعلبك الى أبى عبيدة فصالحوه على أن يكون لهم الامان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وكتب لهم بذلك كتاباً استأنى صورته ثم توجه الى حمص فمن قائل إنه وجد السمط قد صالحهم فأجاز صلحه ومن قائل إنه قاتلهم قتالا شديداً وكانوا يغادون المسلمين القتال ويراوحونهم فى كل يوم بارد ولقي المسلمون برداً شديداً وطال على الروم الحصار وكان بعض مشايخهم دعاهم الى مصالحة المسلمين فأبوا ولما اشتد عليهم الامر طلبوا من أبى عبيدة الصلح فصالحهم على صلح دمشق وأنزلها السمط بن الاسود الكندى فى بنى معاية والاشعث بن ميناس في السكون والمقداد فى بَلِيّ وأنزلها غيرهم

وفي فتوح البلدان ان السمط قسم حمص خططاً بين المسلمين وأسكنهم كل مرفوض جلا أهله أو ساحة متروكة

أما أبو عبيدة فقد بعث بالاخماس وخبر الفتح الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مع عبد الله بن مسعود فكتب اليه عمر . ان أقم فى مدينتك وادع أهل القوة والجلد من عرب الشام فاني غير تارك البعث اليك بمن يكانفك ان شاء الله

﴿ تحقيق خبر أجنادين واليرموك ﴾

(واختلاف المؤرخين فيها)

اختلف المؤرخون في وقعة أجنادين واليرموك لامن قائل ان الأولى كانت قبل فتح دمشق والثانية بعد فتح حمص ومن قائل بالعكس ولقد يحار المؤرخ الناقد في التفريق بين هاتين الواقعتين وتعيين الزمن الذي وقعتا فيه ويكاد يشتبه عليه أمرهما فيتخيل له ان الوقعتين واحدة أو ان الواقعتين كانتا في اليرموك واحدة في خلافة أبى بكر والأخرى في خلافة عمر رضي الله عنهما وذلك لما فيهما

من التشابه في الاسباب والحوادث وقد كنت أظن أن هذا الاضطراب في خبر الواقعتين قاصر على كتبنا وأن الغربيين ربما لم يقعوا في هذا الاضطراب لما عساهم نقلوه من أخبار الفتح عن مؤرخي الروم الذين كتبوها عن مشاهدة لا من طريق الرواية فاذا بالقوم وقعوا فيما وقع فيه مؤرخو العرب فقد راجعت ما كتبه بهذا الصدد المؤرخ الانكليزي اذورد جبون[1] في (تاريخ السلطنة الرومانية) والمؤرخ الفرنساوي نويل ديفرجي في كتابه بلاد العرب[2] فلم أعثر على ما يشفي الغليل ويزيح ستار اللبس فان الأول جعل وقعة أجنادين سنة (٦٣٣ م) الموافقة سنة (١٢ هـ) أي قبل فتح دمشق مع أن الأدلة التاريخية تؤيد حصول وقعة اليرموك قبل دمشق لا أجنادين وأما الثاني فقد قال إن ما رآه في تاريخ أبي الفداء في شأن اليرموك يعروه اللبس والأشكال وأن هذا يوجب الارتياب في كلام الشرقيين أكثر من الارتياب في كلام العربيين الى أن قال وهذا المهم من كلامهم يدعو الى الظن انه حدث واقعتان في هذا المحل (أي في اليرموك) الاولى قبل فتح دمشق والثانية بعد الاستيلاء على حمص

ولقد نكاد نجاريه في هذا الظن وأن هناك التباساً في الاسم وأن الاسمين ربما يطلقان على مكان واحد لولم نر أن ياقوت فرق في معجمه بين المكانين فقال ان اليرموك واد في طرف الغور يصب في الاردن وأن أجنادين موضع بالشام من نواحي فلسطين من الرملة من كورة بيت جبرين كما أن الطبري أيضاً قال عن أجنادين انه بلد من أرض فلسطين من عمل بيت جبرين

وبما ان حصول الواقعتين الواحدة قبل فتح دمشق والثانية بعدها أمر

(1) Gibbon's Roman Empire

(2) Arabie par M. Noel Desvergers

محقق عند المؤرخين لا خلاف فيه وان اختلفوا في تعيين زمن كل منهما فجعل بعضهم الأولى بمكان الثانية وهذه بمكان تلك وبالعكس فالذي نريد الوصول اليه الآن هو تحقيق أيهما كانت قبل فتح دمشق وأيهما كانت بعدها فالذي اعتمده البلاذري في فتوح البلدان ان أجنادين هي الأولى واليرموك هي الثانية وجاراه على هذا الرأي ابن واضح الكاتب العباسي الشهير باليعقوبي في تاريخه المعروف بتاريخ اليعقوبي[1] وجعل اليرموك بعد حمص وأما الطبري فانه أورد خبر اليرموك كما أوردناه في الجزء الاول أي قبل دمشق وأورد خبر أجنادين مرة قبل فتح دمشق ومرة بعدها الواحدة من رواية سيف والثانية من رواية ابن اسحق على عادته في نقل الروايات على اختلافها وترك الحكم فيها للمطالع ويكاد هذه الرواية تكون أقرب للحق لولم يتوهم الرواة أن أجنادين الأولى هي التي اجتمع عليها الامراء وامامهم اليها خالد بن الوليد وهذه هي التواريخ التي بين أيدينا من كتب المتقدمين الذين نقلوا الاخبار بالرواية واما المتأخرون فاذ كان اعتمادهم في سرد الوقائع على مادونه أولئك اضطربوا أيضاً في تعيين زمان الواقعتين ومكانهما وليس منهم الا من أورد الخبر على علاته دون تمحيص ولا تحقيق وبما أن بعضهم قال ان أبا عبيدة رجع من حمص الى اليرموك يزعم انها بعد فتح حمص مع أن المرجح أن اليرموك هي الوقعة التي حضرها خالد بن الوليد لما جاء نجدة المسلمين في سنة ١٣ وفتح حمص كان في سنة (١٤) أو التي بعدها فقد حملني ذلك على اعتقاد خطائهم في تأخير تاريخ وقعة اليرموك مع الظن باحتمال وصول أبي عبيدة الى حمص قبل مجيء خالد من العراق فبسطت في الجزء الأول هذا الاحتمال خطأ اذ الحقيقة التي ظهرت لي في هذا بعد التدقيق في التاريخ أن رجوع أبي عبيدة من حمص انما

(١) هذا التاريخ جزءان طبعا في ليدن ويوجد منه نسخة في المكتبة الخديوية

كان بعد فتحها ويومئذ اجتمع على الامراء في أجنادين واجتماعهم هذا هو غير اجتماعهم على اليرموك وانما تضارب الروايات في هذه الوقائع يدعو الى غموض الحقيقة وتشويش الذهن والذي صح عندي من تحقيق هذه الروايات الآن والتدقيق فيها ان هنالك ثلاث وقائع متشابهات اضطرب في ترتيبها المؤرخون لتشابه البواعث والاسم وهي اجنادين الاولى وحدثت في أواخر سنة ١٢ أو أوائل سنة ١٣ واليرموك وكانت في جمادي سنة ١٣ وأجنادين الثانية وكانت سنة (١٤) أو (١٥)

وقد ساق ابن جرير الطبري في تاريخه خبر هذه الوقائع الثلاث الا أنه أورد خبر اليرموك وأجنادين الأولى من عدة روايات كلها يخالف بعضها بعضاً ويدل على اضطرابهم في تحقيق هل كانت اليرموك قبل أجنادين أو بالعكس أو كانتا وقعة واحدة ويؤخذ من مجمل هذه الروايات حصول وقعة في أجنادين لم يحضرها خالد بن الوليد وانما هي اما أن تكون لخالد بن سعيد لما بعثه أبو بكر لاطراف الشام وواقع هناك الروم وعليهم باهان أو ماهان على رواية مؤرخي العرب ووردان على رواية ادوردجبون الانكليزي واما أن تكون مع الامراء في أول دخولهم الشام لما بعثهم أبو بكر في اثر خالد بن سعيد ثم لما واقعوا باهان وأوقعوا به تفرقوا في انحاء الشام وسرب لهم هرقل الجنود فعادوا الى اليرموك واستنجدوا أبا بكر فأنجدهم بخالد بن الوليد فوافاهم وهم على اليرموك ثم لما تمت الهزيمة على الروم في اليرموك وسار الامراء الى دمشق ففتحوها ثم فحل وكان الفتح ثم سار أبو عبيدة الى حمص وفتحها أرسل هرقل جنوداً جديدة الى سورية جتمعت في فلسطين فعاد أبو عبيدة والامراء الى حيث مجتمع جند الروم في أجنادين فكانت وقعة أجنادين الثانية والظاهر ان بعض المؤرخين ومنهم البلاذري واليعقوبي ص و [illegible] وقعة

أجنادين واحدة فاعتبروا الاولى وجعلوا مكان الثانية اليرموك مع أن المرجح أن اليرموك هو المكان الذي اجتمع عليه الامراء ووافاهم فيه خالد بن الوليد من العراق بدليل ما قاله ياقوت فى معجم البلدان وهو بنصه

اليرموك واد بناحية الشام فى طرف الغور يصب فى نهر الاردن ثم يمضي الى البحيرة المنتنة كانت به حرب بين المسلمين والروم فى أيام أبى بكر الصديق رضى الله عنه وقدم خالد الشام مدداً لهم فوجدهم يقاتلون الروم متساندين وساق مجمل الخبر كما ذكرناه فى الجزء الاول ثم قال وقال القعقاع بن عمرو يذكر مسيرة خالد من العراق الى الشام فى أبيات

بدأنا بجمع الصفرين فلم ندع لغسان أنفاً فوق تلك المناخر
صبيحة صاح الحارثان ومن به سوى نفر نجتدهم بالبواتر
وجئنا الى بصرى وبصرى مقيمة فألقت الينا بالحشا والمعاذر
فضضنا بها أبوابها ثم قابلت بنا العيس فى اليرموك جمع العشائر

والشاهد من كلام ياقوت هو هذه الابيات التى تدل دلالة صريحة على أن خالداً لما جاء الى الشام واقع غسان ثم فتح بصرى وانتهى الى جيوش المسلمين وهم فى اليرموك

وأما أجنادين الاولى فان الذي يرجح انها كانت فى أواخر سنة ١٢ أو أوائل سنة (١٣) هو مارواه بعض المؤرخين من ان أبا بكر بُشِّر بانتصار المسلمين على الروم فى أجنادين وهو بآخر رمق مع أن انتصار المسلمين فى اليرموك كان فى جمادى الثانى بعد وفاة أبى بكر وانما جاء المسلمين وفاته وهم على اليرموك

وهذا ما وصل اليه الفكر وانتهى اليه البحث في تحقيق وقعة اليرموك وأجنادين التى قبلها وأما أجنادين الثالثة وهى التى كانت عقب فتح حمص واضطر

أبو عبيدة أن يرحل من أجلها عن حمص وحذا حذوه باقى الامراء لمصادمة
الجيوش العظيمة التى أرسلها اليهم هرقل واجتمعت فى فلسطين ثم فى أجنادين
فقد ذكر خبرها الطبرى سنة (١٥) كما ذكره البلاذري واليعقوبي الا أن
هذين زعما أنها وقعة اليرموك

على ان القرائن التى تحف بهذه الوقعة التى حدثت سنة ١٥ تؤيد انها كانت
فى أجنادين وذلك أن أجنادين من عمل فلسطين واليرموك من عمل الأردن
وعماله الاردن كانت سقطت يومئذ فى أيدي الجيوش الاسلامية وهم فيها
مرابطون وفلسطين لم تكن كذلك بل كانت على وشك السقوط وبسقوطها
يسقط بيت المقدس ومتى سقط بيت المقدس تقطعت بالروم الاسباب وقضى
على سلطان دولتهم فى سورية بالانقلاب لهذا فلا يعقل ان هرقل يسرب جيوشه
الى الاردن ويترك فلسطين معرضة لهجوم عمرو بن العاص الذى كان يقصدها
من الأردن ومعاوية بن أبى سفيان الذى عزم أن يأتيها من سواحل دمشق بل
المعقول أن هرقل لما جلا عن حمص وأقام فى انطاكية أو الرها ووصلته الاخبار
بتغلب المسلمين على جيوشه فى كل مكان ورأى أن أبا عبيدة قد بلغ حمص من جهة
الشمال وقطع طرق المواصلة والامداد ما بينه وبين الجنود الرومية من جهة
البر أرسل جيوشا عظيمة من جهة البحر لتكون مدداً لأهل قيسارية وغزة
وايلياء (بيت المقدس) ولعل تلك الجنود أرسلت من يافا وعسكرت
بأجنادين لقربها منها اذ المسافة لا تزيد عن ثلاث ساعات بين يافا والرملة
وأجنادين من عملها كما قال ياقوت واليك ما رواه الطبرى وغيره فى شأن قيسارية
وغزة وأجنادين

﴿ فلسطين وأجناديه ﴾

لما انصرف أبو عبيدة من فحل الى حمص ونزل عمرو بن العاص وشرحبيل ابن حسنة على بيسان وافتتحها وصالحهم أهل الأُردُن قصد عمرو فلسطين وكتب الى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بتفرقهم فكتب الى يزيد بن أبي سفيان أن يُذفيَ ظهورهم بالرجال وان يسرّح معاوية الى قيسارية (١) وكتب الى عمرو بصدم الارطبون وكان في اجنادين والى علقمة بن مُحرّز بصدم الفيقار وكان في غزة وكان مما كتبه الى معاوية (اما بعد فاني قد وليتك قيسارية فسر اليها واستنصر الله عليهم واكثر من قول لا حول ولا قوّة الاّ بالله الله ربنا وثقتنا ورجاؤنا ومولانا نعم المولى ونعم النصير)

فسار كل أمير لما أُمر به وسار معاويه الى قيسارية وكان فيها من المقاتلة مائة الف أو يزيدون على ماثوحذ من كلام الطبري فافتتحها وكتب الى عمر بالفتح وبعث بالخبر مع رجلين من بني الضُبيب ثم خاف منهما الضعف فبعث عبد الله بن عَلْقَمة الفِراسيّ وزهير بن الحلاب الخثعميّ وأمرهما أن يتبعاهما ويسبقاهما فلحقاهما فطوياهما وهما نائمان وابن علقمة يتمثّل

أرّقَ عيني أخو جُذام ... كيف أنام وهما أَمامي
اذ يرحلان والهجيرُ طامي ... أخو حُسيم وأخو حرامي

وأما علقمة بن مُحرّز فحصر الفيقار بغزة وجعل يراسله فلم يشفه مما يريد أحدٌ فأتاه كأنه رسول علقمة فأمر الفيقار رجلاً ان يقعد له بالطريق فاذا مرّ قتله ففطن

---

(١) هذا الاسم معرب قيصرة وهما بلدان واحدة تسمى قيصرية فلسطين وهي خرب الآن وخربت على عهد الصالحين والاخرى قيصرية قيادس وهي باقية على رونقها ومدنيتها

علقمة فقال ان معي نفراً شركائي في الرأي فأنطلق فآتيك بهم فبعث الميقار الى ذلك الرجل لا تعرّض له نخرج من عنده ولم يعد وعمل كما فعل عمرو بن العاص بالارطبون لما احتال عليه بنفس هذه الحيلة ونجا من القتل

وأما بريد معاوية الذي أرسله الى المدينة فوصل الى عمر رضي الله عنه فجمع الناس ليلاً وقال لتحمدوا الله على فتح قيسارية وأباتهم على الفرح

وأما عمرو بن العاص فقد سار بجيشه نحو الأرطبون وكان من كبار القواد ودهاتهم وهو يعادل عند الروم بالدهاء عمرو بن العاص عند العرب فتقدم نحوه عمرو وهو مخيّم باجنادين بجند كثيف وعلى مقدمة عمرو شرحبيل وعلى مجنبتيه عبدالله بن عمرو وجنادة بن تميم المالكي مالك بن كنانة وقد كان الأرطبون وضع بالرملة جنداً عظيماً وبايلياء جنداً عظيماً فكتب عمرو الى أمير المؤمنين بالخبر فقال قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عمّ تنفرج وكان عمر رضي الله عنه من لدن توجه امراء الشام يمد كل امير جند ويرميه بالامداد حتى اذا أتاه كتاب عمرو بتفريق الروم كتب الى يزيد بن أبي سفيان بان يبعث معاوية في خيله الى قيسارية وكتب الى معاوية كتاباً بأمرته على قتال أهل قيسارية وقد مر ذكره وذلك ليشغلهم عن عمرو وكان عمرو قد استعمل علقمة بن حكيم الفراسي ومسروق بن فلان العكي على قتال أهل ايلياء وبعث أبا أيوب المالكي الى الرملة وعليها التذارق ولما تتابعت الامداد على عمرو وبعث محمد بن عمرو مدداً لعلقمة ومسروق وبعث عمارة بن أمية الضمري مدداً لابي أيوب وأقام عمرو على اجنادين لا يقدر من الأرطبون على سقطة ولا تشفيه الرسل فوليه بنفسه فدخل عليه كأنه رسول فابلغه ما يريد وسمع كلامه وتأمل حصونه حتى عرف ما اراد فحدثت أرطبون نفسه بانه عمرو بن العاص فوسعه في لعرق من نيته وفطن له

عمرو فاحتال للتخلص منه بمثل الحيلة التى احتال بها علقمة على الفيقار ونجا عمرو وعلم الأرطبون بحيلته فقال: خدعني الرجل هذا أدهى الخلق وبلغت عمر بن الخطاب فقال: غلبه عمرو لله عمرو.

لما عرف عمرو مأخذ الأرطبون ووقف بنفسه من حالة الروم على ما يريد أن يقف عليه زحف عليهم بجنده واقتتلوا اقتتالا شديداً كقتال اليرموك فانهزم أرطبون فى الناس وأوى الى إيلياء ولما وصلها أفرج له المسلمون الذين على حصارها فدخلها ثم ازالهم الى اجنادين

فهذه وقعة اجنادين التى اضطرب فيها المؤرخون وحملها بعضهم على اليرموك سنة (١٥) مع ان اليرموك كانت سنة (١٣) كما تقدم الدليل على ذلك فى ابيات القعقاع بن عمرو التي يذكر فيها التقاءهم مع خالد بن الوليد بجيش المسلمين وهم على اليرموك على ان وقعة اجنادين هذه لم يذكر الطبريّ فى سياقها اسم ابى عبيدة وخالد وانهما حصرا بعسكرهما من حمص الا انه لما ساق خبر فتح بيت المقدس بعد اجنادين ذكر فى جملة رواياته عن فتح بيت المقدس ان الذى كان على حصارها هو ابو عبيدة فاذا اضيفت هذه الروايه الى ماذكره البلاذريّ فى فتوح البلدان واليعقوبى فى تاريخه من رجوع هذين القائدين بجيش المسلمين من حمص لانجاد بقية الامراء فى اليرموك سنة (١٥) مع ما علمناه مما سبق ان وقعة اليرموك كانت سنة (١٣) لا سنة (١٥) وان المؤرخين ربما وهموا لتشابه الوقائع وقرب المكانين احدهما من الآخر بان وقعة اجنادين كانت على اليرموك صح أن اباعبيدة وخالداً حضرا وقعة اجنادين هذه هذا اذا لم يكن هناك وقعة ثانية فى اليرموك كما كانت وقعتان فى اجنادين الا ان القول بحدوث وقعتين في اليرموك لم يقم عليه دليل واصح في التاريخ وأما القول برحيل أبي عبيدة بجيشه عن حمص

سنة (١٥) أي بعد فتحها وشخوصه الى جنوب الشام لأمداد المسلمين فقد اتفق عليه البلاذري واليعقوبي ومما ذكره اليعقوبي بهذا الصدد قوله عن أبي عبيدة بعد أن فتح حمص

ثم أتاه خبر ما جمع طاغية الروم من الجموع في جميع البلدان وبعثه اليهم من لا قبل لهم به فرجع الى دمشق وكتب الى عمر بن الخطاب وكتب اليهم عمر انه قد كره رجوعهم من أرض حمص الى دمشق وجمع أبو عبيدة المسلمين وعسكر في اليرموك الى أن قال وكانت وقعة جليلة الخطب قتل فيها من الروم مقتلة عظيمة وفتح الله على المسلمين وكان ذلك سنة (١٥) وأوفد أبو عبيدة الى عمر وفداً فيهم حذيفة بن اليمان وقد كان عمر أرق عدة ليال واشتد تطلعه الى الخبر فلما ورد عليه الخبر خر لله ساجداً وقال الحمد لله الذى فتح على أبي عبيدة فوالله لو لم يفتح لقال قائل خالد بن الوليد اهـ

وأما ما نقله البلاذري فقد تقدم ذكره في الجزء الأول ومؤداه أن المسلمين لما بلغهم اقبال الجنود الكثيرة لوقعة اليرموك ردوا ما كانوا أخذوه من أهل حمص وقالوا لهم قد شغلنا عن نصركم والدفع عنكم فانتم على أمركم فاقسم النصارى واليهود انهم لا يدعوا عامل هرقل يدخل الى المدينة وأغلقوا أبوابها وحرسوها الخ

هذا ما أورده المؤرخون بشأن اليرموك وأحاديث بسطناها هنا مع ما في كثرة هذه الاقوال من التشويش والاختلاف لكون القارئ على بينة من الحقيقة والله بها عليم

﴿ فتح بيت المقدس ﴾

لما انتهى عمرو من أجنادين ترك أهل ايلياء (بيت المقدس) محصورين وأخذ يتم فتح مدن فلسطين وقراها ففتح غزة ولدّ ونابلس وبيت جبرين ومرج عيون ويافا وقيل إنّ يافا فتحها معاوية فلما أتم هذا الفتح قصد بيت المقدس وأخذ يخابر الأرطبون مخابرة حبية ويطلب اليه تسليم المدينة والارطبون ممتنع عليه وكتب لعمرو كتاباً يقول فيه انك لست بصاحب فتح ايلياء بل صاحبه عمر.

فكتب عمرو الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) يستمده ويقول. إني أعالج حرباً كؤوداً صدوماً (كناية عن شدتها) وبلاداً ادّخرت لك فرأيك ولما انتهى الكتاب الى عمر نادى في الناس ثم خرج فيهم حتى نزل الجابية[1]

وفي رواية للطبري أن أبا عبيدة هو الذي كان على حصار ايلياء وأن سبب قدوم عمر الى الشام أن أهل بيت المقدس طلبوا من أبي عبيده أن يصالحهم على صلح مدن الشام وان يكون المتولي للعقد عمر بن الخطاب فكتب اليه بذلك فسار عن المدينة وكتب للامراء أن يوافوه بالجابية ليوم سماه لهم وان يستخلفوا على أعمالهم فلقوه حيث رفعت لهم الجابية فكان أول من لقيه يزيد ثم أبو عبيدة ثم خالد على الخيول وعليهم الديباج والحرير فكبر على ذلك الخليفة العظيم الذي ولع بالتقشف وازدرى بنعيم الحياة الفانية أن يرى آثار النعم بادية على قواده على قرب عهدهم بالخوشنة وتحليهم بحلق العفة والزهد والبساطة فنزل وأخذ الحجارة فرماهم

«١» قال ياقوت: الجابية من قرى الجولان من أعمال دمشق ثم من عمل دمشق قرب مرج الصفر في شمالي حوران وقال لها جابية الجولان أيضاً قال الحوّاس بن القعطل

أعبد ابليك ما شكرت بلاءنا · وكلْ في رخاء الامن ما أنت آكلُ
بجابية الجولان لولا ابن بحدل · هلكت ولم ينطق لقومك قائل

بها وقال: سَرْعَ ما لُفْتُم عن رأيكم اياي تستقبلون بهذا الزي وانما شبتم منذ سنتين سَرْعَ ما ندّت بكم البطنة وتالله لو فعلتموها على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم: فقالوا يا أمير المؤمنين انها يلامعة[1] وأن علينا السلاح. قال: فنعم اذن: وركب حتى دخل الجابية وعمرو وشرحبيل بأجنادين فبينما عمر معسكراً بالجابية فزع الناس الى السلاح فقال ماشأنكم فقالوا ألا ترى الخيل والسيوف فنظر فاذا كردوس يلمعون بالسيوف فقال عمر هذه مستأمنة فلا تراعوا وأمنوهم فأمنوهم واذاهم أهل إيلياء

كان أهل ايلياء في ضنك عظيم وحصار شديد وقد أيقنوا بعد انقطاع المدد عنهم واستيلاء المسلمين على أطراف الشام ومدنها العظام انهم مأخوذون لامحاله وأن دولة الروم دالت وسلطتهم عن البلاد زالت وخافوا اذا سلموا المدينة للمسلمين ان لا يصالحوهم على ما صولح عليه أهل المدن الأخرى لكثرة مالاقى المسلمون منهم من العناء وما بذلوا في حربهم من الدماء ولما تحقق عندهم من أن بيت المقدس مكرم عند المسلمين لانه محل الاسراء ومهبط الانبياء والطاهر انهم خافوا لهذا السبب على كنائسهم العظمى أن ينزعها منهم المسلمون وقبلتهم المقدسة ان يحرموا منها الفاتحون مع أن المسلمين كانوا أحرص الناس على الوفاء بالعهود وألزمهم لشرعة الانصاف مع المغلوبين وكانوا اذا صالحوا قوماً على شيء وكتبوا لهم بذلك عهداً صار ذلك العهد سنة لمن بعدهم في معاملة أولئك المعاهدين لايحيد عنها أحد من المسلمين وانما هو أروع أحد يطلبون أهل بيت المقدس فرط التوكيد للامان وتوثيقاً لعرى العهد أن يشترط ذلك مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فطلبوا من الامراء حضوره بنفسه و [illegible] وصول أمير المؤمنين

---

(١) قال في القاموس [illegible]

الى الجابية أوفدوا اليه ذلك الوفد فتلقاهم المسلمون براية الامان فاخبروا أمير المؤمنين انهم نواب في الصلح عن أهل إيلياء وأن أمراء الجند الرومي وهم أرطبون والتذارق لحقا بمصر فصالحهم على إيلياء وحيزها والرملة وحيزها فصارت فلسطين نصفين نصف مع أهل إيلياء ونصف مع أهل الرملة وكتب لهم بذلك كتباً وكتب لأهل إيلياء خاصة كتاباً سنورد صورته في هذا الكتاب ثم جعل على ذينك القسمين أميرين جعل عَلْقَمة بن حكيم على الرملة وأحوارها وأنزله الرملة وجعل علقمة بن مُحَرِّز على إيلياء وأحوارها وأنزله إيلياء ونزل كل واحد منهما في عمله في الجنود التي معه وضم عمرو بن العاص وشرحبيل اليه بالجابية فلما انتهيا الى الجابية وافقا عمر (رض) راكباً فقبّلا ركبته وضم هو كل واحد منهما محتضنهما

وكان فتح إيلياء سنة (١٦) وقيل سنة (١٥) ولما أتم عمر عهد الصلح أراد المسير الى بيت المقدس فأتى له برذون فركبه فلما سار جعل يتخلج[1] به فنزل عنه وضرب وجهه وقال . لا علّم الله من علمك هذا من الخيلاء ولم يركب برذوناً قبله ولا بعده ثم دعا بفرسه فركبه ثم سار حتى انتهى الى المسجد الاقصى ليلاً فدخله فصلى فيه ولم يلبث أن طلع الفجر فأمر المؤذن بالاقامة فتقدم وصلى بالناس ثم انصرف ودعا بكعب الاحبار (وكان لما دخل المسجد قال ارقبوا لي كعباً) فلما أتى به قال له أين ترى ان نجعل المصلى فقال الى الصخرة فقال ضاهيت والله اليهودية يا كعب وقد رأيتك وخلعك نعليك فقال أحببت أن أباشره بقدمي فقال قد رأيتك بل نجعل قبلته صدره كما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلة مساجدنا صدورها اذهب اليك فانا لم نؤمر بالصخرة ولكنا أمرنا بالكعبة فجعل قبلته صدره

---

(١) اضطرب وتمايل

ثم قام الى كناسة [١] قد كانت الروم دفنت بها بيت المقدس فى زمان بني اسرائيل وقال يا أيها الناس اصنعوا كما أصنع وجثا فى أصلها وحثا فى فرج من فروج قبائه وسمع التكبير من خلفه وكان يكره سوء الرعة [٢] في كل شيء فقال ما هذا فقالوا كبّر كعب وكبّر الناس بتكبيره فقال علىّ به فأتي به فسأله عن سبب تكبيره فقال يا أمير المؤمنين انه قد تنبأ على ما صنعت نبيّ منذ خمسمائة سنة وسرد له خبراً طويلا من الاسرائيليات لا محل لذكره هنا

ولا جرم أن يظهر كعب الاحبار سروره ويكبّر لمصير بيت المقدس الى المسلمين وهو اسرائيليّ الاصل يعلم سوء مالاقى بنو اسرائيل من الرومان وما كانوا يلاقونه من النصارى من الاضطهاد والتعصب الذى منعهم من حرية التوجه الى قبلتهم والتمتع بأول معبد لهم كما يعلم جميل معاملة المسلمين لاهل الكتاب واطلاقهم لهم حرية التعبد والسكنى والاعمال حيثما كانوا أنى أقاموا ولهذا السبب كان اليهود فى سوريه يتمنون إدالة دولة الروم ويحرّضون عليهم المسلمين ومن ذلك ما رواه الطبري ان عمر بن الخطاب لما نزل الجابية قبيل فتح إيلياء جاءه يهودى من يهود دمشق وقال له يا أمير المؤمنين لا ترجع الى بلادك حتى يفتح الله عليك إيلياء وما زال ملازماً له حتى تم الفتح وشهد عقد الصلح

(١) كناسة أى زبالة [illegible] هيكل [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible]
عند (٢) [illegible]
[illegible] في [illegible] [illegible]
وهو [illegible]

﴿ لا وثنية في الاسلام ﴾

رأيت ماقاله عمر (رض) لكعب الاحبار وهو قول لانحب ان يفوتنا البحث فيه لهذا رأينا أن نفرد له هذا الفصل فنقول

أولع الانسان بالافراط كما اولع بالتفريط فى كل شؤونه الروحية والجسمانية ولو أنصف واعتدل ولم يطلق لنفسه العنان ليبلغ مقام الملائكة فى أعلى عليين او يهبط بها الى مقر الشرور فى اسفل سافلين لكانت السعادة الدائمة به ألزم وطريق النعيم الحيوي لديه أوسع ولما احتاج الى كثير من هذه القوانين وقوّامها وزعماء السيطرة وجنودهم والحكام وأعوانهم والسجون وحراسها بل ولكان اكتفى بدين واحد قويم وشرع آلهي مستقيم ولم يشوّه وجه الشرائع ولم يدع لتعدد الاديان وارسال الرسل في آن وآن

أجلْ اولع الانسان بالشطط حتى في العقائد فبينا يكون هذا فى طرف التفريط مارقا من كل دين منكرا لكل نحلة هائما في المادة التي يتناولها حسه وينكر ما فوقها عقله يكون الآخر مسلما لعقيدته بما لا يبعد طبعه عن طبيعته طالبا بحياله ما يظن له قدرة فوق قدرته وسلطة أعلى من سلطته وأوّل ما يلاقيه فى طلبه يعلق بقلبه ويطبعه منجع عقله والغاية التي يطلبها فى سيره فتولع به نفسه ويقوى فيه أمله ويختص به عمله فيعلو فى عبادته علو المادي في مادته حتى يساويه من طرف الافراط بالتوجه تارة للاقمار واخرى للاشجار وآونة للاحجار ووقتا للارواح وآخر للاشباح الى غير ذلك مما هو داخل فى المادة قريب من متناول الحس .
فكأن العقل الانسانى فى حال الايمان والكفر أسير المادة لا يفلت من شرك الحس ولا يدعى الى ما فوق المادة ويصعد الى أفق الكمال الالهية ريثما يتلقى برهان ربه بواسطة الانبياء ويطمئن الى التسليم بقوة آلهية تفوق قوى المادة

وتعلو عن العقل وتحكم على الكائنات تحكم الصانع المختار ثم لا يلبث أن ينحط عن هذه المرتبة فيعود الى تحيزته الاولى للهبوط الى هوة النقص والتوجه الى مظاهر المادة ولو تدريجاً حتى يلتصق بالحضيض ويعود الى الشرك وهو يظنه الايمان ويخاله منتهى العبادة وإن من دين الا اصيب اهله بهذا المصاب واشركوا مع الله الارواح تارة وأخرى الانصاب توسلا اليه على زعمهم بالحس وارتياحا الى ماتحت النظر والعقل والله سبحانه وتعالى فوق ما يتصورون ليس من المادة ولا المادة منه بل هي مخلوقة له مفتقرة اليه وليس بينه وبين خلقه سبب منها يتوصل به اليه بل هو كما قال في كتابه الكريم (الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الارض من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه) الآية

ومن الثابت أن العرب كانوا على دين ابراهيم الذي هو كباقي الاديان الالهية دين التوحيد بالله والايمان بانه تعالى خالق الكون وما فيه وإنكار ما دون ذلك من الاعتقاد بشيء من المادة ومن التمسك في العمل باهداب الشرك ولكن لم يلبثوا أن تدرجوا في مدارج المادة وهبطوا الى حضيض الشرك وتدرجوا من الاعتقاد بالارواح الى الاعتقاد بالاشخاص ثم الى الاعتقاد بالانصاب والاحجار وغير ذلك مما هو داخل في المادة واقع تحت الحس وهم مع ذلك كانوا يزعمون انهم مؤمنون لا مشركون وانهم بعبادة المادة يعبدون الله ويتقربون بها اليه كما أخبر عن ذلك القرآن بقوله تعالى (ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى) وهذا من الاغراق في الجهل والانحطاط في العقيدة والافساد لاصل التوحيد ولم يكن هذا الافساد قاصراً على العرب فقط بل عم سائر ارباب الاديان مما لا محل لبسطه الآن

اذا تمهد هذا علمنا ان الاسلام انما جاء من بيت التوحيد خالص من كل

شائبة من شوائب الشرك انما جاء لاستئصال شأفة الوثنية من نفوس العرب وغيرهم من أرباب الاديان بمحو شائبة الاعتقاد بأي أثر من آثار المادة وصرف النفوس عن التوجه الى تلك الآثار بالحس لتتوجه الى واجب الوجود بالضمائر والاكتفاء باستحضار هيبة جلاله في القلب وتمكين الاعتقاد بان الأثر الواقع تحت الحس إنما يقوم قوامه بالمؤثر المستحضر في الضمير الخارج عن الحس اذ بغير هذا لا يقوم للتوحيد أثر متين في النفس يحمي من مزلة القدم الى الوثنية المفضية الى الشرك المؤدي الى الجحود وإنما الانسان مادة وهذه أعراض منها تنمو وتعظم في النفس مادامت النفس مستشعرة بشيء من وجوب التعظيم لغير الله تعالى والتوجه لأي أثر من آثار المادة وساء منقلب الظالمين

هذا هو التوحيد الذي جاء به الاسلام ودعا اليه النبي محمد عليه الصلاة والسلام وانما اضطربت العقول وساءت الاوهام لتفاوت الاوهام وتباين مراتب المسلمين في العلم بحقيقة الدين والاحاطة باسراره والوقوف على جميع مقاصده حتى على عهد الرساله واليك الدليل

أخرج الامام أبو الفرج ابن الجوزي في السيرة العمريه عن المغرور بن سويد قال خرجنا مع عمر بن الخطاب في حجة حجها قال فقرأ لنا في الفجر (ألم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل) « ولايلاف قريش » فلما انصرف رأى الناس مسجداً فبادروه فقال ماهذا قالوا هذا مسجد صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هكذا أهلك أهل الكتاب قبلكم اتخذوا آثار أنبيائهم بيعاً . من عرضت له فيه صلاة فليصل ومن لم تعرض له صلاة فليمض .

فلو كان أولئك المصلون يومئذ في مرتبة عمر في العلم واستشعروا من إقبالهم على ذلك المسجد لا صلاة فيه تعظيماله كما استشعر به عمر رضي الله عنه وعنهم أجمعين

لما بادروا للصلاة فيه الا اذا عرضت لهم صلاة ولا جرم أن أعظم الناس فهماً للاسلام وعلماً بغوامض الدين ووقوفاً على مقاصد النبوة المحمدية وما كانت تدعو اليه من التوحيد البحت الخالي عن كل شائبة من الشوائب التي مر ذكرها هم أهل السابقة من المهاجرين الاولين الذين تلقوا الدين أنجماً كان ينزل بها الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم من لدن البعثة ولازموا الرسول ملازمة الظل فاكتنهوا سر شريعته وأدركوا مرامي غرضه وقلدوه في أعماله وأقواله وانتهجوا منهجه واهتدوا بسيرته فتفوقوا على غيرهم في العلم بالدين وعرفوا حقيقة التوحيد ومن هؤلاء من هم في المرتبة الأولى في فهم مقاصد الاسلام ومنهم عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ومن تتبع سيرته وأنعم النظر في أقواله وأفعاله وانطباقها على الكتاب الكريم ونهج السنة القويم علم ماهو التوحيد الذي أرشد اليه الاسلام وعرفه أولئك الصحابة الكرام فأرادوا أن يمحوا به كل أثر من آثار الوثنية عن صفحات الضمائر والقلوب وحسب العاقل دليلا على هذا قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لكعب الاحبار لما أشار عليه بجعل المصلى الى الصخرة لقد ضاهيت اليهودية يا كعب الى قوله اذهب اليك[1] فانا لم نؤمر بالصخرة ولكننا أُمرنا بالكعبة وقد مر الخبر في الفصل السابق نقلا عن الطبري ولأجله عقدنا هذا الفصل ليكون به عبرة وذكرى لقوم يعقلون

تقدم مما كيف تدرج العرب الى الوثنية حتى أنسوا بتقديس الاحجار وعكفوا على عبادة الاصنام وان أصول التوحيد عند أرباب الاديان كلها افسدت تدريجاً كما حصل في دين العرب وانما كان مبدأ هذا التدرج الاستسلام للشعور بوجوب تعظيم مظهر من مظاهر المادة يضاف له صلة ما بما فوق المادة كما قدمنا مثلا

(١) هكذا جاءت هذه العبارة في تاريخ الطبري ... ...

ثم يأخذ هـذا الشعور ينمو ويتعدى المظهر الأول الى غيره ويتدرج في أطوار التعبد له حتى تنقلب صورة التوحيد المرتسمة على صفحات الضمائر الى صورة من صور المادة متجسمة للحس ويستحيل الايمان بآله واحد فوق المادة الى آلهة شتى كلها من المادة أو لهاصلة بها وهـذا هو الشرك التام الجلي ومبدؤه ذلك الشرك الخفي ولم تكن دعوة الاسـلام قاصرة على استئصال الوثنيـة فقط بل كان من مقاصدها الاولى والغايات التي ترمى اليها ل من أولاها بالاهتمام وأجدرها بالعناية تطهير النفوس من كل أثر من آثار ذلك الشـعور الفاسد ولو أشـبه بدقته دقة الجرثومة الحية التي لا ترى الا بالنظارة المكبرة الا انها اذا وجدت منبتا صالحا لها تولد عنها مالا يحصى من الجراثيم في بضع ثوان فمن قال بخلاف ذلك أو ظن ان الاسلام يتسامح في تلك الجزئيات أو يبيح تعظيم أي مظهر من مظاهر المادة تعظيما دينيا فقد أخطأ ونسب العبث الى دين الله لهذا ولما أشرب قلب عمر (رض) من التوحيد الحق الصادق لم يتسامح مع كعب الاحبار حتى في خلعه نعليه عند دخوله المسجد الاقصى وآخذه على عمله ذلك كما آخـذه على رأيه في جعل المصلى الى الصخرة كما رأيت وسترى من أخباره بهذا الصدد ان شاء الله

هكذا كان فهم كبار الصحابة للدين ومن أمعن النظر في قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه في إحـدى خطبه التي مر إيرادها في هذا الكتاب وهو (ان الله لا شريك له وليس بينه وبين أحـد من خلقه نسب يعطيه به خيراً ولا يصرف عنه سوءاً الا بطاعته واتباع أمره) يعلم كيف كان اولئك الصحابة الكرام يعلمون الناس التوحيـد ويقتلعون من أعماق نفوسهم أصول الشرك ورحم الله امرءاً حاسب نفسه وعرف دينه وتأدب بأدب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ونبذ بدع النفوس وأهواءها وتنكب مواضع الزلل ومواقع الخطل وسؤالهم

والله ولي الرحمة وهو القاهر فوق عباده

﴿ فتح حماه واللاذقية وقنّسرين ﴾

قيل إن هذه البلاد وما يليها شمالا الى انطاكية فتحها أبو عبيدة قبل مسيره من حمص الى إيلياء أى سنة (١٥) وقيل إنه فتحها بعد عوده من إيلياء سنة (١٦) وعندى أن هذا الاصح

سار أبو عبيدة الى معرّة حمص فصالحه أهلها على صلح حمص وسار الى حماة فصالحه أهلها أيضاً وبعث خالد بن الوليد الى قنسرين وسار هو الى اللاذقية وقيل بل سار اليها عبادة بن الصامت فامتنع عليه أهلها أياماً فاحتال على فتحها بأن أمر الجند أن يحفروا أسراباً فى الارض كل سرب يستر الرجل وفرسه فاجتهد المسلمون حتى حفروها ثم انهم أظهروا القفول الى حمص فلما جنّ عليهم الليل عادوا الى معسكرهم وحفائرهم وأهل اللاذقية غارون يرون انهم قد انصرفوا عنهم ولما أصبحوا فتحوا بابهم وخرجوا وأخرجوا سرحهم فلم يرعهم الاّ تصبيح المسلمين إيّاهم ودخولهم من باب المدينة عنوة فهرب قوم من نصارى اللاذقية ثم انهم طلبوا الامان على أن يتراجعوا الى أرضهم فقوطعوا على خراج يؤدونه قلّوا أو كثروا وتركت لهم كنيستهم وبنى المسلمون باللاذقية مسجداً جامعاً بأمر عبادة ثم وسّع بعد

ثم أخذ عبادة ثم فتح عمال اللاذقية بأمر أبى عبيدة ففتح جبله وانطرسوس وبانياس والمرقب وغيرها وكل هذه البلاد لم تزل معروفة الى الآن بهذه الاسم وكان فتحها سنة (١٥ هـ) او سنة (١٦)

وأما خالد بن الوليد فانه لمّا وصل الى حاضر قنّسرين زحف اليه القائد ميناس بجيش الروم فاقتتلوا قتالا عظيماً وقتل ميناس فانهزم الروم فثبتوا على دمه وانهزم أهل

الحاضر وكانوا من العرب من تنوخ نزلوه وهم في خيم الشعر ثم ابتنوا المنازل فارسلوا الى خالد انهم عرب وانهم انما حشروا ولم يكن من رأيهم حربه فدعاهم الى الاسلام فاسلم بعضهم وأقام على النصرانية بنو سليح بن حلوان بن عمران بن الجاف فتركهم خالد فاسلموا بعد ذلك بيسير وقيل أسلموا في خلافة المهدي العباسي ولما فرغ من حاضر قنّسرين(١) فتحصن أهلها منه فقال انكم لو كنتم في السحاب لحملنا الله اليكم أو لأنزلكم الله الينا فنظروا في أمرهم وما لقي أهل حمص فصالحوه على صلح حمص فأبى إلا اخراب القلعة فأخربها

ولعمري ان قوما بلغ اعتقادهم بالنصر الى هذا الحد لقوم لا تعصم منهم العواصم ولا الحصون ولا تثبت أمامهم الجيوش وانما حملهم على هذا الاعتقاد يقينهم الثابت بوعد الله ورسوله لهم بالنصر اذا نصروا الحق وتمسكوا بعرى الايمان فكانوا يداً على من ناواهم وعوناً لمن نصح لهم ووالاهم ومن لهذا غير أولئك الفاتحين الاخيار الذين جمعتهم كلمة الاسلام على الاخوة التي لا تنفصم عروتها والطريق التي لا يضل سالكها الا اذا انحرف عنها وراغ عن صراطها

﴿ ذكر مسير هرقل الى القسطنطينية ﴾

كان هرقل بعد فراره من حمص قصد انطاكية ثم ارتحل على قول بعضهم الى الرُّها (أورفا) في الجزيرة ليجمع منها جيشاً يمد به أهل حمص قبل سقوطها في يد المسلمين وكان المسلمون كما قدمنا في غير هذا المحل يقظين لا تخفى عليهم من أمر الروم خافية ولما استشعروا بمقاصد هرقل أدرب عليه من الكوفة عمرو بن مالك

---

(١) مدينة كانت على بعد مرحلة صغيرة من حلب ويقول ابن حوقل ان هذه المدينة أخربها الملك باسيليوس ثم تجددت عن يد الامراء من بني نميس التنوخيين ثم أخربها عن آخرها تاج الدولة . وأما حاضر قنسرين فقرية قريبة منها

من قِبَل قرقيسيا وعبد الله بن المعتم من قبل الموصل والوليد بن عُقبة من بلاد الجزيرة بجيوش المسلمين وطووا بلاد الجزيرة وخلفوا وراءهم عقبة لئلا يؤتوا من خلفهم

وكذلك أدرب من قنسرين مما يلي الشام خالد بن الوليد وعياض بن غنم بجيش من المسلمين وعندئذ رحل هرقل الى القسطنطينية وعاد القواد الى أماكنهم دون حرب. ولما بلغ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ما فعله خالد قال: أمر خالد نفسه يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال مني [1] وقد كان عزله كما مر في سيرته وعزل المثنى بن حارثة الشيباني وقال اني لم أعزلهما عن ريبة ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلوا اليهما

وأما هرقل فانه مضى على وجهه واستتبع أهل الرها فأبوا أن يتبعوه وقالوا نحن ههنا خير منا معك وتفرقوا عنه وعن المسلمين لما وصلوا الى مدينتهم التي كان أول من دخلها منهم وأسجح كلابها وأنفر دجاجها زياد بن حنظلة وهو صحابي وكان مع عمرو بن مالك مساندة

وكان ادراب المسلمين الى الرها ورحيل هرقل عنها سنة ١٦

ولما ارتحل هرقل لحقه رجل كان أسيراً في أيدي المسلمين فأفلت فقال له أخبرني عن هؤلاء القوم فقال له أحدثك كأنك تنظر اليهم فرسان بالنهار ورهبان بالليل ما يأكلون في ذمتهم [2] الا بثمن ولا يدخلون الا بسلام. يقفون على من حاربهم حتى يأتوا عليه فقال هرقل لئن صدقتني ليرثن ما تحت قدمي هاتين

---

(١) وفي رواية [illegible]

[illegible] خالد (٢) [illegible]

هذه الصفات السامية التي قل أن تجتمع في فاتح من الفاتحين هي التي مهدت لأولئك الابطال تدويخ الممالك الشاسعة وقلب كيان الدول لا عددهم القليل وعدتهم الضعيفة بإزاء عدة الروم والفرس وعديدهم وضخامة ملكهم ومناعة حوزتهم ولهذا استشعر هرقل ضعف بنيانه وتقلص ظل سلطانه فيئس من عوده ملكه في الشام وما يليها اليه فوقف للاياء عنها بالخسران وعاد بالخذلان وقال مودعا تلك البلاد الزاهرة والملك العريض

عليك السلام يا سورية سلاما لا اجتماع بعده ولا يعود اليك رومي أبدا الا خائفا حتى يولد الولد المشؤم ويا ليته لا يولد ما أحلى فعله وأمر عاقبته على الروم :

وفي رواية انه قال

قد كنت سلمت عليك تسليم المسافر فاما اليوم فعليك السلام يا سورية تسليم المفارق ولا يعود اليك رومي أبدا الا خائفا حتى يولد الولد المشؤم وليته لم يولد .

(فتح حلب وانطاكية وغيرهما)

بعد أن تم لأبي عبيدة فتح حماة وقنسرين واللاذقية وغيرها سار الى حلب وعلى مقدمته عياض بن غنم الفهري فوجد أهلها متحصنين فنازلهم فلم يلبثوا ان طلبوا الصلح والامان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ومنازلهم والحصن الذي بها فأعطوا ذلك فاستثنى عليهم موضع المسجد وكان الذي صالحهم عليه عياض ولما انتهى اليهم أبو عبيدة أنفذ صلحه . وقيل إن أبا عبيدة لم يجد أحدا من المقاتلة بحلب وان أهل حلب صالحوه على مدينتهم بأن راسلوه من انطاكية ولما تم لهم الصلح عادوا الى مدينتهم وبينا أبو عبيدة في حلب أتاه الخبر بعصيان أهل قنسرين فوجه اليهم السمط بن الاسود الكندي فأحصرهم وقيل استعصى عليه فتح حلب فتركها

وصلوا الى انطاكية وكتب الى عمر بذلك فبعث اليه كتاباً يلومه فيه فرجع وفتحها

ثم قصد أبو عبيدة حاضر حلب وكان كحاضر قنسرين يجمع أصنافاً من العرب فصالحهم أبو عبيدة على الجزية ثم انهم أسلموا بعد ذلك وحاولوا بعد وفاة الرشيد العباسي الاستيلاء على حلب فاستنجد أهل حلب من حولهم من العرب ولم يستطيعوا استنجاد دار الخلافة لحصول فتنة محمد الامين فيها فأنجدهم العباس بن زفر الهلالي ونازل اهل الحاضر فرحلوا عنه الى قنسرين ثم غدروا بأهل قنسرين فجلوهم هؤلاء عن بلدهم ومن ثم تفرقوا في البلاد فقوم نزلوا تكريت وقوم ارمينيا وغيرها

ثم قصد ابو عبيدة انطاكية وكانت ذات خطر وشهرة وقد التجأ اليها كثير من فالّة قنسرين وغيرها من البلاد وتحصنوا فيها وبعثوا الجيش منهم الى مهروبة على فرسخين من انطاكية لصد المسلمين فلقي أبو عبيدة هذا الجيش ففضه وألجأهم الى المدينة وحاصر أهلها من جميع أبوابها فصالحوه على الجزية والجلاء فجلا بعضهم وأقام بعضهم فأمنهم ووضع على كل حالم منهم ديناراً وجريب حنطة وسار عنهم فنقضوا فوجه اليهم عياض بن غنم وحبيب بن مسلمة الفهري ففتحاها على الصلح الأول. ومن يرى ان فتح انطاكية كان قبل إيلياء يقول انها نقضت بعد رجوع ابي عبيدة الى فلسطين فوجه اليها من ايلياء عمرو بن العاص ففتحها وممن قال هذا البلادري في فتوح البلدان وما نخاله صواباً

وكانت انطاكية بسبب موقعها الجغرافي وحصانتها وتفوقها على مدن سورية عظيمة الذكر والامر عند عمر وعثمان رضي الله عنهما ولما فتحت كتب عمر الى أبي عبيدة أن يرتب فيها جيشاً من المسلمين من أهل الحسبة والرأي يرابط فيها وان لا يحبس عن ذلك الجيش العطاء وهكذا فعل بعده عثمان رضي الله عنه فقد

أمر معاوية وكان يومئذ والي الشام ان يلزمها قوماً من المسلمين وان يقطعهم القطائع ففعل

وبلغ أبو عبيدة بعد فراغه من أمر انطاكية ان جمعاً من الروم بين معرة مصرين وحلب فسار اليهم وقاتلهم وفرق جمعهم ثم فرّق خيوله في انحاء البلاد ففتحت بوقا وسرمين وتيزين وجميع أرض قنسرين ثم سار أبو عبيدة الى حلب وقد نقض أهلها فثار لهم وأحصرهم ثم سار أبو عبيدة نحو قورس ففتحها صلحاً وفتح تل عزاز ومنبج وسيّر عياضاً وحبيباً في جيشين من المسلمين فأتما فتح سورية الى حدود الفرات شرقاً وآسيا الصغرى شمالاً وجعل أبو عبيدة على كل كورة فتحها عاملاً وضمّ اليه جنداً من المسلمين وبعث جيشاً مع ميسرة بن مسروق العبسي الى أطراف آسيا الصغرى فلقي جمعاً للروم معهم عرب من تنوخ وغسان يريدون اللحاق بهرقل فأوقع بهم ثم لحق به مالك بن الاشتر النخعي مدداً من قبل أبي عبيدة وعادوا جميعاً سالمين غانمين وسيّر جيشاً آخر الى مرعش مع خالد بن الوليد ففتحها وأخربها وعاد والظاهر ان الذي دعاه الى اخرابها عدم وجود جند كاف يقوم بحمايتها من هجمات أهل الجزيرة والروم والا فربما يكون أخرب حصنها فقط لئلا يعتصم به أهلها العدو ينتقضوا على المسلمين

﴿ مهاجمة هرقل لسورية بعد استقرار ملك المسلمين ﴾

هكذا انقضى أمر الروم في البلاد السورية وتم للمسلمين فتحها بعد حروب طويلة استمرت ثلاث سنين ولاقى جند المسلمين في غضونها من العناء وبذلوا من الدماء ما جعل ثمن هذه البلاد عليهم عالياً ومقامها في نظرهم عالياً وكان لرجالات قريش وأشرافها في حرب الشام خاصة من الاثر العظيم والبلاء الجسيم ما لم يكن لقوم غيرهم في الفتوحات الأخرى وقتل منهم في وقائع الشام عدد كبير

لا سيما في وقعة اليرموك وكان ممن قتل منهم عكرمة بن أبي جهل وابنه عمرو وخالد ابن سعيد وهشام بن العاصي وسهيل بن عمرو وأبان بن سعيد وأضرابهم من صناديد قريش وأشرافها وكان للنساء القرشيات من البلاء ما كان للرجال أيضاً فقد روى الطبري أن النساء المسلمات قاتلن يوم اليرموك وخرجت جويرية ابنة أبي سفيان (القرشية) في جولة. وقال البلاذري وقاتل يوم اليرموك نساء من نساء المسلمين قتالاً شديداً وجعلت هند بنت عتبة أم معاوية بن أبي سفيان تقول عضدوا الغلفان بسيوفكم

وبالجملة فقد لاقى المسلمون في فتح الشام أهوالاً شداداً وصادموا عدواً استمات في الدفاع عن حوزته والذب عن سلطانه اذ لم يكن هرقل وجنوده أقل ثباتاً وإقداما وجراءة من العرب يدلك على هذا ما ظهر من الروم في الوقائع الأولى التي حدثت في اليرموك ودمشق وفحل وأجنادين وغيرها وعدا هذا فانه لما استقرت قدم المسلمين بالشام وتمكن سلطانهم منها في الشرق والغرب وسار أبو عبيدة عن انطاكية بعد أن استخلف عليها وعلى قنسرين وحلب وغيرها من استخلف من القواد لم يستقر لهرقل حال ولم يهدأ له بال فأعاد الكرة على البلاد السورية في سنة (١٧ هـ) بتحريض أهل الجزيرة له ووعدهم له بالمظاهرة والنصرة فلم يفجأ المسلمين الا وهرقل قادم بجند كثيف الى حمص من طريق البحر واستمد أهل الجزيرة وكاتب أهل حمص بالخروج على المسلمين فأبوا عليه وأرسلوا اليه إنا قد عاهدنا المسلمين فنخاف ان لا ننصر وكان أبو عبيدة في حمص فاستمد خالداً فجاءه من قنسرين بمن معه من الجنود فانضم أهل قنسرين بعده الى هرقل وحاصر هذا أبا عبيدة في حمص فاستشار أبو عبيدة القواد فأشار عليه خالد بمناجزة وأشار غيره بالكتابة الى عمر ومطاولة هرقل ريثما يأتي من عمر الجواب فعمل برأيهم

وكتب الى أمير المؤمنين يستمده وجاءت لهرقل الجيوش والامداد وكان امداد الجزيرة وحده ثلاثين الفاً على مارواه الطبرى وبلغ الروم من المسلمين كل مبلغ ووصل الكتاب الى عمر فكتب الى سعد بن أبى وقاص فى العراق ان أباعبيدة قد أحيط به ولزم حصنه وبثّ المسلمين بالجزيرة واشغلهم بالمسلمين عن أهل حمص وكان عمر أعد فى كل مصر مدرآمن الخيل لكون ان كان وكان فى الكوفة أربعة آلاف فرس فلما وصل كتاب عمر الى سعد بعث بالجند مع القعقاع بن عمرو وعبدالله بن عُتْبان وسهيل بن عدى وعياض بن غنم وكان عياض قد عاد الى العراق بعد فتح الشام لانه من جند العراق وأشار عليهم بأمر عمر بن الخطاب أن يسلك كل أمير طريقاً الى الجزيرة فيقصد واحد قرقيسياء والآخر الرقّه والثالث نُصَيبين والرابع حرّان والرها واهتم لهذا الامر عمر بن الخطاب (رض) فخرج من المدينة ممدداً لأبى عبيدة حتى نزل الجابية وكان القعقاع تعجل بأربعة آلاف فارس الى حمص ولما بلغ الروم ذلك انفضوا الى مدائنهم وبادروا المسلمين اليها فتحصنوا ونزل المسلمون عليهم فمنعوهم عن امدادهم فلم قدب الفشل فى جنوده وراسل طائفةٌ من تنوخ خالد بن الوليد بالتسليم أو الهزيمة وكان خالد بن الوليد لشجاعته وعلو همته لايحب الغلبة الا بفل صفوف الاعداء ومباجرتهم فى الهيجاء فأرسل الى تنوخ والله لولا انى فى سلطان غيرى ماباليت أأقللتم أم أكثرتم أو أقمتم أو ذهبتم فان كنتم صادقين فانفشوا[1] كما انفش أهل الجزيرة فوعدوه بالهزيمة اذا خرج اليهم المسلمون وقال المسلمون لابى عبيدة قد تفرق أهل الجزيرة وندم أهل قنسرين وواعدوا من أنفسهم وهم العرب فاخرج بناهذا وخالد بن الوليد ساكت فقال له أبو عبيدة مالك لاتتكلم فقال قد عرفت الذى

(١) يقال انفش الرجل أى فتر وكسل

كان من رأيي فلم تسمع من كلامي . قال: فتكلم فاني أسمع منك وأطيعك : قال : فاخرج بالمسلمين فان الله تعالى قد نقص من عدتهم (يعني الروم) وبالمدد يقاتلون وانما نقاتل منذ أسلمنا بالنصر فلا تحفلك كثرتهم

روى الطبري بعد سياق هذا الخبر عن علقمة بن النضر وغيره قالوا جمع أبو عبيدة الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال

أيها الناس ان هذا يوم له ما بعده أما من حيي منكم فانه يصفو له ملكه وقراره وأما من مات منكم فانها الشهادة فأحسنوا بالله الظن ولا يكرهن اليكم الموت أمر قد اقترفه أحدكم دون الشرك توبوا الى الله وتعرضوا الشهادة فاني أشهد وليس أوان الكذب أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة

وكأنما كان في الناس عقل[1] نشطت فخرج بهم وخالد على الميمنة وعباس على الميسرة وأبو عبيدة في القلب وعلى باب المدينة معاذ بن جبل ونشب القتال فانهم لكذلك اذ قدم القعقاع متعجلا في مائة وانهزم أهل قنسرين بالروم فركبهم المسلمون وتمت الهزيمة وعاد هرقل وجنوده بالخيبة وظهر من يقظة المسلمين واستعدادهم واهتمام أمير المؤمنين بهم في هذه الحادثة ما رأيت مما لا يظن بقوم مثلهم حديثي عهد بالبداوة . ولما ظفر المسلمون جمعهم أبو عبيدة وخطبهم وقال لا تتكلوا[1] ولا تزهدوا في الدرجات فلو علمت أنه يبقى منا أحد لم أحدثكم بهذا الحديث .

وتوافى اليه آخر أهل الكوفة في ثالث يوم من يوم الوقعة وكتب المسلمون الى عمر وهو بالجابية بالفتح وبقدوم أهل الكوفة بعد ثلاثة وطلبوا منه حكم

(١) جمع عقال وهو ما يعقل به البعير (٢) في أي لا تيأسوا تكن حكيس وحبس

فى ذلك فكتب اليهم ان اشركوهم وقال: جزى الله أهل الكوفة خيراً يكفون حوزتهم ويمدون أهل الامصار

﴿ ما كل حديث تحدث به العامة ﴾

(وندم أبي عبيدة على نقله الحديث لعامة الناس)

كل مسلم اكتنه كنه الدين الاسلامي ووقف على حكمه واسراره يرى من آياته العظمى فى الترغيب والترهيب مالو أحسن استعماله ووضع فى موضعه لكفي لارعاح النفوس الشريرة عن مواطن الرذيلة مهما التصقت بها وامعنت فيها ولجمل النفوس البارة نوراً على نور وألبسها من الفضيلة لباساً لا يصيبه بلى وقد جاء الكتاب الكريم بالترغيب ليكون باعثا للنفوس على العمل الصالح رجاء الثواب الاخروي الذى أعده الله لعباده الصالحين لا ليكون وسيلة لاستدراج النفوس فى مدارج الاستباحة طمعاً فى عفو الله لهذا جاء بازاء الترغيب بالترهيب لترتسم على صفحات النفوس صورة العقاب كما ارتسمت صورة الثواب فيكون لها منها داع الى الخير يذكرها بالثواب ويمكن منها الرغبة فيه لا الى حد الطمع والغرور ثم الاستدراج في الشرور . وزاجر عن الشر يذكرها بالعقاب ويمكن منها الرهبة منه لا الى حد الانقطاع الى تقويم أود النفس وتعطيل وظائف الحياة ولا الى حد اليأس والقموط ثم الاسترسال في الشهوات واقتراف المنكرات[1] على ذلك الاساس بني الترغيب والترهيب في الاسلام وكل ماجاء منه في الحديث النبوي فالمراد منه عين ما أراده القرآن ولكن ما الحيلة وقد أولع كثير من علماء المسلمين بالافراط فى الوعظ ترغيباً وترهيباً وحملوا عامة الناس على طريقتهم فى

---

(١) لنا فى هذا الصدد كلام مشبع في كتابنا (تنبيه الافهام الى مطالب الحياة الاجتماعية والاسلام) فليرجع اليه من أحب

فهم الدين فأكثروا من حمل الحديث وروايته دون التفهم له والعلم بمقاصده ووضع كل شيء منه فى محله والتفريق بين صحيحه وموضوعه حتى أغروا العامة بعقيدة الاباحة لكثرة ما يروون لهم من أحاديث الترغيب ولو موضوعة كفضائل الصيام والصلاة وفضائل الشهور والايام وفضائل التلاوات وجلّها ان لم نقل كلها من الموضوع الذي تستدرج به العامة للاستباحة لاعتقادهم بأن من صام كذا غفر له من السيئات كذا وكذا ومن تنفل بيوم كذا محيت سيئاته الى كذا ولقد بلغ ببعضهم سوء الفهم للدين أن جعلوا لبعض القصائد النبوية من الفضائل مالم يجعلوه للقرآن فقالوا ان البيت الفلاني منها لشفاء الاسقام والآخر لمحو الذنوب والآثام والثالث للنجاة من ظلم الحكام فليت شعري اذا اعتقد العامي أن تلاوة بيت من قصيد يكفي لمحو كل ما يقترفه فى يومه من الآثام فالى أية درجة ينتهي فساد أخلاقه وشرور نفسه وماذا يسعه القرآن بأوامره ونواهيه ووعده ووعيده وحكمه وأحكامه

أللهم ان هذا لغاية الاستهانة بالدين والجهل بمقاصد الاسلام ومنشؤه اضطراب الافهام وتلبس الحقائق بالاوهام منذ جد الوضاعون بالكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأدخلوا فى الدين ما ليس منه يضاف اليه الاكثار من حمل الحديث على غير تفقه فيه ووضع له فى موضعه الى أن ردها الشارع وقصدها الاسلام ولو تتبع العلماء سيرة الصحابة الكرام سيما خاصتهم الذين لازموا النبي عليه الصلاة والسلام وفهموا هذا الدين حق الفهم لعلموا كيف أنهم كانوا يقلّون من رواية الحديث الا للحاجة وما تمس منه الاحكام حتى ان عمر رضي الله عنه كان ينهى عن رواية الحديث ويقول عليكم بالقرآن كما سيجيء بعد وما ذلك الا خوف الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ كثرت

الرواية والنقل وخوف افتتان العامة بما ليس لهم به علم وبما لم يتفقهوا فيه من الحديث

أبو عبيدة بن الجراح كان من خيرة الصحابة وعلى جانب من التفقه فى الدين والورع والتقوى دعا النبي صلى الله عليه وسلم لأن يسميه أمين هذه الامة وقد سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً ربما لم يسمعه منه أحد من الصحابة أو سمعه بعض الخاصة فرأى هذا الامين أن يطوى هذا الحديث بين الجوانح ويضن به على العامة كما ضن به عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لان عقول العامة يلابسها الاغترار ونفوسهم يلامسها الضعف وحب الشهوات فهم بالوعيد أولى وبالزامهم ظواهر الشرع أحرى ولكن لما ألجأته الضرورة القصوى وهو محصور مع المسلمين فى حمص ورأى منهم فتوراً عن الحرب لا لوهن فى نفوسهم أو جبن أصابهم كلا وانما هو لرهبة الحال التى تمكنت من افئدتهم وقلوبهم وأخافتهم من الموت لا لذاته بل لما بعده قام فخطب فيهم وتلى عليهم ذلك الحديث وهو (من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة) استحثاثاً لهممهم وتحميساً لروعهم مما بعد الموت رجاء رحمة الله وعفوه عن ذنوب اقترفوها مما دون الشرك اذا تابوا وأنابوا

قال لهم هذا وهو يظن ان هذا الحديث لا يتعدى اسماعهم لاعتقاده انهم اذا خرجوا لمكافحة الروم لا يبقى منهم أحد يحدث به أو يلابس نفسه أثره لكثرة من كان على حصارهم من جند الروم ولما تم الظفر للمسلمين ونجوا من براثن العدو ندم على ان حدثهم بذلك الحديث وخشى من ان يعلق فى نفوسهم شيء منه مع أنه علقه على التوبة فقام وخطب فيهم فقال

(لا تتكلوا ولا تزهدوا فى الدرجات فلو علمت انه يبقى منا أحد لم أحدثكم

بهذا الحديث)

وتالله إن قوما بلغ بهم الايمان الصادق واليقين الثابت ذلك المقام مقام الرهبة من الله ومن الوقوف بين يدي قدرته بعد الموت لقوم عامتهم أعلم بالدين وأخلص في اليقين من خاصتنا ومع هذا فقد ندم أبو عبيدة على أن حدثهم بذلك الحديث فليت شعرى كيف يكون الحال بعد ذلك العصر وماذا يشترط في المحدثين وحملة علوم الدين ألا يشترط الوقوف على مقاصد الاسلام والتفقه في الحديث والعلم بحالة المخاطبين واجتناب العلوم مهم في الترغيب والترهيب ومراعاة ما يلابس عقولهم من القوة والضعف وأنى يتيسر هذا وقد نتج عن كثرة الرواية وحمل الحديث بلا تفقه فيه زيغ العقول عن مقاصد الشرع واجتراء الكذابين على وضع الحديث وشحن الكتب الاسلامية بما لا يرضاه الله والرسول وهو ما كان يحذره عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولهذا نهى في عصره الذي هو خير العصور عن الاكثار من رواية الحديث فما ذلك بما يلي عصره من العصور

ذكر الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد البر القرطبي الأندلسي في كتابه جامع بيان العلم [1] وفضله في باب ذكر من ذم الاكثار من الحديث دون التفهم له والتفقه فيه ما نصه

عن ابن وهب قال سمعت سفيان بن عيينة يحدث عن بيان عن عامر الشعبي عن قرظة بن كعب قال خرجنا نريد العراق فمشى معنا عمر الى صرار فتوضأ فغسل اثنين ثم قال أتدرون لم مشيت معكم قالوا نعم نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مشيت معنا فقال انكم تأتون أهل قرية لهم دوي بالقرآن كدوي

(١) يوجد من هذا الكتاب نسخة خطية في مكتبة الأزهر

النحل فلا تصدوهم بالاحاديث فتشغلوهم . جوّدوا القرآن وأقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم امضوا وأنا شريككم . فلما قدم قرظة قالوا حدثنا قال نهانا عمر بن الخطاب اه

ثم قال ابن عبد البر بعد هذا بقليل ما نصه قول عمر انما كان لقوم لم يكونوا أحصوا القرآن فخشي عليهم الاشتغال بغيره عنه اذ هو الاصل لكل علم هذا معنى قول أبي عبيد فى ذلك ثم قال بعد ذلك أيضاً : ان نهيه عن الاكثار وأمره بالاقلال من الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انما كان خوف الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وخوفاً أن يكونوا مع الاكثار يحدثون بما لم يتيقنوا حفظه ولم يعوه لان ضبط من قلت روايته أكثر من ضبط المستكثر وهو أبعد من السهو والغلط الذى لا يؤمن مع الاكثار فلهذا أمرهم عمر من الاقلال من الرواية اه

﴿ القواد الذين حضروا فتوح الشام ﴾

ممن كان له البلاء الحسن من القواد فى فتوح الشام غير القائد العام الذى كان خالد بن الوليد وبعده أبو عبيدة بن الجراح . خالد بن سعيد وعمرو بن العاص ويزيد ابن أبي سفيان وأخوه معاوية وحبيب بن مَسْلَمة الفهرى وعياض بن غَنْم الفهرى وشرحبيل بن حسنة وكل هؤلاء من قريش الا الاخير فانه حليف بنى زهرة من قريش وأما غير هؤلاء ممن ليسوا من قريش فهم ذو الكلاع الحميري والقعقاع ابن عمرو[1] والسمط بن الاسود الكندي وعلقمة بن مُحْرِز وعلقمة بن حكيم الفراسي وعبادة بن الصامت ومالك بن الاشتر النخعي ومسروق بن فلان العكّي

---

(١) القعقاع وعياض هما من جند العراق لا الشام ووفدا مع خالد بن الوليد أيام مجيئه من العراق وعاد القعقاع بعد فتح دمشق وعياض بعد فتح انطاكيه وقبل قبلها الى العراق

وأبو أيوب المالكي وغيرهم

هكذا تم فتح هذا القطر السوري لأولئك القواد البواسل وقد رأيت من حسن ترتيبهم للجيوش وإلمامهم بطرق البلاد وتفننهم بأساليب الحرب وقهرهم للعدو ما يدل على علو كعبهم فى فن الحرب وخبرتهم بالبلاد حتى كان أمير المؤمنين وهو بالمدينة يصدر أوامره للامراء فى كيف يسيرون وأي المسالك يسلكون وأي البلاد يقصدون كأنما كان ينظر الى هذا القطر على خارطة مصورة بين يديه والعلة فى هذا أن القطر السوري بسبب اتصاله بجزيرة العرب من جهة الحجاز كان كجزء طبيعي منها عرف العرب طرقه وبلاده وأحواله كافة كما عرفوا نفس الجزيرة يضاف اليه أن قسما عظيما منه كان مأهولا بالعرب من مصر وكانت صلة الاختلاط والمتاجرة غير منقطعة بين الحجاز وسورية تمتد الى أجيال متطاولة قبل المسيح وكانت قوافل قريش قبل الاسلام تتردد الى سورية أكثر من غيرها لهذا كان كثير من الصحابة ومنهم عمر بن الخطاب عارفين بطرق البلاد وأحوالها ذوى علاقة تجارية بسكانها

﴿ خلاصة جغرافية ﴾

(ونظرة اجتماعية)

قد رأينا بعد الفراغ من الكلام على فتح سوريه أن نأتى على خلاصة جغرافية للبلاد السوريه نضمنها أهم المباحث الجغرافية والاجتماعية المتعلقة بهذا القطر قديما وحديثا مع بيان صنائعه وعدد سكانه وأقسامه وحديثه كل ذلك على وجه الاجمال الذي يسمح به المقام اذ التفصيل ليس من شأن التاريخ العام بل هو من شأن التواريخ الخاصة فنقول

يحد سوريا شمالا ولاية أدنه (كيليكيا) من آسيا الصغرى وشرقا الفرات

والبادية وجنوباً جزء من بلاد العرب ويقال له تيه بني اسرائيل وغرباً بحر الروم أي البحر المتوسط وقد قام في هذا القطر حكومات كثيرة تعددت بتعدد الاقوام القاطنين فيه كالفينيقيين [1] والحثيين والاموريين والكنعانيين وغيرهم من الشعوب ثم رحل اليه بنو اسرائيل من مصر وزاحموا سكان البلاد وأخذوا قسما عظيما منه وغزاه كثير من الدول القديمة كدولة الفراعنة المصريين والماديين والفرس واليونانيين والرومانيين وعرب الاسلام ولم تثبت فيه قدم دولة من الدول الفاتحة كما ثبتت قدم دولة الرومانيين ودولة الاسلام فقد كان ابتداء دولة الرومان فيها من سنة ٦٥ ق ٠ م الى سنة (٦٣٣م) حيث ابتدأ الفتح الاسلامي في البلاد السورية وكانت نهايته (٦٣٨ م)أو (١٧هـ) وفيها تقلص ظل الروم عن هذا القطر وقد كان عهد الرومانيين مقسوما الى ثلاثة أقسام كبيرة وهو فلسطين وتوابعها ودمشق وتوابعها وانطاكية وتوابعها وكان القسم الشمالي منه يسمى سورية والقسم الجنوبي يسمى فلسطين فأطلق عليه اسم سورية منذ تملكه الرومان ولما تملكه المسلمون أطلقوا عليه اسم الشام وقسمه عمر (رض) الى أربعة أقسام القسم الاول الثغور وسماها هارون الرشيد العواصم وهي حمص وقنسرين وحلب وانطاكية وحاضرة هذا القسم

---

(١) الفينيقيون كانوا يسكنون سواحل الشام الجنوبية وبعض الشمالية وكانت عاصمتهم القديمة صيدا ثم اتخذوا صورا حوالى سنة ١٥٠٠ قبل المسيح بعد خراب صيدا وكانوا من أنشط الشعوب وأعرفهم بسلوك البحار وطرق الاستعمار فاستعمروا معظم جزائر البحر الابيض وذهبوا الى سواحل افريقيا الشمالية وأسسوا هناك مدينة قرطاجنة الشهيرة التي يقال انها كانت قرب تونس وقطعوا مضيق جبل طارق الى المحيط وبالجملة فقد كانوا أعظم دول البحار في عهدهم ويشبههم بعض المؤرخين بدولة انكلترا هذا العهد

حمص والقسم الثاني دمشق والقسم الثالث الأردن وحاضرته مدينة الاردن (طبرية) والقسم الرابع فلسطين وهذا قسمه الى قسمين قسم حاضرته الرملة وقسم حاضرته إيلياء (القدس) وكل قسم من هذه الاقسام يسمى جنداً وتحت كل قسم أقسام تدعى كوراً وسيأتى الكلام على هذا بالتفصيل فى غير هذا المحل ان شاء الله

وقد توفرت فى هذا القطر أسباب المكاسب الثلاثة وهي الزراعة والصناعة والتجارة لخصب أراضيه وموقعه الجغرافي ونشاط أهله للعمل الا أن هذه الاسباب كانت تعلو وتسفل بنسبة حال الدول الحاكمة فى هذا القطر ومن المقرر أن عمران الممالك تابع لترقى الدول وقد كانت دوله الرومان الشرقية على عهد الفتح الاسلامى دوله لحقها الهرم والعجز وعفت من ممالكها آثار التمدن الرومانى العظيم لما أصاب أهلها من الانشقاق الدينى والاختلاف المذهبي الذي أودى بحياتهم السياسية وفرّق جامعتهم الملية ولما تولى الامبراطورية هرقل سنة (٦١٠ م) كان أمر المجادلات الدينية فى أشده فخاص الامبراطور نفسه فى غماره واشتغل بالامور الدينية تاركا أمور الدوله السياسية لوزرائه وأرباب دولته ومن ثمّ ظهر الوهن فى الدوله فى أتم مظاهره فغزتها دوله الفرس واكتسحت جزءاً من ممالكها عظيما وهو آسيا الصغرى وسورية ومصر وكاد الامبراطور هرقل يزايل كرسيه الامبراطورىّ القسطنطينية ويتخذ قرطاجنة عاصمة له لولم يمنعه عن هذا العزم بطريرك القسطنطينية حتى نهض مرة ثانية بجنان ثابت لمحاربة الفرس واسترد منهم ما انتزعوه من ممالكه كما تقدمت الاشارة اليه فيما مرّ من هذا الكتاب

ولا ريب في أن ما أصاب هذه المملكة من التقهقر يومئذ كان لسورية منه حظ عظيم ونكبت كما نكبت تلك الممالك الامرض بسوء السياسة والضعف

والانقسام لاسيما وانها كانت حديثة عهد بمعارك الفرس التي لم يكن مضى عليها لحين الفتح الا بضع عشرة سنة . إذن فهذه البلاد لم تكن لما دوخها المسلمون راقية مراقي العمران ولم تكن أسباب المكاسب الثلاثة متوفرة عند السكان إلاّ ان استعدادها الطبيعي "لقبول العمران وما فيها من بقايا المدنية العابرة تكمل برقيّ أهلها في مراقي السعادة مذ بسطت عليها دولة العرب المسلمين جناح السلطان

نعم نحن ليس لدينا نص تاريخي واضح على مبلغ ما وصلت اليه هـذه البلاد من الرقيّ على عهد الخلفاء الراشدين والاموبين في صدر الاسلام لما أن أخبار تلك العصور انتهب اليها بالرواية ولم يكن تدوين التاريخ الاسلامي معنياً به في ذلك العصر إلا ان هناك من الادلة والاسباب ما يحملنا على الظن بل اليقين بأن البلاد السورية صارت يومئذ الى أبعد غاية من غايات الترقي في أصول المكاسب الثلاثة الصناعة والتجارة والزراعة

من المعلوم بالبداهة أن العدل أساس العمران ومتى تنظمت أصول الجباية ورفع عن الرعية العسف وخمدت المظالم وأطلق للاهلين عنان الحريه توفرت لهم أسباب الراحة ونشطوا من عقال الخمول وهبوا للاخذ بأسباب المكاسب وتبسطوا في مناحي العمران وقد رأيت فيما مضى من أخبار الفتح كيف أن سكان البلاد كانوا ايصالحون على مقدار معين من الجزية والخراج لم يتجاوز حد العدل والاستطاعة وروعيت فيه بالطبع ثروة البلاد ومقدرة كل فرد من الاهلين وان هذا القدر المعين في عصر الفتح استمر على ما هو عليه مدة الخلفاء الراشدين والامويين وصدر أمن خلافة العباسيين وان سببه محافظة الخلفاء على العهود الى بأيدي السكان ويضاف اليه تجنب تلك الدول لأسباب السَرَف لقرب عهدها بالبداوة وجدتها في تأسيس الملك وعدم حاجتها لهذا السبب الى التعسف في

الجباية والاكثار من المظالم وقد كانت جباية الاقسام السورية الاربعة فى عهد الامويين على ترقى العمران فى البلاد هي ما يأتي نقلا عن فتوح البلدان

دينار	
١٨٠٠٠٠	الاردن
٣٥٠٠٠٠	فلسطين
٤٠٠٠٠٠	دمشق
٨٠٠٠٠٠	العواصم (وهي حمص وقنسرين وحلب وانطاكية وتوابعهم)
١٧٣٠٠٠٠	الجمع

وهذا المبلغ ليس بشيء بالنسبة لعمران البلاد يومئذ وربما بلغت جباية البلاد فى عصور تقهقرها أكثر من ذلك وجبايتها الآن على تدنيها فى العمران وفقد الصناعة منها وضعف التجارة والزراعة فيها أكثر من جبايتها فى صدر الاسلام كما سترى

وهذا دليل على تناهي الخلفاء يومئذ بالعدل وعدم عسفهم فى الرعية يضاف اليه أيضاً جلوس الخلفاء بأنفسهم للمظالم الى عهد عمر بن عبد العزيز وإنصافهم للرعية وقيامهم على وسائل العمران وتمصير الامصار وتأسيس الملاجئ كوضع عمر بن الخطاب لدور الضيافات الخاصة بأبناء السبيل والمنقطعين وترتيبها فى الطرق من الحجاز الى الشام ومنها الى العراق وتأسيس معاويه لمدينة طرابلس الشام وتمصير سليمان بن عبد الملك مدينة الرمله وتشييد الوليد بن عبد الملك الملاجئ للزمنى والمجذمين وأمره بماء لصدق المسافرين فيما بين الاقطار المتباعدة كما صنع عمر بن الخطاب وعنايته أي الوليد بإصلاح الطرق المسهلة للتجاره وإطلاق الخلفاء الحرية المعتقد بين الطوائف الوطنية من اليهود

والنصارى وعدم إنحياز أحدهم لفريق منهم دون آخر كما كان ينحاز ملوك الروم ويثيرون بين الرعية ثائرة التباغض والشحناء كل هذا وغيره من أسباب الراحة والأمن ودواعي الرقى والعمران يدلنا على رقي البلاد على عهد الخلفاء الراشدين والامويين والعباسيين أيضاً وتمتع أهلها بسعادة الراحة والعمران التى لم يتمتع بها هذا القطر فى عهد غير دولة المسلمين الا قليلا على عهد الفينيقيين أيام مجدهم والرومانيين أيام تمدنهم

ولما انقسمت دول الاسلام على بعضها تداول هذا القطر السوري عدة من الدول كالفاطميين والاتراك والاكراد والجراكسة أخذ بالانحطاط تبعاً لانحطاط الدول الحاكمة وأصيب من النكبات بما لم يصب به غيره من الاقطار الاسلامية اذ هاجمته في أواخر القرن الخامس من الهجرة جيوش الصليب واستعرت في أرجائه نيران تلك الحروب المشؤمة مدة جيلين كاملين الله أعلم بما أصاب فى غضونها هذا القطر من الخراب والتدمير ثم تبع ذلك هجوم التتار عليها في نصف القرن السابع للهجرة وتخريبهم للمدن والامصار وعملهم في البلاد وأهلها الاعمال الكبار وتلى ذلك هجوم تيمورلنك عليها فى أواخر القرن الثامن بعد اكتساحه لما في طريقه من ممالك الاسلام وفعل في سورية الافاعيل وأجلى عن دمشق خاصة أهل العلم والصناعة واستصحبهم معه في عودته الى سمرقند

على ان موقع هذه البلاد الجغرافي وطبيعة أرضها المشهورة بالخصب وأهلها المعروفين بالجلد حفظ لها دماء الحياة وأعان أهلها على تحمل المصائب فلم تحط الى الدرجة التى تفقد معها أصول المكاسب بل استمرت حلب ودمشق الى عهد قريب محطاً لحركة القوافل الآتية من العراق تحمل بضائع العجم والهند وتعود بالبضائع الشامية بل والبضائع العربية أيضا اذ كان هذا الطريق قبل فتح

ترعة السويس أخصر طريق بين الغرب والشرق

وكذلك الصنائع فانها بقيت حية نامية حتى في العصور المتأخرة على عهد ملوك الطوائف يدلنا على هذا ما بقي منها وما لم يبق أيضاً لوجود أثره الذي ينبئ عنه فأما الباقي منها الى الآن فصناعة الاقمشة الحريرية والقطنية كأقمشة اللبس المعروفة بالشاهية أو القطنية والديما أو الغزلية والالاجا والحامدية وغيرها وكأقمشة الزينة كالستاير والمتكئات وغيرها من أقمشة الحرير والصوف والقطن المختصة بالزينة وأخصها الاطلس المعروف قديما بالدامسقو إلى غير ذلك من أنواع الأقمشة كالشراشف والمناشف والكوفيات والاحزمة كل هذا باق الى الآن وهو في أعلى طبقة من دقة الصناعة ورواء المنظر ومتانة النسيج وبهاء الالوان وتناسب النقش وقد اختصت ببعض هذه الصنائع دون البعض الآخر كثير من البلدان السورية كحلب وحماه وحمص ودمشق وطرابلس والدوق (من لبنان) وغيرها

وصناعة الحفر والنقش على الخشب بالصَّدف المعروفة (بالمصدّف) وهي من الصناعة الخاصة بدمشق وقد ترقت الآن فتعدت الصدف الى النقش بقطع الخشب الملون الدقيقة بحيث لا يظنها الناظر اليها الا منقوشة بالدّهان لتماسك الاجزاء الصغيرة والتحامها التحاماً لا يظن منه أن النقوش تناهي أجزاء صغيرة ملتصقة في الخشب الا بعد إمعان النظر فيها والتدقيق في نقوشها

وصناعة الصابون ومعاملها لم تزل تشتغل في الآن في حلب ودمشق ونابلس وغيرها

وصناعة الشاوي في دمشق معامل كثيرة لها تسمى [illegible] لهذا العهد تصنع كميات عظيمة من الشاء الا انه قل تصديره في الخارج بسبب مزاحمة

النشا الافرنجي له في البلاد التي كان يصدر اليها كمصر وغيرها

وصناعة الدباغة وهي موجودة في معظم المدن السورية الا انها ساذجة لم تترق الا في مدينة زحله التابعة لجبل لبنان فانها تحسنت الآن وكادت تضاهي الجلود التي تصنع في زحلة الجلود التي تصنع في معامل أوربا

وصناعة البناء والحفر في الاحجار ونقشها نقوشاً نائتة أو مجوفة وهي صناعة قديمة في البلاد تمتد الى زمن الفينيقيين كما يستدل على ذلك بالآثار الحجريه الباقية الى الآن والظاهر أنها كانت تختلف باختلاف حال الدول وحبها للبذخ وميلها للعمران فالبناء في عصر الفينيقيين ومن تلاهم من الدول في سورية كان ظاهر الفخامة عظيم الضخامة متقن النقش والترتيب كهيكل بعلبك الذي بلغ الغاية في إتقان البناء والتصوير الناتئ على الحجر الصلد ومثله هيكل تدمر أيضاً على أننا لم نر أثراً يشبههما لأواخر الدوله الرومانية ولما جاء الاسلام وتبسط الامويون في العمران وابتنى الوليد جامع دمشق وبيت المقدس ظهر ثانية فن اتقان البناء وكان أجمل رواء منه في عصر الرومانيين من حيث النقش الدقيق على الاحجار المعروف لهذا العهد بالحفر والتنزيل وأما في القرون الوسطى الهجرية فقد انحطت هذه الصناعة انحطاطاً قليلاً بدليل مانشاهده منها في بعض المساجد التي بنيت على عهد الملوك الجراكسة وغيرهم كجامع الملك الظاهر بدمشق ثم نهضت في القرون المتأخرة وترقت من فن البناء صناعة الزخرف والحفر والتنزيل ترقياً عظيماً حتى هذا العهد وقد بني في العام الماضي محراب للجامع الأموي كله من القطع الرخام الملونة الصغيرة فكانت على تناسب أوضاعها واتقان صنعها وترتيب أشكالها معجزة من معجزات الصناعة ومثله المنبر الذي أقيم في جانبه وعلى نمطه أيضاً

وصناعة الزجاج وهي اليوم متدنية جداً لا تتعدى صنع القوارير الساذجة

ومما لمياه وجودة في دمشق وغيرها

وصناعة الحبال المتخذة من قشر القنّب وهي مترقية عظيمة الخطر وتوجد مصانعها بكثرة في دمشق وتصنع مع المدرة في بيروت وحماة

وصناعة النحاس ونقشه نقوشاً ناتئة ومحفورة وكانت فقدت منذ خمسين سنة ثم عادت الآن بسبب كثرة رغبات الاوروبيين بالآنية النحاسية التي من هذا النوع

وصناعة الصاغة وهي الآن مترقية في معظم المدن السوريه

وصناعة أدوات الخيل وهي الآن مترقية وقد تناولت كثيراً من الصناعات كصناعة لهميانات والصناديق الجلد وغيرها وبهذه الصنائع الباقية الى الآن في سورية ويوجد غيرها أيضاً مما لا أهمية لذكره وأما الصنائع التي اندثرت وإنما تدل عليها آثارها فهي صناعة القيشاني وكانت خاصة بدمشق والموجود منها لهذا العهد في بعض المنازل وحمامات والجوامع يدل على ترقي هذه الصناعة في العصور المتأخرة ترقياً عظيماً خصوصاً في القرن التاسع والعاشر الى الثاني عشر وفي جامع الشيخ محي الدين العربي في الصالحية الذي ابتناه السلطان سليم العثماني في أوائل القرن العاشر نوع منه بلغ الغاية في الاتقان ودقة الصنع وبهاء اللون وتناسق النقوش وكذلك الموجود في جامع الدرويشية وتاريخ صنعه المكتوب عليه هو سنة (٩٨٣ هـ) والموجود في جامع السنانية وتاريخ صنعه المكتوب عليه هو سنة (١٠٠٠ هـ) وقد دثرت هذه الصناعة في القرن الماضي لانحصارها في عائلة واحدة ضنّ آخر فرد منها بتعليم هذه الصناعة لسواه ومات فذهبت معه والخبر عن هذا مشهور ومستفيض الى اليوم عند الدمشقيين والظاهر أن أصل هذه الصناعة فارسية بدليل نسبتها الى قيشان محرفة عن قاشان المدينة في فارس

وصناعة الخزف وقد كانت أيضاً فى أعلى طبقة من الدقة وتدل آثارها على أنها كانت مرتقية فى القرون الوسطى والمتأخرة الهجرية وانما عرفنا ذلك بمشاهدة قطع من مصنوعات الخزف استخرجها الدكتور (هوردوشانو) من التل المعروف بتل الباب الشرقى خارج دمشق لما اشترى من الحكومة هذا التل وأراحه من بضع عشر سنة فوجدناها تشابه ما اكتشفته جمعية البعثة الاثرية الفرنساوية فى مصر من القطع والآنية الخزفية المصنوعة فى عهد الفاطميين والجراكسة [1] وقد شاهدت بعض هذه القطع المصرية عند صديق لى المانى وعليها اسم العامل بالعربية إلا أنى لم أعثر فى القطع الدمشقية على اسم للمعمل ولا العامل وأنا أبحث الآن عن ذلك فاذا عثرت على شئ من هذا القبيل ربما أعود لذكره فى مكان آخر على وجه التفصيل

صناعة الفسيفساء وهى قطع صغيرة من الزجاج الملون والمذهب تنقش بها الجدران بأن ترصف على طبقة من الجبس على أشكال شتى جميلة الصنع والترتيب تمثل الانهار والاشجار والابنية الجميلة وهى من أنفس الصنائع التى وجدت بدمشق وهي من مخترعات الروم بدليل ان الوليد بن عبد الملك لما ابنى الجامع الاموي بدمشق استجلبها من القسطنطينية ورصف جدرانه كلها بالفسيفساء على أشكال شتى تمثل الجامع والاشجار والازهار ولكثرة ما طرأ على الجامع من الحريق تساقطت عن جدرانه الفسيفساء إلا قليلا منها فى الحائط المقابل للمنبر فى الحرم الداخلى والحائط الغربي والشمالي فى الحرم الخارجي فاما ما كان منها على الحائط الداخلى فقد تناثر بعضه فى الحريق الذى حدث منذ بضع سنين وأما ما كان

[1] راجع مذكرات البعثة الاثرية الفرنساوية المطبوعة باللغة الفرنساوية في عدة مجلدات

منها في الحرم الخارجي فقد أدركته في طفوليتي وقد تشعثت القناطر الحاملة للجدار ولما أريد ترميمها اقتلع ما عليها من الفسيفساء إما عمداً عن جهل بقيمته الأثرية وإما اضطراراً فكان يجمعه الاولاد وخدمة الجامع يومئذ ويبيعونه للسياح . والظاهر أن صناعة الفسيفساء استمرت في الشام الى ما بعد القرن السابع بدليل ما يشاهد منها في جدران بعض جوامع حلب وجامع الملك الظاهر بيبرس بدمشق إلا أن القطع غير متماسكة في التركيب ولا منتظمة في الرصف وليس لها من بهاء الصنع ودقة التناسب في النقش ما كان لمثلها في الجامع الاموي وهو يدل على انحطاط صناعة النقش بالفسيفساء يومئذ انحطاطاً انتهى الى تركها تاتاً

وصناعة السيوف الدمشقية وقد كان يتنافس بها ويضرب المثل بلين متونها ومضائها وقد دثرت منذ أجلى تيمورلنك صناعها معه الى سمرقند على أنه لم تزل الى هذا العهد صناعة الاسلحة والسيوف موجودة بدمشق وغيرها من مدن سوريه الا أنها منحطة عن مرتبتها الاولى

وصناعة الاثواب البيض المعروفة (بالخام الصالحاني) وكانت خاصة بدمشق وبعض قرى جبل قلمون ولم يبق لها اعتبار منذ كثر توارد البضائع الافرنجية الى من نوعها الى سورية وكان من بضع سنين شيخ في صالحية دمشق من أرباب هذه الصناعة طاعن في السن قد بلغ من الكبر عتيا يقول ان الصالحية منذ أربعين سنة وصاعداً كانت منازلها كلها أشبه بمعمل وحديحوك أهلها تلك الاثواب البيض من القطن المعروف بالشام وان أهل الصالحية جميعهم كانوا في نعم وعيش راغد من ثمرات هذه الصناعة وأصبحوا الآن في ضنك وعسر لفقدها منهم أو لعدم الحاجة اليها

وقال ذلك الشيخ إنه أدرك سوق دمشق وكل سوق منها لأرباب

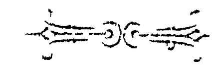
صناعة مخصوصة كسوق الشماعين والبابوجية والقلابقية (١) والخراطين وسوق السلاح والنبلية وسوق الزلالية والقباقبية وغير ذلك من الاسواق التي لم يبق لصناعها أهلها الا رسم دارس وعهد طامس الهم الا الدلبية والخراطين فقد بقيت منهم بقية الى الآن لعدم استغناء البلاد عن صناعتهم لهذا اليوم

ومن الصنائع النفيسة التي فقدت من دمشق وكانت خاصة بها صناعة الدهان المعروف عند الدمشقيين (بالعجمي) وهو بأن ينقش باطن سقف الغرفة والجدران المبطنة بالخشب بالجبس الناتئ على أشكال بديعة ويذهب بعضها وبعضها يلون بألوان غير زاهية وهي من أدق الصنائع النفيسة وأجملها وكان لهذا النوع تركيب مخصوص من الدهان بحيث يستمر لونه لامعاً ذا بهاء ورونق مهما تطاولت عليه السنون ويوجد لهذا العهد كثير من آثار هذه الصناعة في منازل دمشق ومنها ما هو موجود في منزل أسعد باشا العظم الذي يقصده السياح للفرجة وفي منزل عبد الله باشا ومنزل المرادي ومنها ما مضى على بنائه لهذا اليوم نحو مائة وخمسين سنة ولم يزل الدهان الذي فيه زاهياً جميلاً كأنما صنع بالامس .
والظاهر أن فقد هذه الصناعة من دمشق قريب عهد لوجود بعض آثارها التي لم يمض عليها الى اليوم أكثر من ستين سنة وإنما أهملت في السنين المتأخرة لكثرة ما تحتاج اليه من النفقات التي لا يتحملها الآن أهل الترف والبذخ للفقر الذي ألم بالبلاد منذ انحطت فيها أسباب المكاسب وقد تقدم القائمون ببناء الجامع الاموي لهذا العهد بعد الحريق الذي طرأ عليه الى بعض الدهانين الطاعنين في السن الذين يعلمون شيئاً من هذه الصناعة بدهن السقفين اللذين يليان القبة من الجنوب والشمال بذلك الدهان فأتقنوا صنعه إلا أنهم أدخلوا فيه بعض الالوان

(١) صناع العلابيين التي يستعمل بها البيع

الزراعة فحالها مثل الصناعة إلا أنها ماجرت إلا وفيا بالغرض لا عيب فيه

هذا ما أردنا بسطه عن حالة سورية الصناعية والاجتماعية وبقي لنا كلام عن حالتها لهذا العهد من حيث الترقي أو الانحطاط سواء كان في العلوم والمعارف أو في الصناعة والزراعة ودرجة ثروة البلاد من هذه الاشياء ومراتب أهل مدنها منها وعدد نفوسها والسكك الحديدية التي أنشأتها الشركات الاجنبية فيها الى غير ذلك مما يتعلق بالحالة الاجتماعية على العموم في هذه البلاد وعما أنها تابعة في هذا كله الى المملكة العثمانية فقد أرجأنا الكلام على ذلك الى الاجزاء التالية التي نخصصها لرجال الدولة العثمانية ونتكلم فيها عن هذه الدولة التي نضرع الى الله تعالى أن يؤيدها بروح القوة والعلم ويصونها عن الزوال بأن يرشد رجالها الى طرق الخير وينزع من نفوسهم حب الشهوات ويزرع فيها حب الملة والوطن لينقذوا الأمة العثمانية من خطر الانحطاط الى دركات الضعف والاضمحلال التي أشرفت عليها لهذا العهد وكاد اليأس من سلامة استقلالها يستولى على نفوس العقلاء من أفرادها الذين بقي فيهم دماء من الحياة وأثر من الشعور فباتوا يتقلبون على مصاحع الآلام وتساورهم الهموم الجسام ولا سبيل لهم الى إصلاح الحال وتدارك خطر المآل لانهم اذا نصحوا رُموا بالخيانة واذا صدعوا خرجوا في عرف الجهلاء من عهد الامانة وهي حالة يارّتاه تؤذن بتسفل الاخلاق وضعف العقول وموت الوجدان فأنقذنا اللهم مما وارشدنا للتبرئ من عارها الذي جعلنا عبرةً في الآخرين وألعوبة في أيدي الغربيين انك مجيب الدعاء



باب

فتح العراق وفارس

(انتداب أبي عبيد ووقعة الجسر وغيرها)

تقدم معنا أن أول عمل عمله عمر (رض) في خلافته هو إجلاء أهل نجران وعزل خالد بن الوليد وانتداب الناس لحرب الفرس فأما الخبر عن الامرين الأولين فقد بسطناه فيما سبق. واما الخبر عن حرب الفرس فذلك أن المثنى بن حارثة الشيباني الذي خلف خالد بن الوليد على حرب العراق وفد على أبي بكر في حال مرضه ليفاوضه في شأن الهجوم على بلاد فارس ما داموا مختلفين بينهم على من يولونه الملك بعد شهريراز الذي أدى موته الى تملك سابور ثم قتله وقيام آزرميدخت ثم بوران إلا أن أبا بكر رضي الله عنه لم يسعه إجابة طلب المثنى لمرضه فأوصى عمر بن الخطاب (رض) أن يندب الناس بعد توليه منصب الخلافة مع المثنى بن حارثة لحرب الفرس فقام عمر في صبيحة اليوم الذي دفن في ليلته أبو بكر وانتدب الناس لقصد العراق فلم ينتدب له أحد لأن وجه فارس كان أكره الوجوه الى المسلمين وأثقلها عليهم لشدة سلطانهم وشوكتهم وقهرهم الأمم فلما كان اليوم الرابع عاد فانتدب الناس وتكلم المثنى بن حارثة فقال يهون على المسلمين خطب الفرس

يا أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه فانا قد تبحبحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقي السواد (يعني الشق الغربي الذي هو العراق العربي) وشاطرناهم ونلنا منهم واجترأ من قبلنا عليهم ولها إن شاء الله ما بعدها اهـ

وقام عمر (رض) في الناس فقال

إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة[1] ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك أين الطراء المهاجرون عن موعود الله سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها فإنه قال (ليظهره على الدين كله) والله مظهر دينه ومعز ناصره ومولي أهله مواريث الأمم. أين عباد الله الصالحون اهـ

فكان أول منتدب أبو عبيد بن مسعود الثقفي وثنى سعد بن عبيد وسليط ابن قيس فلما اجتمع ذلك البعث قيل لعمر أمر عليهم رجلا من المهاجرين والأنصار فأبى وقال إنه من سبق الى الدفع وأجاب الى الدعاء أولى بالرياسة ثم أمر أبا عبيد على الجيش وقال له: إسمع من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأشركهم في الأمر ولا تجتهد مسرعا حتى تتبين فانها الحرب والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكف[2] ولم يمنعني أن أؤمر سليطا إلا سرعته الى الحرب وفي التسرع الى الحرب ضياع إلا عن بيان والله لولا سرعته لأمرته ولكن الحرب لا يصلحها إلا المكيث

خرج أبو عبيد في آخر جمادي الأولى أو أوائل جمادي الثانية سنة (١٣هـ) ومعه سعد بن عبيد وسليط بن قيس أخو بني عدي بن النجار والمثنى بن حارثة الشيباني فتقدمهم المثنى الى الحيرة وكان استقر أمر فارس لبوران فاستدعت رستم من خراسان وتوجته وجعلت اليه حماية البلاد وسلمته قيادة الجند فكتب رستم الى دهاقين السواد أن يثوروا ودس في كل رستاق رجلا ليثور بأهله وبعث جندا لمصادمة المثنى وبلغ المثنى ذلك فضم اليه مسالحه واجتمع اليه المسلمون فسار بهم الى خفان ونزلها حتى قدم أبو عبيد وكان أول من ثار من الدهاقين جابان في فرات

---

(١) النجعة طلب الكلأ (أي المرعى) في موضعه كما في القاموس

(٢) يعني الرجل المتأني الذي يعرف ساعة العمل فيعمل وساعة الكف فيكف

بادقلى فسار اليه أبو عبيد فالتقوا بالنمارق وتقاتلوا فهزم أهل فارس

﴿ موعظة ﴾

لما انهزم الفرس أسر جابان أسره مطر بن فضة التيمي فخدعه جابان بأن وعده بشيء يعطيه له فأمنه وخلى عنه فأخذه المسلمون فأتوا به أبا عبيد وأخبروه انه الملك وأشاروا عليه بقتله فقال اني أخاف الله أن أقتله وقد آمنه رجل مسلم والمسلمون فى التواد والتناصر كالجسد الواحد لزم بعضهم فقد لزم كلهم فقالوا له انه الملك وانه هو الذي حاربنا قال وان كان لا أغدر فتركه

انظر رحمك الله الى هذا الأمير العظيم النفس الصادق الايمان الذي ملك ناصية عدوه الذي عدا بالمسلمين وأثار عليهم ثائرة البلاد وقاتلهم سكران الجبل وخرق العهد فأبى أن يقتله لعهد سبق له من فرد من أفراد المسلمين الذين بلغ بهم التناصر والتواد يومئذ أن أميرهم يقوم بحق صغيرهم ويلتزم بما التزم به حقيرهم فأين تلك النفوس البارة والاخاء المتوثق والوجدان الحساس والتناصر النافع مما طرأ بعد ذلك على المسلمين من فساد الأخلاق وضعف اليقين وانحلال عرى الاخوة حتى باتوا ألبا على بعضهم وحربا على أنفسهم يتفرقهم الأعداء ويتغلب عليهم الفاتحون وأمراؤهم في تناكر وتخاذل يتربص بعضهم أذى بعض ويتمنى أحدهم زوال ملك أخيه انفرادا باسم الرياسة وطاعة لهوى النفس الشريرة وما يتمنون في الحقيقة الا زوال ملك الاسلام وما يطيعون الا شيطان الخذلان

اللهم قد انفرجت بيننا وبين السلف مسافة الخلف وصوح نبت الاسلام وتناكرت النفوس وتقطعت أسباب الاخاء وانحطت أخلاق الأمراء وتفشى الجهل في قصور العظماء وتقوضت أصول الدين وغلبت الشهوات وتغلب علينا الأمم وحسبنا من حزائنك العادل بالقياد من جور أمرائنا وتحكم أعدائنا

فاهدنا من الحق والعلم صراطاً نخلص به الى طاعتك فيما أمرت فنوثق عرى الاخاء ونتبذ من كانوا اسباب التقاطع والشحناء ونجدد عهد التآلف ونتمسك باسباب التناصر والتكاتف انك مجيب الدعاء

﴿ عود الى خبر أبي عبيد ﴾

انهزمت جنود جابان من النمارق ولحقت بكسكر حيث يخيم قائد اسمه نرسي من الأسرة الكسروية فأمر أبو عبيد بالرحيل ورحل بجنده حتى نزل بكسكر وكان أهل كسكر وما حولها من البلاد ينتظرون مجيء الجالينوس مدداً لهم من قبل رستم فعاجلهم أبو عبيد والتقوا بمكان يدعى السقاطية فاقتتلوا اقتتالاً شديداً فانهزم الفرس وهرب قائدهم نرسي وغلب على عسكره وأرضه وأقام أبو عبيد وسرح القواد لاستخضاع من حوله من أهل السواد فجاء فروخ وفروند اد المثنى بن حارثة وطلبا منه الخراء والذمة عن باروسما ونهر جوبر فأسلمهما أبا عبيد فصالحاه على شيء معلوم

﴿ موعظة أخرى ﴾

لما تم الصلح بين أبي عبيد وبين فروخ وفروند داد جاءاه بآنية فيها انواع أطعمة فارس من الالوان والاخبصة وغيرها فقالوا هذه كرامة أكرمناك بها وقرى لك قال أأكرمتم الجند وقريتموهم مثله قالوا لم يتيسر ونحن فاعلون فقال أبو عبيد فلا حاجة لنا فيما لا يسع الجند فردوه وخرج حتى نزل باروسما فأتاه الاندرزغر بمثل ما جاء به فروخ وفروند اد فقال لهم أأكرمتم الجند مثله وقريتموهم قالوا لا فرده وقال لا حاجة لنا فيه بئس المرء أبو عبيد ان صحب قوماً من بلادهم اهراقوا دماءهم دونه ولم يهريقوا فاستأثر عليهم بشيء يصيبه لا والله لا يأكل مما أفاء الله عليهم الا مثل ما يأكل أوساطهم

هكذا كان الامراء وقادة المسلمين يعملون وبمثل هذه الاخلاق يمتازون وبحب المساواة مع عامة الناس في السراء والضراء يوصفون وبمثل هذه الخصال الجميلة يسودون لا بالاستئثار بفيء المسلمين ولا بالترفع عن عامة المؤمنين ولا باستلاب مال البلاد التي أحرزها المجاهدون بسيوفهم وأسالوا على جوانبها دماءهم

وهذا المبدأ الذي تأسس عليه الاجتماع الاسلامي منذ نبت الاسلام في أرض العرب هو مبدأ الاشتراك المعقول الذي يخبط للوصول اليه زعماء هذا المذهب لهذا العهد خبط عشواء لضلالهم عن طريقه المستقيم وغلوهم فيه غلو الجاهل بحوافيه اذفاتهم أن البداوة وسذاجة الفطرة أصل في قبول الخير والشر وأن الانسان اذا أفسدت الحضارة تحيريه وأخذ حب المدح بمجامع قلبه استحال تقويم أود نفسه وإرجاعه عن غلوائه والاقلال من أثرته وكبريائه والاخذ على أيدي قادته وزعمائه مالم يكن هؤلاء هم المربون لشعوبهم القائمون على تقويم أخلاق من دونهم لهذا كان زعماء الامة وخلفاؤها في صدر الاسلام قدوتها الصالحة في تربية تلك النفوس الساذجة على مبدأ حب العدل والمساواة ومشاطرة الخير والشر والكف عن الشهوات وعن حب الاثرة بالغنى والجاه والفخفخة الباطلة كما رأيت في قصة أبي عبيدة (رض) وبلغ بعمر بن الخطاب (رض) بغضه لداء حب الاثرة وكرهه لاكتنار البعض للمال دون البعض الآخر أن كان يحصي مال عماله قبل أن يسند اليهم الامارة لكي يناقشهم الحساب بعد ذلك عما يزيد عن مقناهم من المال ويصادرهم عليه ثم يرده على المسلمين وبلغ علي بن أبي طالب رضي الله عنه في خلافته أن عاملا من عماله أسرف في جمع المال ومال الى النعم وحاد عن سبيل القصد فكتب اليه كتابا طويلا مما جاء فيه قوله

أيها المعدود كان عندنا من ذوي الألباب كيف تسيغ شرابا وطعاما وأنت

تعلم انك تأكل وتشرب حراما وتبتاع الاماء وتنكح النساء من مال اليتامى والمساكين والمؤمنين والمجاهدين الذين أفاء الله عليهم هذه الاموال وأحرزبهم هذه البلاد . فاتق الله واردد الى هؤلاء القوم أموالهم فانك ان لم تفعل ثم امكنني الله منك لاعذرن الى الله فيك ولأضربنك بسيفي الذى ماضربت به أحداً الا دخل النار الخ

فأين هذا الخليفة فى مشربه القويم ومذهبه المستقيم فى تأديب العمال بأدب نفسه وحملهم على طريق القصد وعدم السرف فى أموال العباد ممن يربّي عماله على العكس من ذلك ويطلق يدهم فى أموال الناس بل ويحكّمهم فى رقاب الرعية ويدنى فاجرهم منه ويقصي عفيفهم عنه وكيف يقوم للقائلين بهذا المذهب الآن قائمة بين أقوام أمات شعورهم الاستغراق بالترف وقتلهم الجوع للشهوات ان هذا لا يتيسر الآن الا اذا صبغ أديم الارض بجمع الانسان وتبدّل الاشرار بالاخيار وذلك أمر بعيد

﴿ عود الى خبر أبي عبيد ﴾

رحل أبو عبيد من السقاطية وقدّم المثنى في تعبيته حتى قدم الحيرة وكان الجالينوس رجع الى رستم ومن أفلت من جنوده واستحثه على مقاتلة المسلمين ووجههم من حاذويه ورد الجالينوس معه فاقبل بهمن جاذويه ومعه راية كسرى (دِرفش كابيان) وكانت من جلود النمر (١) وأقبل أبو عبيد حتى نزل بالمرحة على

---

(١) هذه الراية قصة نجد مثلها فى أخبار الفرس وهي أن [illegible] ملك الفرس جار على رعيته وسار سيرة [illegible] حكومته فى أول [illegible] لم يطق [illegible] عليه ومن [illegible] حداداً كاملاً بين قومه عظيم في نفسه خرج من حانوته ورفع على عصا صولجانه الجلد الذى يرقعه احذية [illegible] ونادى فى الناس من لا يطيق صبراً على [illegible] عليه الناس فقاتلوا الملك و[illegible] و[illegible] [illegible] [illegible] بكمريه=

ضفة النهر المقابلة للضفة التي فيها معسكر الفرس وتسمى قس الناطف فبعث اليه بهمن جاذويه إمّا أن تعبروا الينا وندعكم والعبور وإمّا أن تدعونا نعبر اليكم فأشار عليه الناس بعدم العبور وكان من أشدهم إلحاحاً عليه بعدم العبور سليط بن قيس فأبى قبول اشارتهم وترك الرأى وقال لا يكونوا أجرأ على الموت منّا وعبر ومعه المسلمون وكان الفرس في عدة لم يرَ مثلها المسلمون

وهذا وان يكن اقدام من أبي عبيد رضي الله عنه وشمم وشجاعة لا يصدران عن غيره الاّ انه خطأ وقع فيه لامر يريده الله وكانت عاقبة هذا الخطأ أن قُتل أبو عبيد اذ هجم على فيل من الافيال وضربه فخبطه الفيل وكانت أسرعت السيوف في أهل فارس وأشرفوا على الهزيمة فلما خُبط أبو عبيد وقام عليه الفيل جال المسلمون جولة ثم انهزموا وركبهم الفرس فبادر رجل من ثقيف الى الجسر فقطعه قصد إرجاع المسلمين عن الهزيمة فانتهى الناس اليه والسيوف تأخذهم من خلفهم فتهافتوا في الفرات ولما رأى المثنى بن حارثة ذلك البطل الجليل هذا الحال بادر هو ونفر من الشجعان فحمى الناس حتى عقدوا الجسر وعبروهم ثم عبروا في آثارهم فأقاموا بالمروحة والمثنى جريح وهرب الناس على وجوههم وقتل سليط بن قيس الذي نصح أبا عبيد على عدم العبور وبقى المثنى في جمع قليل . ولما انتهى الخبر الى عمر بن الخطاب اشتد عليه الامر ولعله ان بعض الفارين آوى الى المدينة فخطب وقال عباد الله اللهم ان كل مسلم فى حلٍّ منى أنا فئة كل مسلم يرحم الله أبا عبيد لو كان عبر فاعتصم بالخيف أو تحيز الينا ولم يستقتل لكنا له فئة

واذ كان المسلمون يعلمون أن الفار من القتال آثم لقوله تعالى فى الكتاب

=فاتخذوها وكبها راية تخدد شعاً آلهم ثم جعلوه من جلود النمور وسموه درفش كابيان وكانوا لا يخرجونها الا حين الحاجة القصوى

الكريم (ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء
بغضب من الله) الآية فقد ندم المسلمون واستحيوا من الفرار وجزع المهاجرون
والانصار جزعا شديدا ولما رأى عمر رضي الله عنه جزعهم قال . لا تجزعوا يا معشر
المسلمين انا فئتكم انما انحزتم الي وبلغ الجزع بمعاذ القارئ احد بني النجار أن كان
اذا قرأ هذه الآية بكي فيقول له عمر . لا تبك يا معاذ انا فئتك وانما انحزت الي :
وذلك تخفيفا لروعه ودفعا لجزعه فرحم الله تلك النفوس الطاهرة ما أخوفها
من الله وأشدها تمسكا بالكتاب وأجزعها من الوقوع في الخطأ ورضي عن عمر بن
الخطاب ما أرحم قلبه وأعطف على المسلمين حنانه

كانت جنود الفرس عقب وقعة الجسر حاولت العبور الى الضفة الثانية
ومطاردة المسلمين ولكن من عناية الله بالمثنى ومن بقي معه من الجند القليل جاء
الفرس ما شغلهم عن العبور اذ وصلهم الخبر أن الناس بالمدائن قد ثاروا برستم
وانقسموا قسمين قسم معه وقسم مع الفيرزان فتمكن المثنى من جمع القبائل التي
حوله وأمده عمر (رض) بجرير بن عبد الله البجلي وقد كان قومه أوزاعا متفرقين
في قبائل العرب فجمعهم له عمر وأمره عليهم وبعث عصمة بن عبد الله من بني عبد
ابن الحارث الضبي فيمن تبعه من بني ضبة وكتب الى أهل الردة فلم يوافه منهم
أحد الا رمى به المثنى وكان ممن قدم على عمر رضي الله عنه بنو كنانة وطلبوا أن
يوجهوا الى الشام فقال لهم ذلك أمر قد كفيتموه عليكم بالعراق واستقبلوا جهاد
قوم قد حووا فنون العيش لعل الله أن يورثكم قسطكم من ذلك فتعيشوا مع من
عاش من الناس فقام غالب بن فلان الليثي وعرفجة البارقي وقال كل واحد منهما
لقومه يا عشيرتاه أجيبوا أمير المؤمنين الى ما يرى وامضوا له فأجابوا الى ذلك فدعا
لهم عمر بخير وأمر على بني كنانة غالب بن عبد الله وعلى الأزد عرفجة بن هرثمة

وسرحهم فخرج هذا فى قومه وهذا فى قومه حتى قدما على المثنى

وقدم على عمر (رض) هلال بن علّفة التيمى فيمن اجتمع اليه من الرباب فوجهه وقدم عليه المثنى الخثعمى جشم سعد فأمره على بنى سعد وسرحه وجاء اليه ربعى فى اناس من بنى حنظلة فأمره عليهم وخرجوا حتى قدم بهم على المثنى بن حارثة فرأس بعده ابنه شبث بن ربعي وقدم على عمر غير هؤلاء من زعماء العرب فوجههم الى المثنى

وكان الفرس لما أحسوا باجتماع العرب وبكثرة من جاء من النجدة للمثنى ابن حارثة جمعوا كلمتهم وجاء الفيرزان ورستم الى بوران وأخبراها انهما اتفقا على أن يرسلا الى قتال المسلمين مهران بجيش كثيف واستأذناها بذلك ثم بعثا مهران بجنده حتى نزل من دون الفرات والمثنى وجنده فى محل يدعى البويب على شاطئ الفرات لا حركات الجنود اليه مواصلة وجاءه أنس بن هلال النمري ممدا فى أناس من نصارى النمر وقدم عبدالله بن كليب التغلبى المعروف بمردى الفهر فى أناس من نصارى تغلب فلما رأوا نزول العرب بالعجم قالوا نقاتل مع قومنا وانضموا الى جند المسلمين ولله ما تفعل الجامعة القومية فى النفوس

لما اجتمعت جموع العرب والفرس بعث مهران الى المثنى إما أن تعبروا الينا وإما أن نعبر اليكم فقال المسلمون اعبروا الينا فعبروا اليهم وجاؤهم من قبل نهر بنى سليم فى صفوف ثلاثة ولهم ضوضاء وزجل فقال المثنى للمسلمين ان الذى تسمعون فشل فالزموا الصمت ثم تقدم اليهم المثنى وعلى مجنبتيه بشير وبسر بن أبى رهم وعلى مجردته المعنّى وعلى الرجل مسعود بن حارثة وعلى الطلائع النسير وعلى الردء مذعور وكان على مجنبتى مهران الآزاذبه مرزبان الحيرة ومردان شاه ثم

خرج المثنى يتعهد صفوف المسلمين ويحضضهم (١) ويأمرهم بأمره ويهزّهم بأحسن مافيهم تحضيضاً لهم ولكلهم يقول انى لأرجو أن لا تؤتى العرب اليوم من قبلكم والله مايسرني اليوم لنفسي شيء الا وهو يسرني لعامتكم فيجيبونه بمثل ذلك وأنصفهم المثنى فى القول والفعل وخلط الناس فى المكروه والمحبوب فلم يستطع أحد منهم أن يعيب له قولا ولا عملا لاسيما وانه كان على شرفه وعلو منزلته شجاعاً ميمون النقيبة فكان المسلمون يحبونه ويحبون بقيادته كما يحبون بقيادة خالد بن الوليد

ثم ان المثنى كبّر وكبر المسلمون وكان واعدهم بالهجوم عند رابع تكبيرة فعاجلهم الفرس من الأولى وخالطوهم والتحم القتال وجعل المثنى كلما رأى خللا فى صف من صفوفه يرسل لأهل الصف رجلا يقول ان الامير يقرأ كم السلام ويقول لا تفضحوا المسلمين اليوم فيقولون نعم ويعتدلون ولما طال القتال واشتد حمل المثنى وحمل معه انس بن هلال ومِرْدَى الفهر وقصد المثنى مهران فأزاله حتى دخل فى ميمنته واضطربت صفوف الاعاجم ولقى غلام نصرانى من تغلب مهران فقتله ثم استوى على فرسه وتضعضع الفرس فانهزموا وبادرهم المثنى الى الجسر فمنع مرورهم منه فهربوا مصعّدين ومصوّبين والسيوف تأخذهم من كل جانب وكان ذلك بحسن قيادة ذلك البطل الجليل المثنى بن حارثة لذي أظهر من البراعة والشجاعة فى هذه الوقعة ما يخلد له طيب الذكر الا أنه أظهر ومئذ ندمه على أخذه بالجسر وقال لقد عجزت عجزة وقى الله شرها بمسابقتى اياهم الى الجسر وقطعه حتى أحرجتهم فانى غير عائدا من لى مثل هذا الخطأ) لا تعودوا ولا تقتدوا بى ايها الناس فانها كانت منى زلة لا ينبغى حرج جند لا من

---

(١) حضضهم حضهم بالحث عليه أحثهم سابق كما في القاموس

لا يقوى على امتناع . هذا من حسن بصيرته وسديد رأيه وانابته للحق رضي الله عنه

ومات من أعلام المسلمين ممن كانوا احرحوا فى هذه الوقعة ناس منهم خالد ابن هلال ومسعود بن حارثة اخو المثنى فصلى عليهم المثنى وقال والله انه ليهوّن علي وجدى (أي اسعه وحزنه) أن شهدوا البويب . اقدموا وصبروا ولم يجزعوا ولم ينكلوا . وأن كان فى الشهادة كفارة لتجوُّز الدنوب

وكان اشد الناس بلاء فى هذه الحرب من شهدوا وقعة الجسر مع ابى عبيد لاستحيائهم من الفرار فى تلك الوقعة ولما انهزم الفرس فى البويب انتدب المثنى جرير بن عبد الله البجلى لعبور الفرات وتتبع الفارين فانتدب معه من شهد واقعة الجسر وغنموا اغنائم كثيره وعادوا

﴿ شجاعة النساء المسلمات ﴾

ذكر ابن جرير الطبرى ان المثنى وعصمة وجرير أصابوا فى أيام البويب غنما ودقيقاً وقراً فبعثوا بها الى عيالات من قدم من المدينة وقد خلفوهن بالقوادس والى عيالات أهل الايام قبلهم وهم بالحيرة وكان دليل الذين ذهبوا بنصيب العيالات الذين بالقوادس عمرو بن عبد المسيح بن قُتَيْلة فلما رُفعوا (أي طردوا) للنسوة ورأين الخيل تصايحن وحسبنها غارة فقمن دون الصبيان بالحجارة والعُمُد فقال عمرو انها جاءهن هكذا ينبغى لنساء هذا الجيش وبَشّروهن بالفتح وكان على الخيل التى اتتهم بالنُّزُل (الضيافة) النُّسير فأقام فى خيله حامية لهم

ولا حرم فلولم يكن لجيش المسلمين ثقة بشجاعة نسائهن وامكان دفعهن العدو والمفاجئ لما تركوهن فى الفلاة بلا حاميه وتقدموا لحرب الفرس وقد رأيت كيف كان النساء المسلمات فى اليرموك يقاتلن مع الرجال وكذلك قاتلن فى القادسية وكن يأخذن الجرحى من ميدان الحرب ويضمدن جراحهن ويمرضهن

ذكر الطبري في معرض كلامه على فتح ميسان ان المغيرة سار الى أهل ميسان وخلف الاثقال فلقي العدو دون دجلة فقالت أزدة بنت الحارث بن كلدة (طبيب العرب المشهور) لو لحقنا بالمسلمين فكنا معهم (أي عونا لهم) فاعتقدت لواء من خمارها واتخذ النساء من خمرهن رايات وخرجن يردن المسلمين فانتهين اليهم والمشركون يقاتلونهم فلما رأى المشركون الرايات مقبلة ظنوا ان مدداً أتى المسلمين فانهزموا وأتبعهم المسلمون فقتلوا منهم عدة وهذا العمل من النساء المسلمات لعمري غاية في الجراءة ونهاية في الاقدام وحق لمثلهن أن يدخلن في مصاف الرجال ويأتين بأعظم الاعمال وقد أطنب أدورد جون في تاريخ الامبراطورية الشرقية بشجاعة النساء المسلمات التي أظهرنها على حصار دمشق ومما قاله عنهن إن هؤلاء النساء اللاتي تعودن الضرب بالسيف والطعن بالرمح والرمي بالنبل هن اللاتي اذا وقعت احداهن في الاسر تكون قادرة على حفظ عفتها ودينها من أي انسان يريدهما بسوء

ولقد صدق فيما قال والا فما كان لرجالهن أن يدعوهن يخالطن الرجال في معامع الحرب والقتال ومن البديهي أن الحجاب لم يكن يمنع النساء المسلمات عن مخالطة الرجال في الحل والترحال ولكن كان لهن من الاخلاق الفطرية والعفة الاسلامية ما يغنيهن عن مثل الحجاب الثقيل الذي استدعه سكان المدن الاسلامية لما استغرقوا بالرفاه والترف وأفسدت أخلاقهم عوامل الحضارة فاذا كان لنسائنا الآن من العفة وسلامة الاخلاق وطهارة النفس وحسن التربية ما كان لتلك النساء في صدر الاسلام ساغ للقائلين بتخفيف الحجاب في هذا العصر أن يطلبوا ... ... من ... على العفة و... ويعطوهن حقوق الرجال والا فالكلام عبث لا يجدي والموقف حرج يخشى ... ...

وبصيرة والله أعلم بمصير الامور

﴿ عود الى خبر المثنى ﴾

لما فرغ المثنى من أمر البويب وتشتت جنود الفرس وعاد جرير بن عبد الله البجلي من غزاته فرق المثنى جنوده فى السواد وأخذ يستخضع البلاد الى عصت من قبل وكانت له وقائع كثيرة مع العرب ظفر بها المسلمون بما شاؤا من متاع ومال وبلغت غاراتهم شرقا الى قرب مدائن فارس وشمالا الى الجزيرة فأوقعوا الرعب فى قلوب الاعداء فقام الفرس لذلك وقعدوا

﴿ كلمة على دولة الفرس قبيل الفتح ﴾

ليس أضر على الامم وأشد خطراً على استقلال الممالك من تنازع السلطة وتهافت الناس على حب الرياسة وميل الزعماء الى الاستئثار بمصالح الملك اذا ضعف جانب المالك وتشعث بناء الدولة وقل ما انتهت الدول فى أواخر عهدها الى هذا الحال من تفرق الرأي وتغلب حب الذات والاستئثار بمصالح الملك ووضع رغبات الجمهور دون رغبات الافراد الا انتهى ذلك بزوال ملكها وتقلص ظل سلطانها وقد كانت دولة الفرس أصيبت فى أواخر عهدها بهذا الداء العضال والمرض القتال ولعله بدأبها على عهد كسرى ابرويز فى أواسط الجيل السادس بعد المسيح فقد ذكر المؤرخون ان كسرى هذا عسف الناس وشره الى أموال الرعية واستعمل رجلا على استخلاص بواقى الخراج فعسف الرعية وظلمهم ففرت قلوبهم منه وتحولت انظارهم عنه وكان قد بلغ به الامر ان أقصى أولاده الى بابل ومنعهم من التصرف فاغتنم عظماء المملكة ضعف سطوة كسرى وتفرق قلوب الرعية عنه فأحضروا من بابل ولده شيرويه وأزعموا والده على التنازل اليه عن الملك ثم أزعموا ابنه على قتله فقتله ولما صفا له الملك وشعر بتفرق أهواء زعماء

سلطنته وأحس بضعف نفسه أصابه وسواس أفضى الى ان أمر بقتل اخوته
وكانوا سبعة عشر أخاً ذوى مشورة وعلم وأدب وأنبه أختاه بوران وازرميدخت
على فعلته فندم وأصابه حزن وغم فمات دون السنة من ملكه فملك الفرس عليهم
ابنه اردشير وكان صغير السن وتكفل به أحد المتطلعين الى الرياسة من أرباب
الدوله واسمه بهادرجسنس فحسده قائد جنود الثغور وامتعض من عدم
استشارته في توليه اردشير فاتخذ ذلك ذريعة الى التعنت وبسط يد القوة وطمع
فى الملك فأقبل بجنده نحو المدائن عاصمة الاكاسرة فدخلها وقتل جماعة من
الرؤساء وقتل اردشير فتولى الملك بعده شهريرار وهو من غير بيت الملك ولم
يمكث فى الملك الا أربعين يوما وقتله أشياع اردشير فملكت بعده بوران ثم ملك
بعدها رجل اسمه جشنشبنده فانكر الجند سيرته فقتلوه ثم ملكت ازرميدخت
وخطبها والى خراسان فاحتالت عليه حتى قتلته فانتصر له ابنه رستم وجاء بجنده
الى المدائن فتمكن من ازرميدخت وسمل عينيها ثم قتلها وأقام مقامها بوران
فوقع الخلف بينه وبين الفيرزان أحد عظماء الدوله وتنازعا السلطة وتفشت
الفوضى فى الملك وظهر الخلل والضعف على الدوله ولما انتزع المسلمون منها
العراق ودحر المثنى جيوش الفرس وتحفز جند الاسلام للوثوب على عرش
الاكاسرة دب فى عامة الشعب الفارسى دبيب الشعور بحرج الموقف الذي
وقفت فيه دولتهم وأحسوا الخطر الذى جره عليهم أمراؤهم وقادتهم فهبوا من
سباتهم العميق فأملوا رجالهم وذوو الرأى منهم فى الفيرزان ورستم وقالوا لهما [illegible]
يبرح بكما الاختلاف حتى وهنتما أهل فارس وأطمعتما فيهم عدوهم وانه لم يبلغ من
خطركما أن نقركما فارس على هذا الرأى وأن تعرضاها للهلكة ما بعد بغداد وساباط
وتكريت الا المدائن والله لتجتمعان أو

لتبدان بكما قبل أن يشمت بنا شامت والله ما جرّ علينا هذا الوهن غيركم يا معاشر الرؤساء لقد فرقتم بين أهل فارس وثبطتموهم عن عدوهم ولولا أن في قتلكم هلاكنا لعجلنا لكم القتل الساعة ولئن لم تنتهوا لنهلكنكم ثم نهلك وقد اشتفينا منكم

لما سمع رستم والفيرزان ما سمعا من القوم تنبها من غفلتهما وخشيا هلاكهما فبحثا مع القوم عن رجل من آل كسرى يولونه الملك ويجمعون عليه كلمة الناس فوجدوا يزدجرد بن شهريار في اصطخر وقد كانت أمه غيبته هناك وهو طفل اشفاقاً عليه من القتل فجاؤا به وملكوه وهو ابن احدى وعشرين سنة الاّ انه كان ضعيف الرأي والقلب ومع هذا فقد أطاعه الناس ونبذ الرؤساء شهواتهم الخبيثة تفادياً من الخطر المحيق بالدولة فالتفوا حوله وأطاعوه وساروا في معونته فرتبوا المسالح والجنود وشحنوا الثغور بالمقاتلة وأعدوا العدة والعديد لقتال المسلمين

﴿ استمداد مثنى ﴾

(ومسير سعد بن أبي وقاص الى العراق)

لماّ بلغ المثنى بن حارثة اجتماع الفرس على يزدجرد وتجهزهم لحرب المسلمين كتب الى عمر (رض) وبياهو بانتطار الجواب كفر أهل السواد المهد ونقضوا ما بينهم وبين المسلمين بدسائس الفرس فخرج المثنى على حامية حتى نزل بذي قار حتى جاء المسلمين كتاب عمر وفيه . (أما بعد فاخرجوا من بين ظهري الاعاجم وتفرقوا في المياه التي تلي الاعاجم على حدود أرضكم وأرضهم ولا تدعوا في ربيعة أحداً ولا مصر ولا حلفائهم أحداً من أهل النجدات ولا فارساً الا أجلبتموه فان جاء طائعاً والاّ حشرتموه . احملوا العرب على الجدّ اذا جدّ العجم فلتلقوا جدّهم بجدّكم)

فلما وصل الكتاب اهتم المثنى بأمر عمر وأحسن الرأي الحربي والتدبير فنزل بذي قار وفرق الجند على خط واحد من الجال وشراف الى غضي(١) جبال البصرى فكانوا أفواه العراق من أولها الى آخرها مسالح(٢) بعضهم ينظر الى بعض ويثبت بعضهم بعضاً أي جعلهم أشبه بحصن واحد ممتد من جبال البصرة الى شراف والجل أي من أول العراق الى آخره وهو ترتيب بلغ الغاية من بعد النظر في فنون الحرب ونظام الجيوش وتنظيم خطوط الدفاع وأعاد الفرس كذلك مسالحهم وشحنوا الجنود ثغورهم وباتوا خائفين هائبين والمسلمون متحمسون وهم كالاسد ينازع فريسته

وأما عمر بن الخطاب فانه كتب الى عماله على العرب والكور يستحثهم على استنفار العرب وكل من له نجدة وبأس فمضت الرسل بالكتب ووافاه القبائل الى المدينة ممن كان طريقهم عليها ومن كان طريقهم على العراق انضموا الى المثنى وخرج عمر في أول المحرم سنة (١٤) فعسكر على ماء قرب المدينة يدعى صراراً والناس لا يعلمون بشيء مما يريد وكانوا اذا أرادوا أن يسئلوه شيئاً رموه بعثمان أو بعبد الرحمن بن عوف فاذا لم يقدر هذان على علم شيء مما يريدون ثنوا بالعباس فسأله عثمان عما يريد وعن عزمه فنادى الصلاة جامعة فاجتمع الناس اليه فأخبرهم الخبر ثم نظر مايقول الناس فقال العامة سِر وسِر بنا معك فقال استعدوا وأعدوا فاني سائر الا أن يجيء رأي هو أمثل من ذلك ثم بعث الى أهل الرأي فاجتمع اليه

---

(١) في معجم البلدان حلّ موضع بالبادية على جادة طريق القادسية الى زبالة بينه وبين القرعاء ستة عشر ميلا وهو بها وبين الرماس وشراف بين واقصة وقرعاء على ثمانية أميال من الاحساء وغضيّ تصغير الغضياء لعامر بن ربيعة وقيل جبال البصرة (٢) جماعة المسلحين وفي اصطلاح الحرب الآن النقط العسكرية أو خطوط الدفاع

وجوه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأعلام العرب فقال احضروني الرأي فاني سائر فاجتمعوا جميعاً وأجمع ملؤهم على أن يبعث رجلاً من الصحابة ويقيم ويمده بالجنود فان كان الذي يشتهي من الفتح فهو الذي يريد ويريدون والا أعاد رجلاً آخر وندب جنداً آخر حتى يجيء نصر الله

﴿ الحكم النيابي في الاسلام ﴾

علم عمر (رض) ان مكافحة الفرس بات أمراً حتمياً لا بد عنه وان القوة والرأي مناط الظفر بدوله هي أعظم دول الارض رهبة لذلك العهد فاذا تيسر هدم بنيانها ونزع سلطانها تمهد للمسلمين سبيل السيادة على الأمم ورفعت أعلام الاسلام على صروح الممالك والا كان الخطر على المسلمين عظيما والامر جللا لانهم اذهيجوا أمر فارس والروم واحفظوا الدولتين القيصرية والكسروية لهذا رأى من السداد أن لا يفوته رأي عامة المسلمين وخاصتهم فيمن يوليه أمر هذه الحرب فاستشار العامة فأشاروا عليه بالمسير بنفسه لانهم بأميرهم أرغب ولخليفتهم أطوع واستشار الخاصة فأشاروا عليه بتسليم القيادة لغيره وبقائه في المدينة لانهم بقيمة حياته أعرف وعلى وجوده بعيداً عن ساحات القتال أحرص وكان تخلف عن الجمع علي وطلحة رضي الله عنهما لان الأول استخلفه عمر على المدينة والثاني كان على مقدمة الجيش ورأى أن لا تفوتهما الشورى فاستدعاهما وجمع الناس جميعاً وقام فيهم خطيباً ولهم مستشيراً فقال

أما بعد ان الله عز وجل قد جمع على الاسلام أهله فألف بين القلوب وجعلهم فيه اخوانا والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منه شيء من شيء أصاب غيره وكذلك يحق على المسلمين ان يكونوا أمرهم شورى بينهم وبين ذوي الرأي منهم . فالناس تبع من قام بهذا الامر . ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم

الناس وكانوا فيه تبعاً لهم . ومن قام بهذا الامر تبع لأولي رأيهم ما رأوا لهم
ورضوا به لهم . يا أيها الناس اني انما كنت كرجل منكم حتى صرفني ذوو الرأي
منكم عن الخروج فقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلاً وقد أحضرت هذا الامر من
قدمت ومن خلفت) ويعني بمن خلف علياً وطلحة لانهما لم يحضرا لرأي الأول
كما ذكرنا

لعمرك أي ملك في العالم يبعثه الوجدان الطاهر أن يضع نفسه عن رضى
واختيار في موضع فرد من عامة رعيته ويقول كما قال عمر للمسلمين (من قام بهذا
الامر فانه تبع لذوي الرأي منهم) فجعل نفسه تبعاً لذوي الرأي وجعل المسلمين تبعاً
لهم فيما يرتأون تمحيصاً للحق والرأي وهذا هو الحكم النيابي الذي تقوم به سعادة
الأمم وترتفع شأن الدول ولم يتوصل اليه قوم الا بعد جهد وجهاد مع قادتهم
المستبدين وأمرائهم القاهرين وقد وضع أساسه الاسلام وبدأ به أبو بكر وعمر
رضي الله عنهما اخلاصاً لله وارشاداً للمسلمين لما ينفعهم في أمر دنياهم الا ان هذا
الحكم لم يدم لان العبرة باستمرار العمل والعمل لم يستمر لارتباطه بوجدان
الخلفاء واخلاصهم وعدم ارتباطه بالروابط القانونية والقيود المعروفة وتركه
يترقى بطبيعة ترقي الأمة وعلى مقتضى حاجة الزمن لهذا لم يستمر الا باستمرار
دولة الخلفاء الراشدين مع ان حالة القوم البدوية وميلهم الفطري للحرية يقتضيان
استمرار الحكم النيابي في الدول العربية ومما أرغم القوم على مجانبة الفطرة
البدوية انه قامت دولة بني مروان في وسط الممالك الاجنبية و[illegible]
الاعاجم من الفرس والروم ورأوا ملوكها تستبد بحكومة [illegible] في رعيتها
وسلطانها القاهر مدى [illegible] توحد [illegible] على حرية [illegible]
لا المحكوم [illegible]
[illegible]

والمكان فراق أولئك الخلفاء سلطان الحكم المطلق وغلبوا على أمرهم بحكم الوسط فتغلبوا على حكم الفطرة وانقادوا لميل النفوس الى التبسط فى السيادة حتى بلغ بعبد الملك بن مروان أن خطب يوما خطبة أشار فيها الى أن من زاحمه فى أمره فقد تعرض للقتل مع أن عصر بنى مروان هو العصر الذى كان يرجى به استثمار البذور الديموقراطية التى بذرها الخلفاء الراشدون لاستفحال شأن الاسلام يومئذ وتفرغ الناس الى النظر فى الشؤون الادارية بعد انتهاء كفاحهم فى الشؤون الحربية واشتغالهم بالفتح وما نحال الباعث للأمة العربية على الانقلاب لشهوات الملوك من بنى مروان الا ذلك المزيج الذى تألف منه جسم المجتمع الاسلامي يومئذ وأخصهم الموالى من النبط والفرس والروم الذين كان يسميهم معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه (حمراء) وينوقع منهم كثيرا من الشرور فى الحقيقة فقد غلبت يومئذ الأمة العربية على أمرها بتفرق عصبيتها وتشتت قبائلها فى فارس والروم والشام ومصر وافريقيا والاندلس فلم يغنهم ذلك الفتح عن استبداد خلفائهم الذين خلا لهم الجو وتفرق عنهم أنصار الحرية الذين كان يؤمل أن يتعهدوا ذلك النبات الطيب لانمائه فى عصر الحضارة الاسلامية واجتناء ثمراته الشهية فبسطوا يد القوة وتبسطوا فى الاستبداد ولو علموا أن الحكومة النيابية شرط فى بقاء الدول وسياج للممالك يقيه وثبات الدول الناشئة لما نزعوا منازع جبروت وهدموا ركن الشورى مطمح انظار الشعوب ومناط سعادة الناس الحرية والأمن ومتى كان هذا أساس الحكم فى دولة من الدول فقد حصل الناس على منتهى ما يرجون من تمهيد الدولة سائدة عليهم حاكمة فيهم وليس لهم من [illegible] ولا [illegible] حو[illegible]ادود عن حوضهم ودفاع

[illegible]

لو استمر بنو مروان سائرين على نهج الخلفاء الراشدين الواضح في حكم
الناس على أصول الشورى وعدم التسلط على حرية الضمائر والافكار إذن والله
لما وجد بنو العباس نصيراً لدعوتهم ولا راغباً في دولتهم وهل يلجئ الناس الى
الوثب على الملوك والخروج على الدول والرغبة عنها الى غيرها الا فساد الحكم
وإفساد قلوب الرعية بالتسلط الجائر والاستبداد القاهر

لعمرك لو أحسن بنو مروان السياسة والتمسوا وسائل سلامة الدولة
لجعلوا لأخلافهم تلك الحكومة الديموقراطية الساذجة التي وضعها لهم الخلفاء
الراشدون حكومة ثابتة الدعائم منتظمة الشؤون آخذة بأطراف الحاجة بربطها
بقوانين خاصة ترسخ عليها دعامتها وتقوم بها أصولها والطريق الى هذا كان سهلا
عليهم لو التمسوا اليه الحيلة باستقصاء أخبار مجاوريهم من الروم الذين قامت
لاسلافهم الرومان كثير من الحكومات النيابية كانت آثارها وأخبارها معروفة
لذلك الجيل من الروم محفوظة في مؤلفات القوم والذي أتاح لهم وللخلفاء
الراشدين قبلهم أخذ اللازم لقيام الدول من الاصول الادارية وغيرها عن الروم
والفرس (كوضع عمر (رض) للتاريخ ووضعه للدواوين على أصول الفرس
والروم واتخاذ معاوية الحجاب وضرب عبد الملك للنقود وغير ذلك من الامور
التي لم يكن لها أثر عند العرب) كان يتيح لهم ترتيب حكومة ثابتة على أصول
التجارب التي عاناها غيرهم من الأمم التي سبقتهم في الحضارة ولو خلصوا النية
ونظروا الى المستقبل بنظر الحكمة والروية ولو فعلوا لوضعوا للدول الاسلامية
أساساً ثابتاً في نوع الحكم لا يأتي لأية دولة [illegible] مية [illegible]
البتة لاسباب عديدة أهمها [illegible] كل شيء [illegible] وحصرهم على [illegible]
العمل أي أمر [illegible] وكان [illegible] لا يحيد

عنه أحد من المسلمين ولو نحر عظامهم فساد الحكم المطلق وأكل لحمهم الظلم
وذهب بسلطانهم التباعد عن الانتفاع بأصول الترقي عند الأمم الأخرى كما
انتفع الاوربيون من المسلمين فى كثير من أصول مدنيتهم السالفة أيام الحروب
الصليبية وقبلها وهذا بحث طويل نمسك عنه الآن على وعد العود اليه فى
محل آخر ان شاء الله

﴿ عود الى خبر الشورى ﴾

لما انتهى عمر من خطبته أشار عليه طلحة وعلي بما أشار عامة الناس ونهاه
العباس وعبد الرحمن بن عوف عن هذا الرأي وقال له الثاني أقم وابعث جنداً فقد
رأيت قضاء الله لك فى جنودك قبل وبعد فانه ان يهزم جيشك ليس كهزيمتك
وانك ان تقتل أو تهزم فى أنف الأمر خشيت أن لا يكبر المسلمون وان لا يشهدوا
أن لا إله الا الله أبداً

ونعم هذا الرأي والاخلاص من عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه اذ أن
المسلمين يومئذ كانوا أحوج الى حياة عمر والاسلام لم يمتد ويتأصل فى الجزيرة
والفتنة لم تركد فلو أصيب عمر بسوء لصدق ما قاله عبد الرحمن بن عوف لان هيبة
عمر وشخصيته وشدة أبي بكر قبله وروّيته مهدت لمن جاء بعدهما السبيل ومكنت
الاسلام والمسلمين السلطان فى الارض

بينا المسلمون فى المشورة وفى عمر كتاب سعد بن أبي وقاص وكان عامله
على صدقات هوازن يخبره من أهل النجدة لحرب الفرس وهم أهل فارس
فقال بعض المسلمين لعمر (رض) قد وجدته قال من قال الاسد عادياً قال من
هو قال سعد فانتهى الى قولهم وأرسل اليه وقدم عليه فأمّره على حرب العراق
و [illegible] لم يكن أهل [illegible] يرغبون فى الشام وكانت مصر ترع الى

العراق فقال عمر (أي لأهل اليمن) أرحامكم أرسخ من أرحامنا ما بال مُضَر لا تذكر أسلافها من أهل الشام

﴿ وصية عمر لسعد ﴾

لما أمّر عمر سعداً رضي الله عنهما أوصاه فقال

يا سعدُ سعدَ بني وهيب لا يغرّنك من الله أن قيل خال رسول الله وصاحب رسول الله فان الله عزّ وجلّ لا يمحو السيئ بالسيئ ولكنه يمحو السيئ بالحسن فان الله ليس بينه وبين أحد نسب الاّ طاعته فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة فانظر الامر الذى رأيت النبي صلى الله عليه وسلم منذ بعث الى أن فارقنا فالزمه فانه الامر . هذه عظتى إيّاك إن تركتها ورغبتَ عنها حبِطَ عملك وكنت من الخاسرين

ثم لمّا أراد أن يسرّحه دعاه فقال

انى قد ولّيتك حرب العراق فاحفظ وصيتى فانك تقدم على أمر شديد كريه لا يخلّص منه الاّ الحق . فعوّد نفسك ومن معك الخير واستفتح به واعلم انّ لكل عادةٍ عتاداً فعتاد الخير الصبر . فالصبر الصبرَ على ما أصابك أو نابك يجتمع لك خشية الله . واعلم أنّ خشية الله تجتمع فى أمرين فى طاعته واجتناب معصيته وانما أطاعه مَن أطاعه ببغض الدنيا وحبّ الآخرة وعصاه من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة . وللقلوب حقائق ينشئها الله إنشاء منها السر ومنها العلانية فأمّا العلانية فان يكون حامده وذامّه فى الحق سواء وأمّا السرّ فيعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه وبمحبة الناس فلا تزهد فى التحبب فان النبيين قد سألوا محبتهم وإنّ الله اذا أحبّ عبداً حبّبه واذا أبغض عبداً بغّضه .

واعتبر منزلتك عند الله تعالى بمنزلتك عند الناس ممن يشرع معك في أمرك

﴿ مسير سعد ﴾

خرج سعد ومعه أربعة آلاف مقاتل منهم ثلاثة آلاف من اليمن وألف من غيرهم وكان فيهم من السَّراة وزعماء العرب عدد وافر منهم حُمَيْضَةُ بن النعمان البارقي وشداد بن ضَمْضَم الحضرمي وعمرو بن معدي كَرِب على مَذْحِج ويزيد ابن الحارث الصُّدائي وبشر بن عبد الله الهلالي وشُرَحبيل بن السمط الكندي واضرابهم من صناديد العرب وقادتها

وشيعهم عمر رضي الله عنه الى الاعوص وهناك خطب فيهم خطبة أمرهم فيها بالعدل والرحمة واللين وان ينهوا شؤونهم اليه ولا يؤخروا شيئاً من الشكوى عنه وستأتي الخطبة في باب خطبه ان شاء الله

سار سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بمن اجتمع لديه من الجنود حتى نزل زرود من أرض العرب مما يلي العراق وأمده عمر بأربعة آلاف مقاتل ووافاه الأشعث بن قيس في ألف وسبعمائة فكان عدد جيشه الذي شهد القادسية نحو ثلاثين ألفاً بمن انضم اليه من جند العراق الذين كانوا مع المثنى ولما رحل سعد عن زرود كتب اليه عمر (رض) أن ابعث لي [illegible] (1) رجلاً ترضاه يكون عيناً له ويكون ردءاً لك من شيء يأتيك من تلك التخوم فبعث المغيرة بن شعبة في خمسمائة فكان طليعة لأنه من أرض العرب ونزل على جرير وهو مرابط هناك يومئذ ونزل سعد شراف وكتب بنزوله الى عمر بن الخطاب (رض)

---

(١) [illegible] هي [illegible] كانت ثغر العراق يومئذ [illegible]
[illegible]

فكتب اليه عمر: اذا جاءك كتابي هذا فمشّر الناس وعرّف عليهم [1] وأمّر على أجنادهم وعبّهم ومُر رؤساء المسلمين فليشهدوا وقدّرهم وهم شهود ثم وجّههم الى أصحابهم وواعدهم القادسية واضمم اليك المغيرة بن شعبة في خيله واكتب اليّ بالذي يستقر عليه أمرهم

فبعث سعد الى رؤساء القبائل فأتوه فقدّر الناس وعبّاهم تعبية تشبه بسائر ترتيبها تعبية الجيوش في هذا العصر وسأتي على تفصيل الخبر عن هذه في غير هذا المحل ان شاء الله ورضي الله عن عمر بن الخطاب ما كان أعلمه بفنون الحرب وأشدّه احتياطاً على المسلمين وأبعده نظراً في أمور الفتح فانه ما كان يأمر أميراً بحركة ما لم يأخذ لها العدة ويسد الفروج ويستوثق من معرفة أحوال البلاد وقوّة العدوّ ومبلغ كفاءة القواد والجنود

لما أعدّ سعد لكل شيء عدته وفرغ من تعبية جيشه كتب بذلك الى عمر وجاءه في غضون ذلك المثنّى بن حارثة أخو المثنى وزوجته حفصة التيمية بوفاة المثنى ووصيته لسعد ومؤداها أن لا يقاتل سعد عدوّه من أهل فارس اذا اجتمع أمرهم وملؤهم في عقر دارهم وان يقاتلهم على حدود أرضهم مما يلي أرض العرب ولمّا انتهى الى سعد رأى المثنّى ووصيته ترحّم عليه وأمّر أخاه المعنى على عمله وأوصى بأهل بيته وخطب امرأته وتزوجها

وكانت وفاة المثنى على أثر انتقاض جراحة كانت أصابته في وقعة جسر الناصية واستخلف على جيشه بشير بن الخصاصية وقد كان رضي الله عنه على جانب من الشجاعة والاقدام والنظر البعيد في شؤون الحرب لا [illegible] بن الوليد وكان ممن وفد على أبي بكر في [illegible] وزعيم [illegible] فارس حتى

---

(١) قال في القاموس [illegible]

ولاه قتالهم ثم ولى خالداً فقاتل تحت رايته ثم لما سافر خالد الى الشام وبقي المثنى أميراً على ما فتحه وخالد من أرض العراق دفعه الاقدام على أن يتوسع في الفتح ويرمي بسهم المسلمين مملكة الأكاسرة ويدوخ ذلك الملك العريض فوفد على أبي بكر في حال مرضه فلم يسعه اجابة سؤله وأوصى به عمر وأشار عليه بأن يرسل معه الجنود الى فتح بلاد فارس فبعث معه أبا عبيد فكان منه ما كان من الانفراد بالرأي والوقوع في التهلكة ومازال المثنى بعده يقاتل الفرس ويستخضع الخارجين من أهل العراق ويسعى بتثبيت دعائم الاسلام ثمة حتى وافاه سعد فوافته منيته قبل أن يراه ويحقق أمله في تدويخ بلاد الفرس فخسر المسلمون بوفاته شهماً مقداماً وقائداً عظيماً بلغ من إخلاصه ونصيحته وعلمه بفنون الحرب أن أوصى سعداً قبل وفاته بوصية وافقت رأي الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فجاء كتابه الى سعد يوصيه به بمثال وصية المثنى

وأما نسبه فهو المثنى بن حارثة بن سلمة بن ضمضم بن سعد بن مرة بن ذهل ابن شيبان بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل الربعي الشيباني وكانت منازل قومه في العراق ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم سنة تسع مع وفد قومه فرضي الله عنه وأرضاه

فنظر سعد جوف كتابه الذي بعث به الى عمر فجاءه الجواب يوصيه فيه أن لا يقاتل الفرس إلا في أطراف بلاد العراق مما يلي البادية وأن يلاقيهم في القادسية ويوصي جميعه بالأمانة والصبر والثبات وأن يحتاط لخديعة الفرس ومكرهم وستأتي صورة ما كتب في كتبه إن شاء الله

فرتب سعد [illegible] وكتب للجهات فوافاه كتاب عمر رضي الله عنه يوصيه [illegible] البلاد ويمشي الى [illegible] الفرس في ميادين

القتال وعن مبلغ قوة العدو وعن منازل المسلمين ومعسكراتهم ذلك لكي يكون على بصيرة فيما يأمره به من الشؤون الحربية في تلك الأصقاع النائية عنه ثم جاءه منه كتاب ثالث يأمره فيه بالتوقف ثم كتاب رابع يوصيه فيه بالوفاء بالعهد والذمة وبأن يفي بأمان من يؤمَّن من الاعاجم ولو بالاشارة اذا لم يفهموا وطنها أماناً وستأتي هذه الكتب في بابها الا هذا الكتاب فانّا رأينا أن نأتي به هنا لضرورة إيراده وهو بنصه (عن تاريخ الطبري)

إني قد ألقي في روعي انكم اذا لقيتم العدو هزمتموهم فاطرحوا الشك وآثروا التقية عليه فان لاعب أحدكم أحداً من العجم بأمان أو قرفه (١) باشارة أو بلسان كان لا يدري الاعجمي ما كلمه به وكان عندهم أماناً فاجروا ذلك له مجرى الامان واياكم والضحك . والوفاء الوفاء فان الخطأ بالوفاء بقية وان الخطأ بالغدر هلكة وفيها وهنكم وقوة عدوكم وذهاب ريحكم واقبال ريحهم واعلموا اني أحذركم أن تكونوا (أي بعدم الوفاء) شيناً على المسلمين وسبباً لتوهينهم اهـ

﴿ كلمة في التاريخ الاسلامي ورأفة عمر بالمحاربين ﴾

هذا الكتاب يدلنا على أمرين الامر الاول ان الرأفة في الحروب ورفع السيف عن المغلوب ليست من خصائص المدنية الحديثة في هذا العصر وحده بل هي من خصائص الدين الاسلامي أيضاً وقد سبق بها العرب على يد [illegible] سبقاً بعيداً لا تسبق [illegible] الامم وحسبك من ذلك [illegible] شرط الاستئمان في الحروب [illegible] لامم [illegible] الراية البيضاء وكان شرطه عند المسلمين [illegible] من ذلك [illegible]

---

(١) [illegible]
واترف [illegible]

نشأت عن هزل أو سوء تفاهم كانت تحتم على المسلم اجراءها مجرى الامان

والامر الثاني ان ما يتخرص به بعض المؤرخين من الغربيين وما يذكرونه من المثالب الشائنة عن الفتح الاسلامى منشؤه اما الغيظ والضغينة واما سوء الفهم المتأتى عن تشويش التاريخ الاسلامى وإلقاء المؤرخين من المسلمين الكلام على عواهنه وخلطهم غثه بسمينه بحيث يصعب الوقوف على مجرى الشؤون الحربية والسياسية يومئذ وتفريق الحق من الباطل ومعرفة النافع من الضار إلا لمن يدقق النظر ويستقصي حوادث التاريخ استقصاء الناقد البصير وما ذلك الا لتجنب مؤرخي الاسلام فلسفة التاريخ واكتفاء أكثرهم بالتافه من الحوادث وتوسعهم فى أخبار الحروب الاسلامية دون الدرائع العلمية التى ترقى بها الامة فى الشؤون الاجتماعية والعمرانية والسياسية حتى أن المدنية الاسلامية التى صبغت شهرتها الآفاق كادت تكون مع قرب عهدها وبقاء آثارها وآثار أهلها الى الان أشبه فى الغموض بمدنية الامم البائدة التي ينقب الباحثون فى تاريخها عن دفائنها الارضية وآثارها العافية ليهتدوا على تاريخها الغابر بل لغ لغموض تاريخها وعدم صرف مؤرخينا عن حاجات التاريخ ان أحدنا لو أراد أن يعلم كيف كانت حالة قومه الاجتماعية منذ قرن مضى لا يجد الى ذلك [illegible] قرب عهده من العصور فكيف بالقديم والا فأين هو لمن رأيك [illegible] الذي يعصل أخبار السلف التى تتعلق بمدنيتهم الغابرة وأصول معيشتهم و[illegible] وعوائدهم و[illegible] وأصول حكومتهم المتعلقة بالادارة والقضاء [illegible] وحقيقة أصول التعليم والمدارس والمصانع وغير ذلك مما يتعلق [illegible] الامة و[illegible] التى دهشت أهل المغرب أيام الحروب [illegible] فى [illegible] والقيام على شؤون

الادارة والحرب ما لم يخطر لهم في بال

اللهم انا لا نرى في التواريخ الاسلامية خبراً من هذا القبيل الا بطريق العرض مستوراً في ثنايا الاخبار وربما ألم بعض المؤرخين بشيء من ذلك كالخطيب في تاريخ بغداد والمسعودي في تاريخه الكبير الا اننا لسوء الحظ لم نر من هذه التواريخ الا شذرات منقوله في تضاعيف الكتب والاصل مفقود العين الا أجزاء من تاريخ الخطيب متفرقة في بعض المكاتب لا تشفي العليل

فاذا كان هذا شأن التاريخ الاسلامي في عصور الترقي والحضارة وذلك شأن المؤرخين في اغفال تدوين المهم من أخبار التاريخ وتبسطهم في سرد أخبار الحروب فلا جرم ان يظن الجاهل والعدو أن الامة الاسلامية انما وجدت لازعاج العالم بالحرب والقتال وان تتشوش الحقائق المندمجة في أخبار الفتح فيصعب وقوف الناس على مجرى السياسة والحرب يومئذ ومبلغ نظامهما في عصر الخلفاء الراشدين وأخصهم عمر بن الخطاب (رض) الذي يشهد ذلك القليل الذي وصلنا من اخبار سياسته انه وضع للحرب والسياسة أصولا بلغت الغاية من الرأفة والعدل لو استقصيت ودونت في كتاب على حدة وعمل بها خلفاء والسلاطين في كل عصر وأضافوا اليها ما تمس اليه الحاجة المتبعة لترقي الدول والزمان لم يجد الاعداء سبيلا للقدح في الفتح الاسلامي ولو كان وعى المؤرخون أيضا تذكر وتدوين الوسائط المدنية في عصور الترقي الاسلامية لكانت لهذه المهمة ولا تسنح عليه الامة ومن يحرك فيه [illegible] لاسترجاع ما فات والتوثق من [illegible]

[illegible]

لما انتهى سعد [illegible]

القادسية(١) وجاء على أثرهم سعد بعد أن ترك خيلا وجنداً تحوط الحريم فلم يجد في القادسية جنداً من الفرس فأخذت السرايا للغارة والارهاب ووقف مكانه موقف المدافع تبعاً لاشارة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) وبعث عيونه الى الحيرة وغيرها ليأتوه بالخبر فعادوا فأخبروه أن كسرى قد ولى رستم بن الفرخزاد الارمني حربه وأمره بالعسكرة فكتب بذلك الى عمر (رض) فكتب اليه عمر

أما بعد لا يكربنك ما يأتيك عنهم ولا ما يأتونك به واستعن بالله وتوكل عليه وابعث اليه رجالا من أهل النظر والرأي والجلد يدعونه فان الله جاعل دعاءهم توهيناً لهم وفلجاً(٢) عليهم واكتب الي في كل يوم

وأما رستم فانه جاء حتى عسكر بساباط بين المدائن والقادسية بمائة الف مقاتل أو يزيدون كما في رواية البعض وتقدم سعد الى نفر من قادة المسلمين ذوي منظر وآراء وعليهم مهابة فبعثهم الى يزدجرد يدعونه الى الاسلام أو الجزية وهم النعمان ابن مقرن وبسر بن أبي رهم وحملة بن جوية الكناني وحنظلة بن الربيع التميمي وفرات بن حيان العجلي وعدي بن سهيل والمغيرة بن زرارة بن النباش وعطارد ابن حاجب والاشعث بن قيس والحارث بن حسان وعاصم بن عمرو وعمرو بن معدي كرب والمغيرة بن شعبة والمثنى بن حارثة فخرجوا من العسكر حتى قدموا المدائن دعاة ليزدجرد فطووا رستم حتى انتهوا الى باب يزدجرد فخسوا ارثما جمع

---

(١) القادسية على حافة البادية وحافة سواد العراق لهذا اختارها الخليفة عمر لمقام جيش سعد لقربها من البادية وعدم اقدام الفرس على التوغل فيها فيما لو تقهقر أمامهم جيش المسلمين

(٢) قال في القاموس الفلج الظفر والفوز

يزدجرد وجوه دولته واستشارهم فيما يجيبهم به فلما اجتمع رأيهم أذن لهم فدخلوا عليه وجرى بينه وبينهم كلام طويل ستراه في سيرة سعد بن وقاص (رض)

ولما لم يجب يزدجرد طلب المسلمين أرسل سعد المغيرة بن شعبة الى رستم وكان رجلاً داهية ذا بصيرة ورأي الا أنه أبى أن يجيب الى الاسلام أو الجزية تبعاً لرأي قومه ومشورتهم فأعلن الحرب على المسلمين وكانت بينه وبين المسلمين الى أن قتل حروب شديدة انتهت بفل جموع الفرس في القادسية وتقدم جيش المسلمين الى عاصمة الاكاسرة كما سترى تفصيل الخبر في سيرة سعد بن وقاص ان شاء الله وكان مقام المسلمين في القادسية منذ وصلوا الى ان ظفروا اشهرين

لما فرغ سعد من حرب القادسية أقام فيها بعد الفتح شهرين وكتب الى عمر فيما يفعل فكتب اليه عمر يأمره بالمسير الى المدائن فسار الى المدائن لأيام بقين من شوال سنة (١٥) وقيل (١٦) والتقى بجيش للفرس في مكان يدعى برس فهزمه فانضم الى فالة القادسية في بابل فأرسل اليهم زهرة بن الحوية فقاتلهم وهزمهم ثم سار سعد الى المدائن وهي بهرسير[1] ودخلها بعد حصار شهرين وهرب منها كسرى الى حلوان فغنم المسلمون من دخائر كسرى وأموال الفرس في المدائن مالا يعد ثم دعا سعد الدهاقين الى الاسلام أو الجزية ولهم الذمة فلم يبق غربي دجلة الى أرض العرب سوادي الا آمن واغتبط بملك الاسلام ثم بعد ان ملك المسلمون ايوان كسرى جعلوه مسجداً وأن سعداً ليصلي فيه بالناس والتماثيل من الجص قائمة فيه ثم أرسل سعد جيشاً من المسلمين بقيادة ابن أخيه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص الى حلوان وماسبذان فافتتحهما وفر كسرى من حلوان الى الري وقيل

---

(١) المدائن هي عاصمة الاكاسرة وموقعها على دجلة على مرحلة من جنوب الغربي من بغداد وتسمى قديماً طيسيفون ويسميها الافرنج اكطزيفون

الى اصفهان وكان ذلك سنة (١٦) وأقام سعد فى المدائن الى سنة (١٧) وفتحت جيوشه فى غضونها تكريت والموصل ثم تحوّل الى الكوفة بعد ان اختطها بأمر عمر بن الخطاب (رض) كما سيأتي ذكره فى محله ان شاء الله

﴿ مسح سواد العراق وترتيب الجزية والخراج ﴾

(كيف يكون الاستعمار)

انّ من الاصول السديدة فى الفتح والاستعمار أن يؤسس على مبدأ حفظ الثروة المحلية لاهلها لتكون هذه الثروة مادة يتمتع منها الفاتح وأصلاً تنمو بنمائه ثروة الدولة وتدوم بدوامه مادة العمران وكلما تبسّط أهل المملكة فى العمران وجد المستعمرون وسائل الكسب عندهم مالم يجده فيما لو نضب مَعِين ثروتهم وانكمشت عن العمل أيديهم وقلّ ان تراعى الدول الفاتحة هذا الاصل السديد والمرمى البعيد فى الممالك المفتتحة بل معظم الفاتحين الى هذا العهد يعتبرون البلاد التى أخذت عنوة ملكاً حلالاً لهم يجوز انتزاع الثروة من أهلها بطرق الاكراه التدريجية لتستأثر بها أهل ملتهم ويستمتع منها واطنهم على زعمهم ولم نعهد في هذا العصر دولة من الدول المتمدنة الاوربية تراعى حفظ الاصل فى الثروة لأهله فى المستعمرات الافريقية والاسيوية الا دولة انكلترا فربما كانت أحسن الدول قياماً على ذلك الأصل في مستعمراتها الكثيرة الشاسعة وأخفهن وطأة على الرعية مع ان دعوى التمدن العريضة تستدعي الرأفة والعناية بسكان المستعمرات من سائر الدول الاوربية وتستلزم مراعاة الاصول الاقتصادية في حكم البلاد المفتتحة كما هي مرعية في بلاد الاوربية وهيهات هيهات فان غلبة الشهوات تعمي عن [illegible] في ديار المدنية واين جهلة [illegible] الذين يرمون الفتح الاسلامي واهله بوصمة التحرب [illegible]

والتدمير ويسمونهم بسمات البداوة يبحثون فى التاريخ الاسلامي عن أصول الاستعمار والفتح عند العرب ويتعلمون منهم ما يفيدون به دولهم المتمدنة في وضع أساس العدالة وحفظ اصول الثروة لأهلها فى الممالك المفتتحة

إن مبدأ الفتح الاسلامي الذي يسم جهلة الامرنج اهله بالبداوة والتخريب إنما كان في عهد عمر بن الخطاب الخليفة الثاني للمسلمين الذي قهرت جيوشه دولتي الفرس والروم ورفعت اعلام دولته على اخصب ممالك الارض لعهده فكان من جميل سياسته في هذه الممالك وعظيم عدله فى الرعية أن حفظ على الاهلين مادة ثروتهم وكف يد المسلمين عن انتزاع ارضهم وراعى في ترتيب الجزية والخراج ثروة الافراد وخصب الارض وجدبها ونوع النبات والشجر المستنبت فيها وكان شديد الحرص على استبقاء الفلاحين يعتملون في ارضهم لا يرضى بمزاحمة المسلمين لهم ولا انتزاع ارضهم منهم ومن ذلك ما رواه في آثار الاول وترتيب الدول عن عبد الله بن هبيرة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه امر مناديه ان يخرج الى امراء الاجناد يتقدمون الى الرعية بأن عطاءهم قائم ورزق عيالهم سائل فلا يزرعون ولا يزارعون

وعن شريك بن عبد الرحمن ان شريك بن سمي الغطيفي أتى إلى عمرو ابن العاص فقال انكم لا تعطونا ما يحسبنا (يكفينا) أفتأذن لي بالزرع فقال له عمرو ما أقدر على ذلك فزرع شريك من غير اذن عمرو فلما بلغ ذلك عمرو كتب الى عمر بن الخطاب يخبره ان شريك بن سمي الغطيفي زرع بأرض مصر فكتب اليه عمر بن الخطاب أن ابعث الي به [illegible] حتى [illegible] عمرو [illegible] عمرو [illegible] شريكا فقال شريك لعمرو [illegible] عمرو [illegible] صنعت هذه بنفسك [illegible] ذكر [illegible] شريك [illegible] كتب [illegible]

الله ان أجمل يدي في يده (يعني انه لا يهرب) فأذن له بالخروج فلما وقف على عمر قال : تؤمنّي يا أمير المؤمنين : قال ومن أي الاجناد أنت : قال من جند مصر : قال فلعلك شريك بن سمي: قال نعم يا أمير المؤمنين قال لاجعلنك نكالاً لمن خلفك . قال أو تقبل مني ما قبل الله من العباد : قال او تفعل . قال نعم فكتب الى عمرو أنّ شريكا جاءني تائباً فقبلت منه

وأخرج في فتوح البلدان عن ابراهيم التيمي قال لمّا افتتح عمر السواد (يعني سواد العراق) قالوا له اقسمه بيننا فانا افتتحناه عنوة بسيوفنا فأبى وقال فما لمن جاء بعدكم من المسلمين وأخاف أن قسمته إن تتفاسدوا بينكم في المياه قال فاقرّ أهل السواد في أرضهم وضرب على رؤسهم الجزية وعلى أرضهم الطسق (الخراج) ولم يقسم بينهم

وأخرج عن يزيد بن حبيب قال . كتب عمر بن الخطاب الى سعد بن أبي وقاص حين فتح السواد (أما بعد) فقد بلغني كتابك تذكر ان الناس سألوك ان تقسم بينهم ما أفاء الله عليهم فاذا أتاك كتابي فانظر ما أجلب عليه أهل العسكر بخيلهم وركابهم من مال او كراع فاقسمه بينهم بعد الخمس واترك الارض والانهار لعمالها ليكون ذلك في اعطيات المسلمين فانك إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن يبقى بعدهم شيء وفي كتاب الخراج لابي يوسف بحث طويل بهذا الصدد فليرجع اليه

ولعل من حرص عمر رضي الله عنه على حقوق أهل العراق وحفظ أرضهم من التعدي ان خرث بن كلدة طلب من عمر أرضاً يعتلي بها خيله فكتب الى أبي موسى الاشعري ان أعط عبد الله ابن أبي بكرة أرضاً على شاطئ دجلة يعتلي فيها خيله فان

---

(١) في ... عن الرضاع او قطعه ...

كانت في غير أرض الجزية ولا يجزأ اليهما الجزية فاعطه اياها وقيل بل كتب بذلك الى المغيرة بن شعبة في ولايته كتابا غير هذا وهو بمعناه كما تراه في محله ان شاء الله وهذا وأيم الله من الاغراق في العدل وحقه ان يكون شرعة حق يسلكها في هذا العصر دول الاستعمار مع المسلمين وهيهات هيهات: وأما كيفية ترتيب عمر للجزية والخراج في العراق فهو انه لما أزال عن العراق ملك الفرس وتوطدت دعائم الاسلام وانبسط عليه عدل عمر بن الخطاب رأى ورأيه العدل ان ينظم شؤونه الادارية ويرتب فيه الوصائع على نحو ترتيب كسرى أنوشروان الا انه حوفا من احجاف العراقيين أو تظلمهم رأى ان تمسح أرض السواد وتقرر أجزاء بنسبة الخصب وما يحمله كل جزء من الشجر وان يحصى السكان فتضرب عليهم الجزية على نسبة حال الافراد من الغنى والفقر فبعث عثمان بن حنيف الانصاري الى العراق العربي وحذيفة بن اليمان الى العراق العجمي فمسحا الارض ووضعا عليها الخراج بنسبة حالها وما يزرعها فحملا على جريب (١) النخل عشرة دراهم وعلى جريب الكرم عشرة دراهم وعلى جريب القصب ستة دراهم وعلى جريب البر أربعة دراهم وعلى جريب الشعير درهمين وكتبا بذلك الى عمر فأجازه وفي رواية لابي يوسف انه حمل على جريب النخيل ثمانية دراهم

وأخرج ابو يوسف والبلاذري عن الشعبي ان عثمان ابن حنيف لما مسح السواد وجده ستة وثلاثين ألف ألف جريب (أي ستة وثلاثين مليوناً) وفي رواية انه استثنى النخيل وفي رواية ان عمر الغى النخل في ولاية المغيرة بن شعبة على العراق

---

(١) في قاموس [illegible]
في تاريخه [illegible] المسلمين [illegible]
عرضاً في وهو [illegible] جريب [illegible]

والظاهر انه أراد باستثناء النخل من الخراج تسهيل تجارته واصداره الى البلاد لانه مادة التجارة فى العراق .

وبلغ خراج العراق فى ولاية عثمان بن حنيف مائة ألف ألف درهم (أي مائة مليون درهم) وذلك عدا الصوافى التي اصطفاها عمر لبيت المال وكانت لآل كسرى أولمن هرب وترك أرضه وبلغ خراجها سبعة آلاف ألف درهم (أي سبعة ملايين) واقطعت هذه الصوافى بعد ذلك للصحابة

وأما الجزية فقد أحصى عثمان بن حنيف من تجب عليه من سكان السواد فبلغوا خمسمائة وخمسين ألف شخصاً جعلها على ثلاث مراتب ثمانية وأربعين وأربعة وعشرين واثنى عشر وذلك بنسبة حال الافراد فاذا اعتبرنا فى هذا العدد متوسط الجزية الذى هو أربعة وعشرين درهما فيكون مجموع الجزية ثلاثة عشر مليونا ومائتي ألف درهم اذا أضيفت الى مبلغ الخراج بما فيه خراج الصوافى فيكون مجموع الجباية فى العراق على عهد عمر بن الخطاب (رض) مائة وعشرين مليوناً درهماً ونيف ألف درهم [1] كانت تنفق فى اعطيات الجند وارزاق المسلمين مما عدا الخمس فانه يرسل الى المدينة وينفق ما يلزم من الجباية لاصلاح الجسور وحفر الانهر ومن الانهر التى حفرها عمر فى العراق النهر المعروف بنهر معقل قرب البصرة ونهر سعد بن عمرو بن حرم قرب الانبار وغيرهما

وأخرج الامام أبو الفرج بن الجوزي فى مناقب عمر عن عمر بن ميمون

(1) وفي مناقب عمر [illegible] لابن الجوزي أن جباية العراق العربي [illegible] مائة وعشرين مليوناً [illegible] ابن الجوزي [illegible] السعري فقد كان ثمانية [illegible]

قال : رأيت عمر بن الخطاب قبل أن يصاب بالمدينة وقف على حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف فقال كيف فعلتما (يعني بالعراق) أخاف أن تكونا حملتما الارض ما لا تطيق قالا لا فقال عمر لئن سلمني الله لأدعن أرامل أهل العراق لا يحتجن الى أحد بعدي أبداً فما أتت عليه الاربعة الا أصيب وروى أبو يوسف فى الخراج ان عمر كان يجبي الخراج ثم يخرج كل سنة عشرة من أهل الكوفة وعشرة من أهل البصرة يشهدون أربع شهادات بالله انه من طيب ما فيه ظلم مسلم ولا معاهد وهل بعد هذا العدل عدل يؤثر عن الملوك والخلفاء ويذكر عن الدول لا والله . هكذا كان ما يسمونه الاستعمار الآن على عهد عمر بن الخطاب ذا تأسس على قاعدة حفظ الثروة لمحليه لاهلها لتكون مادة ينتفع بها الفاتح واصلا تنمو به ثروة الدولة وانما اخذ عمر (رض) هذه القاعدة من القرآن الكريم الذي هو اول كتاب الهي قرر هذه القاعدة وذلك ان عمر لما ألح عليه بعضهم بقسمة الارضين فى العراق والشام أي الاراضي التي بأيديهم وانتفاع المسلمين بخراجها فقط وقال كيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الارض قد حيزت وقسمت ما هذا برأي وجمع الناس للشورى واحتج على من رأى قسمة الارضين بكتاب الكريم كما ترى ذلك مبسوطاً فى كتاب خراج لأبي يوسف وقال ان قد وجدت حجة لله تعالى في كتابه وتلى الآيات التي نصت على الفيء وقسمته وعلى مستحقيه من المسلمين وهي (ما أفاء الله على رسوله) [illegible]

والمساكين وابن السبيل والمهاجرين [illegible]

[illegible]

تقسيمه لولاة (يعني الفاتحين) وتبع من تخلف من بعدهم بغير قسم فاجمع على تركه وجمع خراجه ووافقه على ذلك الخالفون وتم الامر ان تبقى الارضين بيد اهلها لتكون مادة يستخدمها اهلها والفاتحون مادة الحياة وهذا هو قانون الاستعمار العادل واساسه المتين

لما تمهد أمر العراق لعمر بن الخطاب (رض) بعث عتبة بن غزوان واليا على البصرة وولى سعد بن أبي وقاص الصلاة وامارة الحرب العامة على كل ما غلب عليه من البلاد وجعل مقره الكوفة ولما عزله ولى عمار بن ياسر ثم المغيرة بن شعبة ثم أبا موسى الاشعري ثم عمر بن سراقة وغيرهم وولى على الخراج النعمان بن مقرن على ماسقت دجلة وسويدا أخاه على ماسقى الفرات ثم ولى عملهما حذيفة بن أسيد وجابر بن عمرو ثم حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف وهما اللذان مسحا العراق كما تقدم

(عود الى خبر الفتح)

غزوة فارس من البحرين

كان العلاء بن الحضرمي أحد أبطال حروب الردة عاملا لعمر على البحرين وهي من بلاد العرب مما يلي خليج فارس وكان يباري سعد بن أبي وقاص لصدع صدعه القضاء بينهما وطار عليه بالفضل في أيام حروبه في الردة فلما ظفر سعد بالفرس ودوخ عاصمة ملكهم واستولى وجاء بأعظم مما جاء به العلاء رأى العلاء ان يباري سعداً ويؤثر أثراً في الاعاجم ونعمت المباراة والمنافسة في الفتح والجهاد لو لم تكن بدون اذن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي كان لا يأذن بخوض جيوشه في البحر تربصاً بهم لأوان الفرصة وانتظاراً للوقت المناسب وأما العلاء فقد تسرع وندب الناس لمهاجمة الفرس من جهة البحر فأجابوه فجهز

جيشا عدته ١٢ ألف مقاتل فيهم من الرؤساء الجارود بن المعلى والسوّار بن همام وعلى الجميع خليد بن المنذر بن ساوى فحملهم فى البحر الى فارس فخرجوا الى اصطخر وعليها المرازبة وعليهم قائد اسمه الهربذ فما تم ان قابلهم الفرس حتى حالوا بينهم وبين سفنهم واجتمعت عليهم جموع فارس فقاتلوهم قتالاً شديداً وشجعهم خليد بخطبة خطبها فيهم فتراموا على الموت وقتل الجارود وسوّار فاستمات ابناهما عبد الله بن السوّار والمنذر بن الجارود فقاتلا حتى قتلا وجعل خليد يومئذ يرتجز ويقول

يا آل تميم اجمعوا النزولَ وكاد جيش عمر يزولُ

وكلكم يعلم ما أقولُ

فنزلوا واقتتل القوم وقتل من الفرس مقتلة عظيمة ثم خرجوا يريدون البصرة وقد غرقت سفنهم فلم يجدوا الى الرجوع سبيلاً وأخذ الفرس عليهم الطرق فلما أحسوا بالخطر عسكروا وامتنعوا ودافعوا العدوّ مدافعة الابطال الصناديد

وكان لما بلغ عمر بن الخطاب تسيير العلاء لهذا الجيش أدرك بفراسته مايصير اليه من الهلاك فى تلك البلاد النائية فاشتد غضبه على العلاء وكتب اليه بعزله وأمره بأثقل الاشياء عليه وذلك ان يصير بمن معه الى سعد بن أبي وقاص ويكون تحت امارته وكتب الى عتبة بن غزوان والى البصرة بالخبر وأمره ان يندب الناس الى نصرتهم قبل ان يجتاحهم الفرس فندب عتبة الناس وأخبرهم بكتاب عمر فانتدب عاصم بن عمرو وعرفجة بن هرثمة وحذيفة بن محصن والاحنف بن قيس وأمثالهم من قادة العرب وفرسانهم فخرجوا فى اثنى عشر الفا على البغال يجنبون الخيل كى لا يتعبها الركوب وعليهم أبو سبرة بن أبي رهم أحد بنى مالك وساحل (أى مشى على الساحل) أبو سبرة والمسالح فى الاهواز وهم

ردءاً له حتى التقى بخليد حيث عسكر وأخذت عليه الطرق وحصر هو وجنوده الالوف البواسل فاستصرخ أهل اصطخر أهل فارس على المسلمين فأقبلوا عليهم من كل فج فالتقوا هم وأبو سبرة وتوافت للمسلمين أمدادهم وتواصلت جنودهم فلم يتمكن الفرس من حصرهم أو قطع المادة عنهم وقاتلهم المسلمون وغنموا منهم غنائم كثيرة وعادوا بذلك الجيش المحصور ببركة رأي عمر وأخذ الحيطة اللازمة لسلامة جيش يريد التوغل في بلاد العدو وكان لأهل البصرة فضل عظيم بانقاذ جيش العلاء والظفر بالفرس

ولما رجع الجيش الى البصرة استأذن عتبة عمر بالحج فاذن له فلما قضى حجه استعفاه فأبى ان يعفيه وعزم عليه ان يرجعن الى عمله فانصرف على غير رضاه فمات في بطن نخلة فدفن وبلغ عمر وفاته فأثنى عليه بفضله وولى مكانه أبا سبرة بن رهم بقية السنة ثم استعمل المغيرة بن شعبة في السنة الثانية فاستمر فيها الى ان جرى بينه وبين أبي بكرة ما جرى مما سيأتي في محله ان شاء الله فعزله عمر واستعمل مكانه أبا موسى الاشعري

خبر الهرمزان
وفتح الاهواز وتُستَر والسوس وغيرها

كان الهُرمزان أحد البيوتات السبعة في أهل فارس وكان شهد القادسية مع الفرس وانهزم بهزيمتهم فجاء الى الاهواز [1] وتولى أمرها وأخذ يغير على

---

(١) الاهواز اسم ولاية واقعة بين ولاية البصرة وولاية فارس ونحن ناخص هنا ما ذكره ياقوت في معجمه وهو

الاهواز جمع هوز وفي قول جمع حوز فهي على القول الاول محرفة عن حوز والحوز مصدر حاز الرجل الشيء يحوزه حوزاً اذا حصله وملكه والحوز في الارضين ان يتخذها رجل ويبين حدودها فيستحقها فلا يكون لاحد فيها حق فذلك الحوز

أهل ميسان فقتل منه عامل البصرة عتبة بن غزوان فاستمد فأمده بنعيم بن مقرن ونعيم بن مسعود وأمرهما أن يأتيا أعلى ميسان ودستميسان ووجه عتبة سلمى بن القين وحرملة بن مريطة وكانا من المهاجرين فنزلا على حدود أرض ميسان وهناك قوم من العرب يقال لهم بنو العم بن مالك فاتفقوا معهم على المعاضدة وأن يثوروا بالهرمزان وكان من زعمائهم غالب الوائلى وكليب بن وائل وتميم ونعيم وبلغ ذلك الهرمزان فسقط في يده فانهزم فتبعه المسلمون وقتلوا من قومه ماشاؤا حتى انتهى الهرمزان الى جسر سوق الاهواز فعبره وأقام بها ونزل المسلمون بحياله فلما رأى مالا طاقة له به طلب الصلح فكتبوا الى عتبة بن غزوان بذلك فاجاب عتبة الى الصلح على الاهواز كلها ماخلا نهر تيرى ومناذر وماغلبوا عليه من سوق الاهواز فانه لا يرد عليهم وجعل سلمى بن القين على مناذر مسلحة وأمرها الى غالب وحرملة على نهر تيرى وأمرها الى كليب وكانا على مسالح البصرة وكتب عتبة بذلك الى عمر ووفد اليه وفدا منهم سلمى وحرملة وكانا من الصحابة وغالبا وكليبا وأوفد معهم بعض وجوه أهل البصرة وفيهم الاحنف بن قيس فأمرهم عمر ان يرفعوا حوائجهم وكلهم قال اما العامة فانت صاحبها ولم يبق الا خواص انفسنا فطلبوا لانفسهم الا الاحنف بن قيس فانه تكلم فاعرب وأعرب عن حاجات البصريين فأجابه عمر اليها وقال هذا الغلام سيد أهل البصرة ثم كتب الى عتبة بن غزوان فيه بان يسمع منه

وعلى القول الثاني الاحواز مواضع فى خوزستان . وموقع الاهواز بين البصرة وفارس وكورها اى اقسامها سوق الاهواز ورامهرمز وايذج وعسكر مكرم وتستر وجنديسابور وسوس وسرّق ونهر تيرى ومناذر وكان خراجها ثلاثين الف الف (٣٠ مليون) درهم وكان الفرس يعتقد عامة خمسين الف الف وعاصمة هذا القسم هرمزدار شابور او سوق الاهواز

ويشرب برأيه ! وقيل بل احتبسه عنده في المدينة وسيأتي الكلام على هذا في سيرة الاحنف ان شاء الله

ثم ان عمر رد سلمى وحرملة وغالباً وكليباً الى مناذر ونهر تيرى فكانوا عدة فيه لكون ان كان

ثم وقع بين الهرمزان وبين غالب وكليب اختلاف في حدود الارضين فحضر ذلك سلمى وحرملة لينظرا فيما بينهم فوجدا غالباً وكليباً محقين والهرمزان مبطلاً فحالا بينه وبينهما فكفر الهرمزان أيضاً ومنع ما قبله واستعان بالاكراد فكثف جنده فكتب الامراء الى عتبة بذلك فكتب عتبة الى عمر (رض) فامدهم عمر بحرقوص بن زهير السعدي وكانت له صحبة وأمره على القتال وعلى ما غلب عليه من البلاد فجاء وقاتل الهرمزان فهزمه فمر الى رامهرمز وافتتح حرقوص سوق الاهواز وأقام بها واتسقت له بلاد سوق الاهواز الى تستر ووضع الجزية وكتب بالفتح الى عمر ثم بعث جزء بن معاويه في أثر الهرمزان بأمر عمر فانتهى الى قرية الشغر واعجزه بها الهرمزان فمال جزء الى دورق (وهي مدينة سرّق) وفيها قوم لا يطيقون منعها فاخذها جزء صافية وكتب الى عمر بذلك والى عتبة وانه دعا من هرب الى الجزاء والمنعة فاجابوه فكتب عمر اليه والى حرقوص بن معاوية بن زهير بلزوم ما غلبا عليه وبالمقام حتى يأتيهما أمره وذكر الطبري في غضون هذا الخبر ان جزء بن معاوية استأذن عمر (رض) في عمران البلاد فاذن له فشق الانهار وعمر الموات وهكذا كان دأب هؤلاء الفاتحين الذين يرميهم الاعداء بالهمجية والتدمير والتخريب فانهم ما وطئوا أرضاً الا عمروها وأنصفوا أهلها في الحكم والمعاشرة والجوار

واما الهرمزان فانه في رامهرمز وطلب الصلح فصولح على ما لم يغلب عليه

المسلمون من أرضه فاقام الهرمزان على صلحه يجبي الى الامراء ويمنعونه وان عار عليه اكراد فارس منعوه وكان ذلك فى سنة (١٧) وقيل في سنة (١٦) ثم كفر (أى جحد) مرة أخرى وذلك ان كسرى يزدجرد حرّصه على العصيان وحرّض أهل الاهوار عامة فانتهى ذلك الى الامراء فكتبوا الى عمر (رض) والى المسلمين بالبصره فكتب عمر الى سعد أن ابعث الى الاهوار بعثا كثيفا مع النعمان بن مقرّن وعجّل وابعث سويد بن مقرّن في نفر من وجوه المسلمين ذكرهم له وكتب بمثل ذلك الى أبى موسى الاشعري وكان عاملا على البصرة بعد عتبة بن غزوان وأمره ان يسرّح الى الاهواز جندا كثيفا وفيهم نفر من سادة المسلمين ذكرهم له ومنهم البطل الشهير البراء بن مالك وعرفجة بن هرثمة وحذيفة بن محصن وأشباههم وان تكون امارة الجيشين جيش الكوفة وجيش البصرة الى أبى سبرة ابن أبي رُهْم فخرج النعمان فى أهل الكوفة فاخذ وسط السواد حتى قطع دجله بحيال ميسان ثم أخذ البر الى الاهوار وانتهى الى نهر تيرى فجازها ثم جاز سوق الاهوار وخلف حُرقوصا وسلمى وحرملة أمراء الاهواز ثم سار الى رامهرمز وبها الهرمزان ولما سمع الهرمزان بمسير النعمان اليه بادره الشدّة ورجا أن يقتطعه وقد طمع الهرمزان فى نصر أهل فارس وقد أقبلوا نحوه ونزلت أوائل أمدادهم بتُستَر فالتقى النعمان والهرمزان بأربك فاقتتلوا قتالا شديدا انتهى بانتصار المسلمين وانهزام الهرمزان الى تستر ثم توافى الامراء واجتمعوا على تستر وكتب أبو سبرة يستمد أمير المؤمنين فامدّهم بأبى موسى والظاهر ان جنود الفرس التي كانت جاءت مددا للهرمزان كانت كثيرة العدد لهذا حاصروهم أشهرا وقتل البطل الصنديد البراء بن مالك مائة مبارز فى غضون مدة الحصار وقتل مثل ذلك مجزأة بن ثور ومثله كعب بن سور ومثل مثل ذلك كثيرمن

أبطال البصرة والكوفة وعند نهاية الحصار جاء رجل الى النعمان فاستأمنه على ان يدله على مدخل للمدينة فندب النعمان نفراً من الشجعان فدخلوا معه المدينة وأناموا من على الباب وفتحوه ودخلها الجنود فلما شعر بذلك الهرمزان فرّ الى القلعة واعتصم بها ثم طلب الامان على ان ينزل منها على حكم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فنزل فأوثقوه واقتسموا ما أفاء الله عليهم فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف وقتل ليلئذ جمع من المسلمين فيهم البَراء بن مالك ومجزأة بن ثور قتلهما الهرمزان بنفسه

وخرج أبو سبرة في أثر الفلّ الى السوس وأحاط بها بجنده وكتب بذلك الى عمر فكتب عمر الى أبي موسى الى البصرة وان يسير زِرّ بن عبد الله بن كليب الى جندى سابور وأمّر على جند البصرة المقتَرِب الاسود بن ربيعة أحد بني ربيعة بن مالك

ثم ان أبا سبرة أوفد الى المدينة وفداً فيهم أنس بن مالك والأحنف بن قيس ومعهم الهرمزان فلما اقتربوا من المدينة ألبسوه حلته الملوكية وتاجه ودخلوا به المدينة ليراه المسلمون على هذه الصفة وانطلقوا الى المسجد يطلبون أمير المؤمنين فوجدوه نائماً في ميمنة المسجد متوسداً بُرنُسه فجلسوا دونه وليس في المسجد غيره فقال الهرمزان أين عمر فقالوا هو ذا فقال أين حرسه وحجابه قالوا ليس له حارس ولا حاجب ولا ديوان فقال ينبغي ان يكون نبياً فقالوا بل يعمل عمل الانبياء وكثر الناس فاستيقظ عمر بالجلبة فاستوى جالسا ثم نظر الى الهرمزان فقال الهرمزان قالوا نعم فتأمله وتأمل ما عليه وقال الحمد لله الذي ذل بالاسلام هذا وأشياعه يا معشر المسلمين تمسكوا بهذا الدين واهتدوا بهدى نبيكم ولا تبطرنّكم الدنيا فانها غرارة ثم قال هيه يا هرمزان كيف

رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله . فقال يا عمر إنا وإياكم في الجاهلية كان الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم فلما كان معكم غلبتمونا فقال عمر انما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا

هذا هو القول الحق الذي لا مراء فيه اذ ما محق الامم وذهب باستقلال الشعوب الا التفرق وما مهد للمسلمين سبل النصر على الدول الا اجتماع تلك القبائل المتفرقة على كلمة الاسلام وتمسكهم بعرى الاخوة والوئام هذا على اعراقهم في البداوة وبعدهم عن أسباب الحضارة وحدتهم في سياسة الملك وبالله لو استمرت عرى اجتماعهم متوثقة وأمور دولتهم متسقة الى عهد الحضارة الاسلامية التي استراح فيها المسلمون من عناء الفتح وأخذوا أنفسهم بالعلوم وتبسطوا الى مناحي العمران لما تطرق اليهم الوهن ولما فترت منهم الهمم ولكن سلط عليهم أمراؤهم ففرقوا كلمتهم وأفسدوا عليهم أمرهم فتباعصوا تباغض الاعداء وتناسوا ايا رباه روابط الاخاء التي ربطت تلك القبائل البدوية بعراها ففتحت لهم ممالك الارض أقصاها وأدناها وبعد فان المسلمين لم يكونوا في عصر أحوج الى الوئام وأفقر للالتئام منهم في هذا العصر الذي ملأ فراغ الوجود عبراً تهز أعصاب الاموات وتثير في النفوس الخامدة بواعث الشعور بما هو آت ومع هذا فلا يزال أولياء أمورهم في تخاذل وتباغض لا يودون اجتماعاً ولا يقبلون نصحاً ولا تؤثر فيهم الزواجر ولا تعظهم العبر يفرقون بين الاخ وأخيه والوطن وبنيه تزاحماً على اسم الرياسة وتواطؤاً مع الزمان على هذه الامة الاسلامية الى تمزقها الاعداء والفاتحون وزاحمها على أرضها الغربيون وطاردها في حماها المتغلبون وهي مستغرقة في بحران الغفلة مستسلمة لأحكام القضاء استسلام الجبان للعدو القاهر لا تلتمس لها مخرجاً من هذا الضيق ولا تفتأ تمد رؤساءها لذين

قذفوابها الى هذا المكان السحيق وقالوا بعداً للقوم الجاهلين

ثم ان عمر رضي الله عنه قال للهرمزان ماعذرك وماحجتك فى انتقاضك مرة بعد مرة فقال أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك قال لا تخف ذلك فاستسقى الهرمزان ماء فأتى له به فى قدح غليظ فقال لو مت عطشا لم أستطع ان أشرب في مثل هذا فأتى به فى اناء يرضاه فأظهر الجزع وقال اني أخاف ان أقتل وأنا أشرب الماء فقال عمر . لا بأس عليك حتى تشربه فأكفأه فقال عمر . أعيدوا عليه ولا تجمعوا عليه القتل والعطش وقال لا حاجة لى في الماء انما أردت ان أستأمن به فقال له عمر انى قاتلك قال قد آمنتنى فقال كذبت وقال أنس صدق ياأمير المؤمنين قد آمنته قال ويحك ياأنس انا أؤمن قاتل مجزأة والبراء والله لتأتيني بمخرج أو لأعاقبنك قال قلت له لا بأس عليك حتى تخبرني وقلت لا بأس عليك حتى تشربه وقال له من حضر مثل ذلك فاقبل على الهرمزان وقال خدعتني والله ولا أنخدع الا لمسلم فاسلم الهرمزان وفرض له على الفين وانزله المدينة . وربما كان بعض الوفد هو الذي علمه هذه الحيلة شفقة عليه من القتل والا فما نخاله يعلم من أخلاق العرب الوفاء الي هذا الحد والله أعلم

خشي عمر رضى الله عنه أن يكون سبب خروج الهرمزان على المسلمين عدة مرار مع كونه عاهدهم ودخل في ذمتهم ناشئاً عن سوء معاملة المسلمين لاهل ذمتهم فى فارس والعراق فاستدعى الوفد الذي وفد عليه مع الهرمزان وسألهم عن ذلك وقال لعل المسلمين يفضون الى أهل الذمة بأذى فقالوا لا ما نعلم الا وفاء وحسن ملكة قال فكيف هذا وما سبب غدر أهل فارس فلم يجد عند أحد منهم شيئاً يشفيه ويبصر به مما يقولون الا ما كان من الأحنف بن قيس فقال ياأمير المؤمنين أأخبرك انك نهيتنا عن الانسياح فى البلاد وأمرتنا بالاقتصار على ما فى

أيدينا وإنّ ملك فارس حيّ بين أظهرهم وانهم لا يزالون يساجلوننا مادام ملكهم فيهم ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه وقد رأيت انالم تأخذ شيئاً بعد شيء الا بانبعاثهم وان ملكهم هو الذي يبعثهم ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فلنسيح في بلادهم حتى نزيله عن فارس ونخرجه من مملكته وعزّ أمّته فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس ويضربون جأشا . فقال عمر صدقتني والله وشرحت لي الامر عن حقه ونظر في حوائجهم وسرّحهم وقدم الكتاب على عمر باجتماع أهل نهاوند فتحرك في نفسه أن يأذن بالانسياح بعد ان كان متوقفا فيه لقلة جيوش المسلمين بالنسبة لاهل فارس وعظيم قوّتهم وضخامة سلطانهم

قدمنا ان أباسبرة ذهب في أثر المهزومين من جنود الهرمزان الى السوس وحاصرها فسلمت له وقيل بل كان على حصارها أبو موسى الاشعري وكان يزدجرد بعث أحد قواده واسمه سياه في ثلثمائة مقاتل فيهم نحو سبعين رجلا من أشراف فارس وعظمائهم الى السوس وأمره أن ينتخب من كل بلدة مر بها من أحب فمضى سياه الى السوس وقد سلّمت ودخلت في حوزة المسلمين فتحول سياه ونزل بين رامهرمز وتُستَر وقد عظم عنده أمر المسلمين وعلم بفراسته انهم ظافرون بالدولة الفارسية لامحالة فدعا الرؤساء الذين كانوا معه وقال لهم قد علمتم انّا كنّا نتحدث انّ هؤلاء القوم أهل الشقاء والبؤس سيغلبون على هذه المملكة وتروث دوابهم في ايوانات اصطخر ومصانع الملوك ويشدّون خيولهم بشجرها وقد غلبوا على ما رأيتم وليس يلقون جندا الاّ فلّوه ولا ينزلون بحصن الاّ فتحوه فانظروا لانفسكم

قالوا رأينا رأيك قال فليكفني كل رجل منكم حشمه والمنقطعين اليه فانى أرى ان ندخل في دينهم . واتّا أمرهم بان يكونوا الجند تلافيا لما عساه يحدث منهم

فيما لو أسلم أشرافهم فلبّى الرؤساء أمره ثم وجهوا أحدهم واسمه شيرويه الى أبي موسى في عشرة من الاساورة فقدم عليه وقال له . انا قد رغبنا في دينكم فنسلم على أن نقاتل معكم العجم ولا نقاتل معكم العرب وان قاتلنا أحد من العرب منعتمونا منه وننزل حيث شئنا ونكون فيمن شئنا منكم وتلحقونا باشراف العطاء(١) ويعقد لنا الامير الذي هو فوقك بذلك . فقال أبو موسى بل لكم مالنا وعليكم ما علينا . قالوا لا نرضى . فكتب بذلك الى عمر بن الخطاب فكتب اليه ان أعطهم ما سألوه ورأى منهم مرة تقصيراً في الحرب فلامهم على ذلك فاعتذروا اليه بقلة العطاء فكتب بذلك الى عمر (رض) فكتب اليه ان ألحقهم على قدر البلاء في أفضل العطاء وأكثر شيء أخذه العرب ففرض لمائة منهم في الفين ولستة منهم في الفين وخمسمائة فقال الشاعر

ولما رأى الفاروق حسن بلائهم وكان بما يأتى من الأمر أبصرا

فسنّ لهم الفين فرضاً وقد رأى ثلاثمئين فرض عكٍّ وحميرا

وفي هذه الابيات استحسان لما صنعه عمر رضي الله عنه بالحاق القوم بأفضل العطاء تأليفاً لقلوبهم وحذراً من أمر يأتي من قبلهم ولا جرم ان الانتفاع بناس كهؤلاء لا يفوت ذلك الخليفة العظيم الذي أدهش بحسن سياسته يومئذ ملوك الفرس والروم فرضي الله عنه وجزاه عن هذه الأمة خير الجزاء

﴿ فتح جندي سابور ﴾

(وأمان عبد امضاه جيش المسلمين)

روى الطبري ان أبا سبرة لما فرغ من السوس خرج في جنده حتى نزل على

---

(١) كذا في تاريخ الطبري ولعله بأشرف العطاء أي اعلاه أو بالاشراف من أهل العطاء والعطاء هو في عرفنا الآن المرتب أو الماهية وسيأتي الكلام عليه في هذا الكتاب

جندى سابور وزر بن عبد الله بن كليب محاصرهم فأقاموا عليها ينادونهم ويراوحونهم القتال فلم يفجأهم يوماً الا وأبواب البلد تفتح ثم خرج الناس وخرج الاسواق وانبث أهلها فحار المسلمون من ذلك وأرسلوا فسألوهم ان مالكم: قالوا رميتم الينا بالامان فقبلناه وأقررنا لكم بالجزاء على ان تمنعونا فقال المسلمون ما فعلنا . فقال أهل جندى سابور ونحن ما كذبنا . فسأل المسلمون فيما بينهم فاذا عبد يدعى مكنفاً كان أصله منها هو الذى كتب لهم فقالوا انما هو عبد فقالوا انا لا نعرف حركم من عبدكم قد جاءنا أمان فنحن عليه قد قبلناه ولم نبدل فان شئتم فاغدروا فامسكوا عنهم وكتبوا بذلك الى عمر فكتب اليهم

ان الله عظم الوفاء فلا تكونون أوفياء حتى تفوا ما دمتم فى شك أجيزوهم وفوا لهم فوفوا لهم وانصرفوا عنهم

ولو لم نعلم هذا العقد من اخلاق أولئك الفاتحين السامية انهم يجيزون أمانة وان أخلاقهم الكريمة ونفوسهم الشريفة فوق كل فاتح محارب لما رمى لقومه بالامان واستنزلهم من المعاقل ولو أنصف جهلة المتعصبين من المؤرخين وتتبعوا أخبار هذا الفتح وبحثوا عن سيرة أولئك الفاتحين وأخلاقهم البارة بالانسانية لكفوا أنفسهم مؤونة التهجم على تلك المسلمين ووصفهم بالهمجية والتخريب فى أيام فتوحهم العظيمة ولكن ما الحيلة وانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي فى الصدور

(الانسياح فى بلاد فارس)

أشرنا فيما تقدم الى ما رآه الأحنف بن قيس من لزوم الانسياح (١) للجيوش الاسلامية فى بلاد فارس تخلصاً من عصابية الملك واستحصاداً لفارس وقد نهى

(١) الانسياح هو الذهاب في الارض

عمر (رض) الى رأي الأحنف وعرف فضله وصدقه فأعدّ لذلك العدة وقسم الجيوش وأمّر الامراء من أهل الكوفة والبصرة فأمر أبا موسى الاشعري ان يسير من البصرة الى منقطع ذمة البصرة أي آخرها فيكون هنالك حتى يبعث اليه وبعث بألوية من ولّى مع سهيل بن عديّ حليف بني عبد الاشهل فقدم سهيل بالألوية ودفع لواء خراسان الى الأحنف بن قيس . ولواء ازدشير خرّه وسابور الى مُجاشِع بن مسعود السُلَمي ولواء إصطخر الى عثمان بن العاص الثقفيّ . ولواء فسا ودارابجرد الى سارية بن زنيم الكنانيّ . ولواء كرمان مع سهيل بن عديّ . ولواء سجستان الى عاصم بن عمرو ولواء مكران الى الحكم بن عمير التغلبيّ فخرجوا في سنة (١٧ هـ) فعسكروا ليسيروا الى هذه الكُوَر فلم يتيسر مسيرهم حتى دخلت سنة (١٨) وأمدّهم عمر (رض) بجماعة من جند الكوفة فأمدّ سهيل بن عديّ بعبد الله بن عبد الله بن عِتْبان وأمدّ الأحنف بعلقمة بن النضر وبعبد الله بن أبي عقيل وبربعيّ بن عامر وبابن ام غزال وأمدّ عاصم بن عمرو بعبد الله بن عمير الأشجعيّ وأمدّ الحكم بن عُمير بشهاب بن المُخارق المازنيّ

سارت هذه الجيوش كل جيش في وجهته وافتتحت في غضون خمس سنين أي الى نهاية خلافة عمر (رض) القسم الأعظم من بلاد فارس الشرقية والغربية صلحاً وحرباً فبلغت ولاية اذربيجان شمالاً وسجستان (من ولاية افغانستان) ومكران (من ولاية لوخستان أي السند) شرقاً وبحر الهند وخليج فارس جنوباً وكردستان والجزيرة غرباً وكانت أعظم وقائع المسلمين في فارس بعد انسياح الجيش وقعة نهاوند واحسن الفتح فتح خراسان فاما فتح خراسان فقد اختلف فيه هل كان في خلافة عمر بن الخطاب أو خلافة عثمان رضي الله عنهما ولهذا نرجئ الكلام عليه الى سيرة الأحنف بن قيس واما فتح نهاوند فنذكر طرفاً

من خبره هنا لأهميته ولكثرة ماعاناه المسلمون فى هذا الفتح من المشاق وما لاقوه من شدّة العدوّ وعدّته فنقول نقلا عما رواه الطبري فى تاريخه

(خبر نهاوند)

كان الذى هيج أمر نهاوند كسرى يزدجرد فانه جمع اليه عظماء الفرس وخوّفهم من اجتماع الجيوش الاسلامية على فارس وأنذرهم بذهاب الملك اذا لم ينهضوا نهضة رجل واحد لصد المسلمين فأجمعوا رأيهم على اعداد الجيوش فى نهاوند وكتبوا الى البلاد فحشروا الجنود الفارسية الى نهاوند وكانت عدتها ١٥٠٠٠٠ مقاتل فلما انتهى الخبر الى من بحلوان كتب بذلك الى سعد بن أبى وقاص وكتب هذا الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) فجمع عمر الصحابة واستشارهم فى الامر فمنهم من أشار عليه بالنهوض بنفسه الى فارس ومنهم من أشار عليه بالمقام وبتسريح جنود الشام ومنهم من رأى غير ذلك وممن رأى ان يذهب الى حرب القوم بنفسه عثمان بن عفّان (رض) فانه قام فقال (١) بعد ان تشهد أرى ياأمير المؤمنين ان تكتب الى أهل الشام فيسيروا من شامهم وتكتب الي أهل اليمن فيسيروا من يمنهم ثم تسير أنت بأهل هذين الحرمين الى المصرين البصرة والكوفة فتلقى جمع المشركين بجمع المسلمين فانك اذا سرت بمن معك

(١) هكذا كانت العادة عند المسلمين اذا اجتمعوا عند الخليفة للشورى يقوم أحدهم عند ابداء الرأي خطيباً ويشير بما يراه ويشبهه في هذا العصر حال مجالس الشورى عند الأمم الأوربية ولكن شتان بين أهل شورى تقضي بهم الاحزاب لاحلامهم في المنازع والغايات الى المجادلة ثم المنازعة والمنازعة ثم الضرب والملاكمة وبين أهل شورى وجهتهم واحدة وأحلامهم راجحة وبينهم سابقة فلا يسفه أحدهم رأي الآخر ولا يتطاول في الكلام على سواه بل يبدي رأيه مع الأدب والرزانة فمن قبل كان بها والا فلغيره أن يقول ما يشاء

وعندك . قلّ في نفسك ما قد تكاثر من عدد القوم وكنت أعز عزاً وأكثر . يا أمير المؤمنين انك لا تستبق من نفسك بعد العرب باقية (١) ولا تمتع من الدنيا بعزيز ولا تلوذنها بحريز . ان هذا اليوم له ما بعده من الايام فاشهد برأيك وأعوانك ولا تغب عنه . ثم جلس فعاد عمر فقال

ان هذا اليوم له ما بعده من الايام فتكلموا فقام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال

أما بعد يا أمير المؤمنين فانك إن أشخصت أهل الشام من شامهم سارت الروم الى ذراريهم . (٢) وإن أشخصت أهل اليمن من يمنهم سارت الحبشة الى ذراريهم . وانك إن شخصت من هذه الارض انتقضت عليك الارض من أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع وراءك أهم اليك مما بين يديك من العورات والعيالات . أقرر هؤلاء في أمصارهم واكتب الى أهل البصرة فليتفرقوا فيها ثلاث فرق فلتقم فرقة لهم في حرمهم وذراريهم ولتقم فرقة في أهل عهدهم لئلا ينتقضوا عليهم ولتسر فرقة الى اخوانهم بالكوفة مدداً لهم . ان الاعاجم ان ينظروا اليك غداً قالوا هذا أمير العرب وأصل العرب فكان ذلك أشد لكلبهم وألبتهم على نفسك . واما ما ذكرت من مسير القوم فان الله هو اكره لمسيرهم منك وهو أقدر على تغيير ما يكره . وأما ما ذكرت من عددهم فانا لم نكن نقاتل فيما مضى

---

(١) [illegible] في نفسك اذ أصاب العرب شيء وفي قوله هذا ومن نقية الخطة [illegible] على [illegible] من القوة [illegible] المسلمين يومئذ مما اسكبر أمره [illegible] وقوة [illegible] الفرس الحاسمة لخطر هجومهم على [illegible] (٢) جمع [illegible] وهو [illegible] والنساء الواحد والجميع ومراده ان الروم [illegible] الاطفال فيكتسحون البلاد ويسبون الذرية

بالكثرة ولكنا كنا نقاتل بالنصر

فقال عمر . أجل والله لئن شخصت من البلد لتنتقضن علي الارض من أطرافها واكنافها ولئن نظرت الي الاعاجم لا يفارقن العرصة وليمدنهم من لم يمدهم وليقولن هذا أصل العرب فاذا اقتطعتموه اقتطعتم أصل العرب فأشيروا علي برجل أوليه ذلك الثغر غدا واجعلوه عراقيا قالوا أنت أفضل رأيا وأحسن مقدرة وأنت أعلم باهل العراق فقال أما والله لأولين أمرهم رجلا ليكونن لاول الأسنة اذا لقيها غدا فقيل من يا أمير المؤمنين فقال النعمان بن مقرن المزني فقالوا هو لها

وكان النعمان (١) يومئذ بالمدينة وقيل كان بالبصرة مع القواد الذين أمده بهم عمر لما افتتح رامهرمز وقيل بل كان على خراج كسكر وكان كتب الى عمر يستعفيه من امارة الخراج ويطلب منه الحاقه بجيش من جيوش المسلمين وذلك لان امارة الحرب كانت أحب الى اقيال الصحابة من امارة الخراج لاعتبارهم الثانية من دواعي الراحة والرفاهية اللتين لم تألفهما نفوسهم العالية لميلها الى اكتساب الفضيلة والشرف من ساحات الحروب والقتال . واليك كتاب النعمان الى أمير المؤمنين ومنه ترى عما شاهده بنعيم كسكر وكيف كان يأنف ذلك النعيم

أما بعد فان مثلي ومثل كسكر كمثل رجل شاب الى جنبه مومسة تلون له وتعطره فأنشدك الله لما عزلتني عن كسكر وبعثتني الى جيش من جيوش المسلمين

(١) هذا البطل الجليل هو النعمان بن مقرن بن عائذ بن سيحان ويتصل نسبه بأد بن طابخة المزني نسبة الى مزينة من ولد عثمان بن عمرو قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أربعمائة من مزينة وقيل هاجر ومعه سبعة اخوة له وكان معه لواء مزينة يوم فتح مكة وحضر حرب القادسية وغيرها من حروب الفرس واستشهد بنهاوند

فكتب اليه عمر أن ائت الناس بنهاوند فاني قد وليتك حربهم فسر من وجهك ذلك حتى تأتى ماه فاني قد كتبت الى أهل الكوفة ان يوافوك بها فاذا اجتمع لك جنودك فسر الى الفيرزان ومن تجمّع اليه من الاعاجم من أهل فارس وغيرهم واستنصروا الله وأكثروا من قول لا حول ولا قوة الا بالله

وكتب الى الكوفة بشخوص الجيش الى نهاوند وعليهم حذيفة بن اليمان حتى يلتقى بالنعمان فتكون له امارة الجيش وكتب الى سُلمى بن القين وحَرْمَلة بن مُرَيطة وغيرهم من الامراء الذين كانوا بالعراق العجمى وفارس أن يشغلوا الفرس عن جيش نهاوند فتقدم بعضهم الى تخوم أصبهان وبعضهم الى تخوم فارس فقطعوا عن نهاوند أمداد فارس ولما قدم جيش الكوفة على النعمان جاءه كتاب عمر ان معك حد العرب ورجالهم فى الجاهلية فأدخلهم دون من هو دونهم فى العلم بالحرب واستعن بهم واشرب رأيهم وسل طليحة وعمراً وعمراً ولا تولّهم شيئاً

واعنى بالعمرين عمرو بن معدى كَرِب الزبيدىّ وعمرو بن أبى سُلمى العنزىّ وهما وطليحة بن خويلد الاسدي من زعماء العرب فى حروب الردة لهذا أمره عمر باستشارتهم ونهاه عن تأميرهم لانه رضى الله عنه كان لا يرى تأمير احد من زعماء الردة وان أذن لأهل الردة بالجهاد واستنفرهم للفتح وكان أبو بكر رضى الله عنه لا يرى هذا ولا ذاك كما رأيت فيما مر من سيرته وانما ساغ لعمر (رض) ان يأذن لهم بحضور الفتوح للحاجة اليهم فى إبان الفتح ولحصول الاطمئنان من جهتهم سيما بعد تبسط المسلمين فى البلاد وحصول العرب على تلك الملك العريض بفضل الاسلام

تقدم النعمان وتقدم امامه عمرو بن أبي سلمى وطليحة الأسدى

لاستكشاف حال العدو فخاف عمرو التوغل ورجع ومضى طليحة على وجهه وكان بطلا شجاعاً حتى بلغ نهاوند وعاد فأخبر النعمان بان ليس بينه وبين نهاوند شيء يخشاه فتقدم النعمان حتى نزل على نهاوند وعلى جيوش الفرس قائد اسمه الفيرُزان وآخر اسمه بهمن جاذويه ووافى النعمان امداد أهل المدينة فيهم المغيرة بن شعبة

وكذلك وافى أهل نهاوند كل من غاب عن القادسية والايام قبلها من أهل الثغور ونزلوا ونزل النعمان ولما أريد بناء فُسطاط للنعمان بادر أشراف أهل الكوفة فبنوا له فُسطاطا (وهو السرادق) وهم أربعة عشر منهم حُذيفة بن اليمان وعُقبة بن عمرو والمُغيرة بن شُعبة وبَشير بن الخَصاصية وحَنْظلة الكاتب بن الربيع وابن الهوْبَر وربعيّ بن عامر وعامر بن مَطَر وجَرير بن عبد الله الحِمْيَريّ والأقرع بن عبد الله الحميريّ وجرير بن عبد الله البَجَليّ والاشعث بن قيس الكنديّ وسعيد بن قيس الهمداني ووائل بن حُجْر فلم يُرَ بنّاءُ فُسطاط بالعراق كهؤلاء وفي هذا دليل على حسن الرابطة التي حملها الاسلام بين اشراف العرب

وأنشب النعمان القتال فاقتتلوا يوم الاربعاء ويوم الخميس والحرب بينهم في ذلك سجال وفي يوم الجمعة لجأ الفرس الى خنادقهم وحصرهم المسلمون فاقاموا عليهم ماشاء الله والاعاجم لايخرجون الاّ اذا أرادوا الخروج فاشتد ذلك على المسلمين وخافوا أن يطول عليهم الامر فجمع النعمان أهل الرأى والنجدة للشورى فاجتمعوا وأبدى كل واحد منهم رأيه وكان من رأي طليحة الاسديّ ان يبعث النعمان خيلا تناجز الاعداء في خنادقهم وتخالطهم ثم تخرج بهم وتستطرد لهم حتى يقاربوا الخنس فيبادرهم القتال ويقطع عليهم خط الرجوع فانتهى النعمان الى رأي طليحة فأمر القعقاع بن عمرو وكان على المجرّدة ففعل وأنشب القتال مع العجم فلمّا خرجوا نكص ومازال يأخرنا كصا شبه المنهزم حتى قرب بهم من

جيش المسلمين وكان النعمان على تعبئته يحذو على الصفوف ويحرض المسلمين
على القتال وكانوا سامعين مطيعين ثم حمل النعمان وحمل الناس وراية النعمان تنقض
نحوهم انقضاض العقاب فاقتتلوا بالسيوف قتالا شديدا وكانت وقعة لم يسمع بمثلها
قط وسال الدم فى أرض المعركة فزلق به الناس والدواب وأصيب فرسان من
فرسان المسلمين فى الزلق وزلق فرس النعمان فى الدماء فصرعه وتناول الراية نعيم
ابن مقرن ثم دفعها الى حذيفة وجاء المغيرة بن شعبة وقال اكتموا مصاب أميركم لئلا
يهن الناس واقتتلوا الى الليل وتمت الهزيمة على الفرس فانكفأوا الى الخنادق فقتلوا
ولم يفلت منهم الا الشريد ونجا الفيرزان فاتبعه نعيم بن مقرن وقدّم القعقاع قدامه
فادركه عند ثنية همذان فتوقل الجبل فتوقل القعقاع في أثره وأخذه ولمّا بلغ الفلّ
همذان جاءت خيل المسلمين فى آثارهم فنزلوا عليها فخرج اليهم خسرو شنوم
فاستأمنهم وضمن لهم همذان ودستبى وان لا يؤتى المسلمون من قبلهم فأجابوهم
الى ذلك وآمنوهم وأقبل كل من كان هرب واطمئن الناس

وقتل فى وقعة نهاوند ناس من المسلمين ويقال انّ ممن قتل يومئذ طليحة
الأسديّ وعمرو بن معدى كرب الزبيديّ ودخل المسلمون المدينة بعد هزيمة
الفرس واحتووا ما فيها وما حولها وجمعوا الاسلاب الى صاحب الاقباض (١)
وهو السائب بن الاقرع وجاءهم الهربذ صاحب بيت النار مستأمنا ودلهم
على ذخيرة لكسرى كانت عنده على شرط ان يعطوه الامان على نفسه وعلى من
شاء فاعطاه حذيفة ذلك وأخرج له تلك الذخيرة فى سفطين (٢) وهى جوهر ثمين

(١) امين المال والغنائم (٢) قال في القاموس السفط محركة كالجوالق أو القفة اه
قوله الجوالق معربة عن جوال التركية وهو ما يسميه الشامون الآن العِدْل أو الكيس
وما يسميه المصريون الزكيبة

كان أعده لنوائب الزمان فاجمع رأي المسلمين على رفعه الى عمر وقسم حذيفة الغنائم فكان سهم الفارس ستة آلاف وسهم الراجل ألفين ودفع ما بقي من الاخماس الى السائب بن الاقرع فقبض السائب الاخماس فخرج بها الى عمر مع ذخيرة كسرى وتقدم الرسول بخبر الفتح وهو طريف بن سهم أخو بني ربيعة وكان عمر متململا ينتظر أخبارها وبدلما جاءه الرسول وأخبره خبر الفتح واستشهاد النعمان بكى حتى اخضلت لحيته وترحم على النعمان وكان رضي الله عنه رقيق القلب محبا للمسلمين حريصا على حياة القواد يحزن حزنا شديدا اذا أصيب أحد منهم

ثم وصل السائب بالاخماس فوضعت فى المسجد وأمر عمر نفرا من أصحابه منهم عبد الرحمن بن عوف بالمبيت فيه ودخل منزله فاتبعه السائب بالسفطين وأخبره خبرهما وان الناس رضوا أن يكونا له فقال له عمر : يا مليكة والله ما دروا هذا ولا أنت معهم فالنجاء النجاء عودك على بدئك حتى تأتي حذيفة فيقسمهما على من أفاءهما الله عليه . فأقبل راجعا حتى انتهى الى حذيفة فأقامهما فباعهما فأصاب أربعة آلاف الف (أربعة ملايين)

هذه هي العفة التي قل أن تكون فى بشر فضلا عن ملك يكون له من السلطة على الناس ما كان لذلك الخليفة العظيم ولقد صدق والله من قال لهرمزان ان عمر ليس نبي ولكنه يعمل أعمال الانبياء وحقا ان هذه الاخلاق أخلاق الانبياء الذين استهانوا بالدنيا ومتاعها والا فاي حرج على عمر رضى الله عنه لو قبل هدية خصه بها المسلمون ورضي الجيش كله برفعها اليه وان كانت من فيئهم ومما غنموه بسيوفهم لو لم يكن متخلقا بأخلاق النبوة المحمدية مخلصا لله فى السر والعلانية ليس له رغبة فى غير الكفاف من العيش وسعادة المسلمين وغناهم وراحتهم فرضى الله عن نفسه الطاهرة ما أشرفها وأسماها ومن للأمة بعمر ثانٍ

يرد اخراجها الى أولادها ويبذل نفسه في سبيل سدادها

ثم جاء في نعي نهاوند الى المدينة حمل أبو لؤلؤة فيروز غلام المغيرة لا يلقى منهم صغيراً الا مسح رأسه وبكى وقال: أكل عمر كبدي. وكان نهاوندياً فأسرته الروم أيام حربهم مع الفرس وأسره المسلمون بعد فنسب الى حيث سبي

ولما تم فتح نهاوند جاء أهل الماهين ماه بهرذان وماه دينار وطلبوا من حذيفة الامان على أن يؤدوا الجزية فكتب لاهل كل ماه عهداً هذه صورته (عن الطبري)

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما أعطى حذيفة بن اليمان أهل ماه دينار أعطاهم الامان على أنفسهم وأموالهم وأرضيهم لا يغيَّرون عن ملة ولا يحال بينهم وبين شرائعهم ولهم المنعة[1] ما أدوا الجزية في كل سنة الى من وليهم من المسلمين على كل حالم في ماله ونفسه على قدر طاقته . وما أرشدوا ابن السبيل وأصلحوا الطرق وقرّوا (أضافوا) جنود المسلمين من مرّ بهم فآوى اليهم يوماً وليلة ونصحوا . فان غشوا وبدلوا فذمتنا منهم بريئة . شهد القعقاع بن عمرو ونعيم بن مقرّن وكتب في المحرم سنة ١٩

---

(١) قد مر معنا لفظ المنعة في عهود أهل الذمة عدة مرار في هذا الكتاب ولم نذكر شيئاً عنها ونقول هنا المنعة محركة هي الحماية والامتناع بالعشيرة وكان المسلمون يشترطون على أنفسهم للذمي المنعة أي انه يصير كواحد منهم يمنعونه من كل عاص ومحارب ومن كل من أراده بسوء ولهذا السبب لم يكلف أهل الذمة بالدخول مع المسلمين في محاربة اعداء وطنهم دفاعاً عن الحوزة لتحمل المسلمين ذلك دونهم من عهد الفتح وهذه هي العلة في ان الدول الاسلامية لا تعمم احكام الجندية ولا تأخذ من أهل الذمة عسكراً لحراسة البلاد أو للحرب مع أعدائها من أي جنس كانوا وهي نعمة لا يزال يقدرها قدرها كثير من عقلاء المسيحيين في المشرق ويتمنون اصلاح حال الحكومات الاسلاميه لتدوم عليهم بدوامها سلطة الاسلام

ومما يستنبط من هذا الكتاب ان العرب لما أمعنوا في بلاد فارس وكثرت مخالطتهم للفرس والروم أخذوا باصول الحضارة وتمكنوا من سياسة الملك وعرفوا لوازم العمران فجعلوا اصلاح الطرق التي هي عون الأمم التجارية والحربية اجباريا على أهل البلاد كما رأيت في هذا الكتاب وكما جاء في كتاب عياض ابن غنم لأهل الرها من الجزيرة وكان فتحها في سنة ١٨ في السنة التي فتحت بها نهاوند والماه وربما كانوا رأوا الطرق في التشعث والخراب تابعة لسائر العمران في مملكتي الفرس والروم يومئذ لما كانتا عليه من التناهي في الظلم واغفال شؤون العمران فاشترطوا على أهل البلاد اصلاحها وانما قلنا انهم شعروا بهذه الحاجة لما أمعنوا في البلاد وكثرت مخالطتهم لتلك الأمم لانا لم نر في كتب العهد السابقة على ذلك التاريخ شرطا كهذا الشرط وهو وجوب اصلاح الطرق وهذا يخبرنا عن بدء انتظام الشؤون العمرانية في الدولة العربية لاسيما اذا أضفنا اليه انصراف همة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه منذ السنة السادسة عشرة للهجرة الى تمصير الامصار في العراق وشق الانهر واصلاح الجسور كما رأيت وسترى في هذا الكتاب

وكان الذي عقد صلح الماه مع المسلمين أحد أبناء البيوتات من آل قارن واسمه دينار وبه سمي الماه الواحد ماه دينار وكان سبب صلحه ان أحد ابطال المسلمين وهو سماك بن عبيد العبسي أسره عقب فراره من وقعة نهاوند ثم من عليه بالاطلاق فعرف له هذا الجميل وطلب منه أن يقدمه الى الامير ليصالحه على بلده فقدمه الى حذيفة فكتب له حذيفة ذلك الكتاب وحمله على عمله فوفى للمسلمين بالعهد وأحسن الجوار وكان يختلف الى الكوفة كلما كان عمله تابعا لعامل الكوفة فاختبر اخلاق المسلمين أيام الفتح وعرف أحوالهم ووقف على سيرتهم

ولمّا كان من أهل الكوفة ما كان من الانشقاق والخروج على العمال ومنابذة الخلفاء قدم عليهم دينار في خلافة معاوية فقام بالناس في الكوفة فقال يا معشر أهل الكوفة أنتم أول من مررتم بنا كنتم خيار الناس فعمرتم بذلك زمان عمر وعثمان ثم تغيرتم وفشت فيكم خصال أربع . بخل وخب (أي خداع) وغدر وضيق (الشك والتردد) . ولم يكن فيكم واحدة منهن فرمقتكم فاذا ذلك في مولديكم فعلمت من أين أتيتم فاذا الخب من قبل النبط والبخل من قبل فارس والغدر من قبل خراسان والضيق من قبل الاهواز

وانما أحببت ايراد هذه الحكاية هنا لما لها من العلاقة بما قام في فكري منذ ولعت بالتاريخ من جهة تغير أخلاق أهل العراق من العرب دون أهل الشام في أيام الخلفاء علي ومعاوية رضي الله عنهما ومن بعدهما وسأبسط الكلام على هذا في محله ان شاء الله

والى هنا نقف بالقلم عن التبسط في تاريخ فتح بلاد العجم اكتفاء بما أجملناه من خبر انسياح الجنود الاسلامية في تلك البلاد والاطراف التي بلغوها في خلافة عمر رضي الله عنه وانما توسعنا في بعض الاخبار دون البعض الآخر التماساً لبعض الشوارد التاريخية التي لها مناسبة بما علقناه وسنعلقه عليها من الشروح والاستنباطات التاريخية والدينية والاجتماعية ولو أوردنا كل أخبار الفتح وعلقنا عليها الشروح وتبعنا المناسبات لاحتجنا لكتابة أكثر من مجلدين في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفي هذا من المشقة ما ربما يبطئ بنا كثيراً في ابراز هذا التاريخ على ان الفائدة التي قصدناها حاصلة ان شاء الله وفي القليل أحياناً ما يغني عن الكثير وفيما يأتي من هذا الجزء غنية عما تركناه والله ولي التوفيق

باب

﴿ فتح الجزيرة ﴾

الجزيرة هي الجزء الشمالي من الاراضي الواقعة بين الفرات ودجلة وأما الجزء الجنوبي فانه العراق وكلاهما كانا من منازل العرب من بكر وربيعة ومضر وكان رحيل العرب الى هذه البلاد من أزمان متطاولة قيل إنها تمتد الى ما بعد سيل العَرِم حيث رحلت هذه القبائل ونزلت بهذا القسم من الارض وقاعدة الجزيرة هي الموصل وقد كان فتحها وفتح تكريت في سنة (١٦ هـ) على يدي عبد الله بن المعتّم ورِبعيّ بن الأفكل وكان بعثهما سعد بن أبي وقاص من العراق وقيل بل كان فتح الموصل على يدي عِياض بن غنم[1] لما فتح الجزيرة بين سنة ١٨ وسنة ٢٠ وتحرير الخبر أنّا ذكرنا في فتوح الشام كيف أن هرقل ملك الروم هاجم المسلمين في حمص بعد استقرارهم في بلاد الشام وأنّ عمر كتب الى سعد بن أبي وقاص بان يمد أبا عبيدة في حمص بالقعقاع بن عمرو ويشغل جيوش الجزيرة عن امداد هرقل بجيوش من المسلمين عليها عياض بن غنم فسار القعقاع حتى أدرك أبا عبيدة في حمص وقد ظفر بالروم وتفرقوا وحاصر عياض بعض مدن الجزيرة

---

(١) قد مر معنا كثيراً اسم هذا الفاتح الكبير في هذا الكتاب فهذا رأينا هنا بمناسبة فتحه للجزيرة ان نذكر شيئاً من نسبه وسيرته فهو عياض بن غنم بن زهير ابن أبي شداد بن ربيعة بن هلال بن وهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر القرشي أبو سعد وقيل أبو سعيد وابو عبيدة بن الجراح ابن عمه وقد قيل ابن [illegible] اسلم و[illegible] كما رأيت في هذا الكتاب وصار اليه فتح الجزيرة وولاية أبي عبيدة بالشام وتوفي سنة عشرين وكان صالحاً فاضلاً شجاعاً سمحاً [illegible] كان يطعم الناس زاده [illegible] وكان [illegible] رضي الله عنه وأرضاه

ثم لما بلغه شخوص عمر (رض) للجابيـة شخص للسلام عليه هو وخالد وأبو عبيدة ومعظم الامراء فطلب أبو عبيـدة من عمر رضي الله عنهما أن يعينه بعياض ففعل وأبقاه عنده ولما مات أبو عبيدة في طاعون عمواس سـنة (١٨) استخلف عياضاً فورد عليه كتاب عمر بتوليته عمل أبي عبيدة وهو حمص وقنّسرين وأضاف اليه الجزيرة وأمره بالمسير الى فتحهـا فسار ومعه من القواد ميسرة بن مسروق العبسي وسـعيد بن عامر بن حذيم الجمحيّ وصفوان بن المعطّل السلمي ويقال وخالد بن الوليد والاصح أن خالداً لم يسر تحت لواء أحد بعد أبي عبيدة

وقد تضاربت الروايات في زمن مسير عياض الى فتح الجزيرة وفي هل سار من قبل سعد وهو في العراق أم من قبـل أبي عبيدة والصحيح الذي يستنتج من مجموع تلك الروايات هو ما ذكرناه

وكان فتح الجزيرة كله صلحاً ومنه ما كان بعد قتال قليل وأهم البلاد التي فتحت هي الرقة والرهـا (أورفا) ونصيبين وحرّان وسـميساط وسـنجار وقرقسيا (وكان فتح هذه على يدي حبيب بن مسلمة الفهري) وسروج وحسر منبج والموصل وآمد وغيرها وهكذا حتى بلغ عياض بادية الشام غرباً وأرمينيا وكردستان شرقاً ثم دخل الدرب[1] فبلغ بدليس (بتليس الآن) من كردستان وجارها الى خلاط وانتهى الى العين الحامضة ثم عاد وضمّن صاحب بدليس خراج خلاط ثم عاد الى الرقة وانصرف منها الى حمص ومات سنة ٢٠ وولى عمر مكانه سـعيد بن عامر بن حذيم فلم يلبث الاّ قليلاً حتى مات فولى عمر عمير بن سـعد بن شهيد الانصاري أحد الأوس وقيل هو عمير بن سعد بن عبيد وقتل أباه سعد

(١) قال في القاموس الدرب باب السكة الواسع والباب الاكبر وكل مدخل الى الروم اهـ وهو المقصود بقولهم درب أي دخل الدرب

يوم القادسية

فمتح عمير عين الوردة ويقال لها رأس العين وهي مجتمع العيون التي يجري منها نهر الخابور ويصب في الفرات ثم سلك الخابور حتى أتى قرقيسيا وقد نقض أهلها فافتتحها وصالح أهلها على صلحهم الاول ثم أتى حصون الفرات حصناً حصناً ولم يلق فيها كيداً حتى بلغ الناؤوسه والآلوسة وهيت فوجد سعد بن عمرو بن حرام الانصاري وقد بعثه أمير الكوفة ليغزو مافوق الانبار فلما اجتمع عمير وسعد صالح عمير أهل هيت وانصرف الى الرقة

وكان عياض بن غنم رضي الله عنه أعطى كتباً في الصلح لاهل الجزيرة وقد تقدم معنا في أواخر باب فتح بلاد العجم بمناسبة الكلام على العمران في عصر عمر ان من تلك الكتب ما اشترط فيه على أهل الذمة اصلاح الطرق والجسور وها نحن ننقل هنا كتاباً منها كتبه لاهل الرها وهو بنصه عن فتوح البلدان

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا كتاب من عياض بن غنم لاسقف الرها انكم ان فتحتم لي باب المدينة على أن تؤدوا الي عن كل رجل ديناراً ومدّي قمح فانتم آمنون على أنفسكم وأموالكم ومن تبعكم وعليكم ارشاد الضال وإصلاح الجسور والطرق ونصيحة المسلمين شهد الله وكفى بالله شهيدا

باب

(فتح مصر وبرقة)

كان عمرو بن العاص شديد التطلع الى مصر راغباً في فتحها لانه جاءها مرة في الجاهلية ورأى من ثروة اهلها وسير له أمرها ما أطمعه في فتحها فلما قدم عمر

ابن الخطاب الجابية فى سنة (١٨) اختلى به وفاتحه بما فى نفسه وهوّن عليه أمر مصر ورغب اليه أن يوليه فتحها فتردد عمر رضي الله عنه فى الامر لان جيوشه متفرقة فى الشام والجزيرة وفارس تكافح دولة الفرس والروم فما زال به عمرو حتى استرضاه وأذن له بقصدها وجهز معه أربعة آلاف مقاتل كلهم من عك وقال له سر وأنا مستخير الله فى مسيرك وسيأتيك كتابي ان شاء الله تعالى فان أدركك كتابي وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف وان أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره

فسار عمرو بن العاص ووافاه كتاب عمر يأمره فيه بالانصراف فلم يفتحه حتى دخل أرض مصر وسيأتي الكلام على هذا فى سيرة عمرو ثم تقدم عمرو حتى بلغ الفرماء فقاتله بها الروم نحواً من شهر فهزمهم وتقدم الى القواصر ولا يدافع الا دفاعاً حقيقاً ثم الى بلبيس ثم أتى أم دنين ثم مصر وابطأ عليه الفتح فاستمد عمر فأمده بأربعة آلاف ثم استمده مرة أخرى فأمده بأربعة آلاف آخرين وكتب اليه انى قد أمددتك بأربعة آلاف رجل منهم رجال مقام الالف . الزبير بن العوام . والمقداد ابن الاسود . وعبادة بن الصامت . ومَسلمة بن مخلد . واعلم ان معك اثنى عشر ألفاً ولا تغلب اثنا عشر الفاً من قلة

كان القبط فى مصر يكرهون سيادة الروم ويودون التخلص منها ولو بسيادة المسلمين فلما علم عمرو مصر وظفر بجنود الروم تواطأ على صلحه المقوقس مع قومه وصالحوه على شيء معلوم وبعد ان تم الصلح شخص عمرو بجنده الى الاسكندرية وكان فيها جمع كثيف من الروم فحاصرها مدة طويلة ثم أخذها عنوة وكتب بالفتح الى عمر واستمرت قدمه في البلاد فأخذ فى تنظيم شؤونها وترتيب خراجها وتقرير أسباب الراحة والامان بين أهلها وما زال والياً عليها حتى عزله

عثمان بن عفان رضي الله عنه وقد رأينا ان نرجئ تفصيل الكلام على فتح مصر وجغرافيتها وحالتها الاجتماعية على عهد ذلك الفاتح العظيم عمرو بن العاص الى سيرته التي نوفيها حقها من البيان ان شاء الله

لما استتب لعمرو الامر بمصر سار الى برقة وتسمى قديماً انطابلس وهي واقعة بين مصر وطرابلس الغرب ومن فرصها الشهيرة بنغاري مصالحه اهلها على الجزية وسار الى طرابلس الغرب ففتحها عنوة وكتب الى امير المؤمنين عمر بن الخطاب . اما بعد انا قد بلغنا اطرابلس وبينها وبين افريقيا [1] تسعة ايام فان رأى أمير المؤمنين ان يأذن لنا في غزوها فعل فنهاه عمر وولى على برقة عقبة بن نافع الفهري وعاد ورباد كرناذلك في سيرته ببيان أطول ان شاء الله

انتهى ما أردنا ايراده من أخبار الفتح في خلافة عمر (رض)

﴿ باب ﴾

تعبية الجيوش وبراعة القواد

وديوان الجند

وعدنا فيما سبق أن نفرد فصلاً خاصاً في هذا الكتاب نبين فيه كيفية تعبية الجيوش على عهد عمر بن الخطاب وبراعة قواده وتفهمهم في أساليب الحرب ووفاء بالوعد أفردنا هذا الفصل لهذه الغاية ولبيان أصول التجند وديوان الجيش على عهده فنقول

(١) يريد بافريقيا تونس وهكذا كان يسميها الرومان ثم سماها العرب بهذا الاسم أيضاً والظاهر ان الجغرافيين سموا القارة كلها بهذا الاسم بعد ذلك [illegible] تسمية للكل باسم الجزء

اعلم انّ العرب أمة حربية قلّ أن يماثلها فى ذلك العصر شعب من الشعوب فى الشجاعة والاقدام والتعوّد على أساليب القتال لدأب أفرادها منذ نعومة الاظفار على الفروسية وتعلّم فنون الحرب واشتغالهم للقتال وحبهم للغارة الى تقتضيها حالتهم الاجتماعية وعوائدهم البدوية الاّ انه كانت تنقصهم الجامعة والعدة أى آلات الحرب فكانوا مع كونهم أمة واحدة من جنس واحد قبائل متفرقة الاهواء والمنازع يقاتل بعضها بعضا ويثب بعضها على بعض ولم يكن عندهم من آلات الحرب والقتال وأنواع السلاح الا الرمح والسيف والدرع والسهم ولم يكن لعامتهم حظ بالجيد من أنواع هذا السلاح لفقرهم وربما كان أجودهم سلاحاً أهل اليمن لخصب أرضهم وتقدم بلادهم فى الحضارة وعراقتهم فى الملك من عصور التبابعة ولذلك كان الفرس فى واقعة القادسية يشبهون سهام العرب بالمغازل لدقتها وسذاجة صنعها ولما جاء الاسلام جمع هذه الأمة على كلمته وضم قبائلها الى رايته فلم يلبثوا ان دبت فيهم روح الاجتماع وشعروا بالحاجة الى الطاعة والانقياد والتكاتف والاتحاد وكان من ذلك ان خضدوا شوكة الدولتين فارس والروم لمّا دفعهم أبو بكر وعمر الى قتال الأمم وفتح الممالك وأظهروا فى قتال جنود الدولتين من التمرس في أساليب الحرب والتعود على الطعن والضرب ما رأيت فيما تقدم من هذا الكتاب مما جعل النصر حليفهم والقوّة رائدهم فى كل مكان

فمن ذلك انهم كانوا لا يقتحمون جداً ولا يمعنون فى داخل البلاد ما لم يجعلوا وراءهم رداءً أى مدداً يحمى ظهورهم ويؤمن طريق الرجعة ولا يمكن العدوّ من أن يقطع على موادهم كما رأيت ذلك في وقعة اليرموك حيث كان ردءهم يزيد بن أبي سفيان وعنده سير الجيش لى اصطخر لانقاذ العلاء حيث قامت المسالح من البصرة الى الاهواز يمد بعضها بعضاً ويواصل بالمدد ذلك الجيش كي لا يقطع عليه الفرس

طريق الرجوع ويهلك مع جيش العلاء

ومنها انهم كانوا لا يحاصرون مدينة مالم يقطعوا عنها طرق المواصلة مع جيش العدو كما رأيت فى فتوح دمشق حيث أرسل أبو عبيدة عشرة قواد ومعهم الجيوش فنزلوا بين فحل ودمشق وأرسل ذا الكلاع بجيش فكان بين حمص ودمشق وبعث علقمة بن حكيم ومسروقاً فكانا بين فلسطين ودمشق ثم زحف هو وخالد ويزيد بن أبى سفيان على دمشق وحاصرها حتى فتحها ثم سار منها الى فحل

ومنها انهم كانوا يبدأون العدو بالقتال فى أطراف بلاده التي تلي البادية كي اذا أصابهم هزيمة تكون جزيرة العرب من ورائهم فلا يسع جيش العدو تتبع أثرهم واقتحام صحارى بلادهم كما رأيت ذلك فى عملهم باليرموك والقادسية وكانوا يجتهدون أن يجعلوا هذه الوقائع الأولى كبيرة عظيمة لتكون مقدمة للنصر وباعثاً على توهين شوكة العدو وإلقاء الرعب في قلوب جيوشه لهذا كانت وقعة القادسية واليرموك من أهم ما دون في تاريخ الحروب الاسلامية وكل ما كان بعدهما من النصر انما تأتى عن كسر حدة الجيوش الرومية والفارسية وخضد شوكتهم واضعاف قوتهم فى هاتين الواقعتين

ومنها براعتهم فى اقامة خطوط الدفاع على طول البلاد اذا أراد مهاجمتها العدو كما صنع المثنى بن حارثة الشيبانى في العراق حيث رتب المسالح من أوله الى آخره بحيث ينظر بعضها الى بعض ويمد بعضها بعضاً ومنها ترقب الفرص واغتنامها كما صنع خالد فى فتح دمشق واستعمال التأنى والحيلة فى الحرب توصلا للفتح كما صنع ذلك عمرو بن العاص بدخوله بنفسه على جيش الأرطبون بحجة انه رسول من قبل المسلمين ليقف من حال جيشه على مالم يقف عليه بواسطة الرسل

وكما صنع عبادة بن الصامت فى فتح اللاذقية باظهاره القفول عنها وحفره الاسراب لاختفاء جنده فيها

ومنها اليقظة الدائمة لحركات العدو وسكناته والاستعداد لصد غاراته كما كان ذلك لما حاول هرقل مهاجمة جيش المسلمين من جهة الجزيرة ووقف المسلمون على خبره قبل أن يبدأ بشيء من ذلك فأدرت عليه الجنود من جهتين من جهة الشام بقيادة خالد بن الوليد ومن جهة العراق بقيادة من ذكر في محله من القواد حتى أوقفوه عن حركته ولم يمكنوه من المهاجمة ولا الوصول الى الجزيرة

ومنها توهينهم قوة العدو باشغال جيوشه بالحرب عن أن يمد بعضها بعضاً عند الحاجة كما كان ذلك لما هاجم هرقل حمص واستنجد بأهل الجزيرة فاسرعت القواد من العراق وشغلت أهل الجزيرة عن نصرة هرقل ريثما تمت هزيمته وغلب عليه جيش أبي عبيدة بن الجراح

ومنها براعتهم في سرعة اجتماع جيوشهم بعضها الى بعض عند وجود الخطر الكبير ومظنة الخوف من غلبة العدو على جيوشهم اذا كانت متفرقة كما كان ذلك في اجتماع الامراء على اليرموك بعد ان تفرقوا في أنحاء البلاد وإنما تيسر لهم هذا الاجتماع بمحافظتهم على خط الرجوع وعدم تمكن العدو من قطع طرق المواصلات بين تلك الجيوش وبين الردء الذي هو جيش يزيد بن أبي سفيان

هذا وأشباهه من مكائد الحرب التي مر ذكرها في غصون أخبار الفتح كلها تدل على براعة القواد المسلمين يومئذ وتفوقهم فى أساليب الحرب وأصول القيادة على قواد جيوش الروم والفرس لا سيما الخليفة عمر بن الخطاب الذي كان مع بعده عن مواقف القتال يصدر أوامره الى القواد فى الاعمال الحربية وكيفية الهجوم

والدفاع على وجه يدل على انه من أعاظم قواد الجيوش فى العالم هذا فضلاً عما كان يوصي به القواد من الرفق وحسن المعاملة مع المغلوبين وعدم التسلط بالايذاء عليهم وبدوام اليقظة والسهر والرفق بجيوش المسلمين وعدم القائهم فى المهالك والتريث فى الحرب والتبصر فى أمور القتال الى غير ذلك مما مر بيانه فى هذا الكتاب ولا حاجة لاعادته هنا

وأما تعبية العرب للجيوش فى إبان الفتح الذي مر ذكره فى هذا الكتاب فقد بلغ الغاية فى الترتيب وحسن النظام والانتظام ونحن نذكر لك هنا ما لم يسبق معنا ذكره فى هذا الكتاب من تعبيتهم للجيوش فى وقائعهم الشهيرة وهي وقعة اليرموك ووقعة القادسية ومنها تنظر لك مرتبتهم فى فنون الحرب ومكانهم من البصيرة فى تعبية الجيوش التي تشبه من كل الوجوه تعبية الجيوش فى هذا العصر كالطلائع والمجردات (الكشاف) والميمنة والميسرة (الجناحين) والقلب والساقة والردء (المدد) والرجل (المشاة) والركبان (الفرسان) وكان الغالب على العرب قبل الاسلام حب المبارزة والمهاجمة عند الالتقاء مع العدو فصاروا فى الاسلام يقاتلون الزحف صفوفاً (كراديس) لقوله تعالى « ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » وكان الامراء والقواد يتأوتون فى المراتب فمنهم الامير العام (المشير الآن) ويليه خليفته (الفريق الآن) ويليهما أمراء التعبية كامير الميمنة والميسرة والقلب وغيره (وهم الالوية الآن) ويليهم حملة (وهم الميرالايات الآن) ويليهم امراء الكراديس (الصفوف) ويليهم العرفاء وهم امراء الاعشار (الجاويش) ومنهم ولهم رؤساء المائة وفضلا عن هذا فقد كان يكون مع الجيش الرائد الذي يرتاد الموضع من فقة نزول الجيش والقاضي وأمير الاقباض الذي يليه جمع الغنائم وقسمتها والترجمان

والكاتب والاطباء لمداوة الجرحى كما ترى ذلك كله مبسوطاً فيما يلي من ذكر تعبية الجيوش في اليرموك والقادسية

روى الطبري في تاريخه أنّ خالد ابن الوليد عبّى جيش المسلمين يوم اليرموك تعبية لم تعبّ العرب مثلها فجعل القلب كراديس وأقام فيه أبا عبيدة وجعل الميمنة كراديس وعليها عمرو بن العاص وفيها شُرَحْبيل بن حسنة وجعل الميسرة كراديس وعليها يزيد بن أبي سفيان وجعل على كل كردوس من هذه الكراديس قائداً فجعل القعقاع بن عمرو على كردوس من كراديس أهل العراق ومذعور بن عدي على كردوس وجعل غير هذين بضعة وثلاثين قائداً كل قائد على كردوس منهم عياض بن غنم القرشي وحبيب بن مسلمة القرشي وسهيل بن عمرو القرشي وعكرمة بن جهل القرشي في عدة مثلهم من قريش وأما من كان من غير قريش فمنهم ذو الكلاع الحميريّ والسمط بن الاسود الكنديّ وضرار بن الازور الاسديّ وحارثة بن عبد الله الأشجعيّ واضرابهم من صناديد العرب الذين نضرب صفحاً عن ذكر أسمائهم جمًّا بالاختصار وكان القاضي أبو الدرداء والقاصّ[1] أبو سفيان بن حرب وكان على الطلائع قَبَاث أشْيَم الكناني وكان على الاقباض عبد الله بن مسعود وكان القارئ المقداد بن عمرو وكان من السنة أن تقرأ سورة الانفال عند القتال وكان أبو سفيان يسير فيقف على الكراديس ويحرض المسلمين على القتال

هكذا كانت تعبية الجيش على اليرموك وأما على القادسية فربما كانت أرقى من ذلك وأحسن نظاماً وترتيباً فقد ذكر الطبري أنّ سعد بن أبي وقاص قدّر

---

(١) في القاموس القاص من يأتي بالقصة ولعله هنا الذي يحمل اوامر الامير الى الصفوف ويأتيه بأخبارهم

الناس وعباهم بشراف كما أمره عمر (رض) فأمّر أمراء الاجناد وعرّف العرفاء على كل عشرة رجلا كما كانت العرافات أزمان النبيّ صلى الله عليه وسلم: قال الطبرى وكذلك كانت الى ان فرض العطاء وأمّر على الرايات رجالاً من أهل السابقة وعشّر الناس وأمّر على الاعشار رجالا من الناس ولهم وسائل فى الاسلام وولّى الحرب رجالا وولّى على مقدماتها ومجنباتها وساقتها ومجرداتها وطلائعها ورَجلها وركبانها فلم يفصل (أي من شراف) الا بتعبية فاما أمراء التعبية فاستعمل زهرة ابن عبدالله بن قتادة بن الحَوِيّة من ملوك هَجَر فقدّمه ففصل بالمقدمات من شراف حتى انتهى الى العذيب واستعمل على الميمنة عبدالله بن المُعتّم واستعمل على الميسرة شُرَحْبِيل بن السمط الكنديّ وكان غلاما شابا وكان قاتل أهل الردة فعرف ذلك له (مر خبره فى ذلك فى سيرة أبى بكر) وجعل خليفته خالد بن عُرْفطة وجعل عاصم بن عامر التميمي ثم العمرىّ على الساقة وسوّاد بن مالك التميميّ على الطلائع وسلمان بن ربيعة الباهلي على المجردة وعلى الرجل حمّال بن مالك الاسديّ وعلى الركبان عبدالله بن ذي السهمين الخثعمىّ فكان أمراء التعبية يلون الامير (أي بعده فى المرتبة) والذين يلون أمراء التعبية أمراء الاعشار والذين يلون أمراء الاعشار أصحاب الرايات والذين يلون أصحاب الرايات والقواد رؤس القبائل قال الطبريّ وبعث عمر الاطبة [1] وجعل على قضاء الناس عبد الرحمن ابن ربيعة الباهلي ذا النور وجعل اليه الاقباض وقسمة الفيء وجعل داعيتهم [2] ورائدهم سلمان الفارسيّ والترجمان هلال الهَجَريّ والكاتب زياد بن أبى سفيان

(١) جمع طبيب وهو جمع قلة وذلك لان الاطباء يومئذ قليلون فكان يرسل مع الجيش ولو عدداً قليلا لمداواة جرحى الحرب (٢) داعيتهم اى الذي يدعو فى ديتهم وسلع العدوّ مطالبهم ورائدهم الذي يرتاد لهم مواضع النزول

وأنت ترى من هذا أن تعبية الجيش على عهد عمر بن الخطاب كانت وافية بالغرض من كل الوجوه وما نخال ان تعبية جيوش الدول المتمدنة يومئذ كالفرس والروم كانت أرقى من تعبية جيوش المسلمين وانما كان الفرق بين الجيشين بالعدد الحربية كما قدمنا ومع ذلك فان العرب لما خالطوا تلك الجيوش ورأوا ما عندها من أدوات الحرب وعدتها كالأوهاق[1] والمجانيق والسلالم وغيرها من أدوات الحصار وما شابهها بادروا الى استعمالها فى حروبهم معهم كما رأيت ذلك فى الكلام على حصار دمشق وبالطبع كما انهم استعملوا أمثال هذه الآلات وقد استعملوا أيضا أنواع السلاح الجيد الذي كانوا يغنمونه من هذه الجيوش ومن ثم تكافأ المسلمون بالقوى الحربية يومئذ مع أعدائهم وانما كانت تفضلهم جيوش الفرس والروم بكثرة العدد ويفضلهم العرب بالشجاعة العربية التى فاقت حد الوصف وألقت الرعب يومئذ فى قلوب الأمم كما رأيت ذلك فى أخبار الفتح يضاف اليه علم أمير المؤمنين عمر (رض) ويقظته وسهره الدائم على أمور المسلمين وتعزيزه جانب الملك بسد الثغور وإعداد المرابطة واقامة المسالح فى الاطراف التى تأتى من قبلها الخطر وأمره للعمال بادرار أرزاق الجند ومواصلته بالاخبار وشحن الاماكن المخوفة بالجنود واقامة الحرس على المناطير التي توقد فيها النيران لتخبر عن الحركة التي يقبل منها العدو . وبالجملة صرفه العناية فى كل ما يعود بالقوة والعز على المسلمين ويرفع شأن الخلافة كما رأيت وترى ذلك فى هذا الكتاب . ويضاف اليه براعة القواد المسلمين وتفوقهم فى أساليب الحرب واعتقاد المسلمين بالنعيم الأخروى الذى كان يحبب اليهم الموت فى ميادين الحرب ونيل الشهادة من صفوف الاعداء وصبرهم على المكاره وتحملهم لشظف العيش

---

(١) حبل يرمى فى أنشوطة فتؤخذ به الدابة والانسان كما فى القاموس

ورضاهم بالكفاف من القوت واستخفافهم بجنود الاعداء قلوا أو كثروا واعتقادهم بالحصول على النصر الذي وعدهم الله به اذا نصروا الحق وعدلوا بين الناس

كل هذه من الاسباب التي رجّحت جانب المسلمين على جانب الاعداء ومهدت طرق الغلبة لجيوش العرب والذي وفّر هذه الاسباب انما هو اجتماع العرب بعد التفرق واتحادهم على كلمة الاسلام بعد التخاذل والانقسام كما عرفت ذلك مما قاله عمر للهرمزان وهو . انما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا .

وحسبك في مهاجمة الأمة العربية لدولتي الفرس والروم وإقدامهم على التغلغل في أحشاء المملكتين القديمتين في آن واحد ومهابتهم التي خامرت النفوس دليلا تؤيد قول عمر بن الخطاب (رض) وشاهداً يشهد بفضل الاسلام الذي جمع على كلمته تلك القبائل المتفرقة التي ما كانت لتحلم بالسيادة على الشعوب لولا ذلك الاجتماع هذا وأمّا أصول التجنيد في عهد عمر (رض) وأعطيات الجند وديوان الجيش فالكلام عليه طويل وانما نجتزئ عنه بما يأتي

الجهاد فرض على المسلمين يحتم عليهم حماية الدعوة والذب عن حوزة الاسلام الآ انه من فروض الكفاية التي اذا قام بها البعض سقط عن الكل وعلى هذه القاعدة في التجنيد الاسلامي كان أبو بكر وعمر يستنفران الناس للجهاد فمن أجاب كان جندياً له حظ في الفيء والغنائم واستمر ذلك في ولده الى ما شاء الله ولا يؤخذ من هذا أنّ الجندية على هذا الوجه اختيارية بل هي باعتبار كونها فرضاً اجبارية وللخليفة اذا تخلف المسلمون عن هذا الفرض اجبارهم عليه عند الحاجة وكان أبو بكر رضي الله عنه يسوّي بين الناس في قسمة الفيء ويضرب في المغانم للفارس بثلاثة أسهم سهمان لفرسه وسهم له وللراجل بسهم ولا يفضل الخيل

بعضها على بعض وبقي الحال على ذلك صدراً من خلافة عمر (رض) أي الى سنة (١٥) حيث دوّن عمر الدواوين وفرض العطاء كما سترى في باب آثاره في الخلافة ولم يسوّ في قسمة الفيء بين الجند بل جعلهم على مراتب وطبقات باعتبار السابقة فقد روى ابن جرير الطبري ان عمر لما فرض العطاء فرض لاهل بدر خمسة آلاف خمسة آلاف ثم فرض لمن بعد الحديبية الى ان أقلع أبو بكر عن أهل الردة ثلثة لاف ثلثة آلاف في ذلك من شهد الفتح وقاتل عن أبي بكر ومن ولي الايام قبل القادسية (أي الحروب التي كانت قبلها) كل هؤلاء ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف ثم فرض لاهل القادسية وأهل الشأم ألفين ألفين وفرض لاهل البلاء (أي الذين عرف بلاؤهم في الحرب) البارع منهم ألفين وخمسمائة ألفين وخمسمائة وفرض لمن بعد اليرموك والقادسية ألفاً ألفاً وكانت هذه الطبقات هي الاصل في ترتيب العطاء ومن جاء بعدهم من الطبقات ممن لم يشهد تلك المشاهد الكبيرة كان يلحق كل قوم منهم بأهل طبقة من تلك الطبقات يسمون الروادف والرديف لغة التبع وقد فرض لهؤلاء الروادف على درجاتهم للمثنى منهم خمسمائة خمسمائة ثم للروادف الثليث بعدهم ثلثمائة ثلثمائة وسوّى كل طبقة في العطاء قويّهم وضعيفهم عربهم وعجمهم وفرض للروادف الربيع مائتين وخمسين مائتين وخمسين وفرض للنساء مثل ذلك أيضاً فجعل لنساء الجند من الخمسمائة الى المائتين وجعل للصبيان مائة وعلى هذا الترتيب ضبطت اعطيات الجند في ديوان الجيش وكان من أراد الالتحاق بالجيش بعد تدوين عمر (رض) الديوان يقيد في ديوانه على هذا الترتيب ثم كان على عهد عثمان رضي الله عنه ومن بعده يزاد وينقص العطاء على مقتضى الظروف والاحوال كما سترى بعد. وأمّا المغانم فقد ضرب أحد عماله بالشام للفارس بسهمين وللراجل بسهم فأجازه

ويظهر مما تقدم ان عمر (رض) كان يسوّى بين الجنود الاعاجم من الفرس والروم الدين تأخر اسلامهم وبين العرب كل منهم فى طبقته باعتبار السابقة أيضاً بل ربما ميز بعضهم أحياناً فى العطاء تأليفاً لقلوبهم كما صنع ذلك مع سياه الفارسى وقومه لما أسلم وأسلموا معه كما رأيت ذلك فى خبر فتح تستر والسوس

وكانت أصول اعطاء العطاء لاهله على ما فى رواية ابن جرير الطبرى هكذا يدفع العطاء الى أمراء الاسباع وأصحاب الرايات والرايات على أيادى العرب فيدفعونه الى العرفاء والنقباء والامناء فيدفعونه الى أهله فى دورهم ولنا كلام آخر على تدوين الديوان والفئ وحكمه سيأتى فى باب آثاره فى الخلافة ان شاء الله

باب

(علائق عمر مع الملوك)

كانت علائق عمر قبيل وفاته مع ملك الفرس حربية كما رأيت وتوفى رضى الله عنه وجيوشه تطارد يزدجرد فى بلاده وتدوخ ملكه وأما علائقه مع ملك الروم فقد كانت سلمية واستقر بين دولتيهما الصلح منذ أتم عمر (رض) فتح الشام والجزيرة وجرت بينه وبين ملك الروم المكاتبات الودادية وذكر مؤرخو العرب ان هذه المكاتبات كانت مع هرقل ولكن لم يذكروا هل كانت مع هرقل الأول الذى انتزع منه عمر بلاد الشام أم مع ابنه هرقل الثانى المعروف بهرقل قسطنطين لان هرقل الاول توفي سنة (٦٤١م) الموافقة سنة (٢١هـ) وتولى الملك ابنه المذكور فى هذه السنة أى قبل وفاة عمر (رض) بسنتين وسواء كان حصل التواد والمكاتبة مع هرقل الاول أو الثانى فقد بلغ من توثق عرى العلائق الحسنة يومئذ بين الفريقين ان كانت تتردد بينهما الرسل بالمكاتبة

وان أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنه وزوج عمر بن الخطاب أرسلت مرة مع رسول جاء المدينة من قبل ملك الروم هدية من الطاف المدينة الى أمبراطورة الروم امرأة هرقل وأرسلت لها هذه في نظيرها عقداً نفيساً من الجواهر فأخذه منها عمر ورده الى بيت المال هذا على ما في رواية نقلها في كنز العمال وأما الطبري فذكر ان ام كلثوم أرسلت تلك الهدية مع بريد عمر ونص رواية الطبري بتصرف واختصار

قالوا وترك ملك الروم الغزو وكاتب عمر وقاربه وسأله عن كلمة يجتمع فيها العلم كله. فكتب اليه أحب للناس ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لها تجتمع لك الحكمة كلها واعتبر الناس بما يليك تجتمع لك المعرفة كلها. الى أن قال بعد ان أورد مكاتبات أخرى جرت بينهما. وبعثت ام كلثوم بنت علي بن أبي طالب الى ملكة الروم بطيب ومشارب واحفاش من احفاش النساء ودسته الى البريد فأبلغه لها وأخذ منه وجاءت امرأة هرقل وجمعت نساءها وقالت هذه هدية امرأة ملك العرب وبنت نبيهم وكاتبتها وكافتها وأهدت لها وفيما أهدت لها عقد فاخر فلما انتهى به البريد الى عمر أمره بامساكه ودعا الصلاة جامعة فاجتمعوا فصلى بهم ركعتين وقال انه لا خير في أمر أبرم من غير شورى ثم أخبرهم الخبر وسألهم عن أمر العقد فكلهم أشار بدفعه لام كلثوم. فقال ولكن الرسول رسول المسلمين والبريد بريدهم فأمر برده الى بيت المال ورد على ام كلثوم منه بقدر نفقتها

وقد ذكر الطبري هذه الرواية في أخبار سنة (٢٨) في معرض الكلام على غزو المسلمين في البحر وان عمر ترك غزو البحر فترك ملك الروم غزوه وكاتبه وسالمه وهو دليل على رهبة دولة الخليفة العظيم الى دبت في قلوب الملوك فرأى هرقل ان مسالمته خير من محاربته ففعل وكان من العاقلين

باب

(أهم الأحداث في عصره)

أهم الأحداث في خلافة عمر رضي الله عنه طاعون عمواس وعام الرمادة فأما طاعون عمواس فاختلف في سنة حدوثه هل كانت سنة ١٧ أو سنة ١٨ وروى الطبري أنه ظهر في العراق ومصر واستقر بالشام وفتك بالناس فتكا ذريعا ومات به في الشام عدة من اعلام المسلمين منهم أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل ويزيد ابن أبي سفيان ولما اشتدت على الناس وطأته خطب الناس عمرو بن العاص فقال . أيها الناس ان هذا الوجع اذا وقع فانما يشتعل اشتعال النار فتجبلوا منه في الجبال ثم خرج وخرج الناس فتفرقوا في الجبال ورفعه الله عنهم

وروى الطبري عن ابن عباس أن عمر خرج في تلك السنة غازيا وخرج معه المهاجرون والأنصار فلما بلغ سَرْغ وافاه أمراء الاجناد في الشام وأخبروه خبر الطاعون وأشاروا عليه بالرجوع فجمع الناس واستشارهم في الرجوع فمنهم من أشار عليه به ومنهم من أشار عليه بالقدوم وكان ممن أشار عليه بالرجوع مهاجرة الفتح فأصبح وقد عزم على الرجوع فقال له أبو عبيدة بن الجراح أفرارا من قدر الله قال نعم فرارا من قدر الله الى قدر الله أرأيت لو أن رجلا هبط واديا له عدوتان (ضفتان) احداهما خَصِبة والاخرى جَدِبة أليس يرعى من رعى الجدبة بقدر الله ويرعى من رعى الخَصِبة بقدر الله ثم قال لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة ثم خلا به بناحية دون الناس فبينا الناس على ذلك اذ أتى عبد الرحمن بن عوف وكان متخلفا عن الناس لم يشهدهم بالأمس فقال ما شأن الناس فأخبر الخبر فقال عندي من هذا علم فقال عمر فأنت عندنا الأمين المصدق فماذا عندك قال

سمعت رسول الله يقول (اذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه واذا وقع وانتم به فلا تخرجوا فرارا منه) فقال عمر فهنا الحمد انصرفوا ايها الناس فانصرف بهم[1]

ولما زال الطاعون وبلغ عمر ما أصاب الناس من كثرة الموت حتى كادت تضيع المواريث قدم الشام ونزل الجابية وقسم المواريث وسد الثغور واستعمل بدل من ماتوا من العمال كما سترى ذلك في الباب التالي وكانت هذه المرة هي المرة الرابعة التي قدم بها الشام ولم يأتها بعد ذلك

واعلم ان طاعون عمواس كان عظيم الخطر على المسلمين وافنى منهم أكثر من عشرين ألفا وهو عدد يوازي نصفهم بالشام وربما تخوف من ذلك المسلمون يومئذ واستشعروا الخطر من قبل الروم وفي الحقيقة لو تنبه الروم لهذا النقص الذي أصاب جيش المسلمين في سورية يومئذ وهاجموا البلاد اصعب على الجيوش المرابطة دفعهم ولكن ربما كان اليأس تمكن من نفس هرقل فأقعده عن مهاجمة المسلمين خصوصا اذ كان أهل البلاد راضين بسلطة المسلمين مرتاحي القلوب الى سلطانهم العادل وسيرتهم الطيبة الحسنة وبدون الاستعانة بهم لا يتيسر لهرقل مهاجمة البلاد لاسيما اذا أضفنا الى هذا ملل القوم من الحرب واخلادهم الى الراحة من عناء المقاومة لقوم أصبح النصر حليفهم في كل مكان ودب الرعب من سطوتهم في قلب كل انسان

وأما عام الرمادة فسمي بذلك لريح كانت تسفي ترابا كالرماد وأصاب الناس بالحجاز مجاعة شديدة وكان قحط عظيم أهلك الضرع والزرع وعانى عمر (رض) بسبب ذلك النصب وآلى ان لا يأكل سمنا ولا عسلا حتى يحيي الناس ويكون وايام

---

(١) اتخذ المتأخرون هذا الحديث ورجوع عمر الى الحجاز حجة على مشروعية الحجر الصحي المعروف بالكورنتينا

سموا ... الجدب وجعل يأكل الزيت حتى قرقر بطنه فقدم السوق يوماً عكة سمن ووطب[1] من لبن فاشتراهما غلام لعمر بأربعين درهما ثم أتى عمر فقال يا أمير المؤمنين قد أبر الله يمينك وعظم أجرك قدم السوق وطب من لبن وعكة من سمن ابتعتهما بأربعين درهما فقال عمر تصدق بهما فانى أكره أن آكل اسرافاً وقال كيف يعنيني شأن الرعية اذا لم يصبنى ما أصابهم وكتب عمر الى أمراء الامصار يستغيثهم فبعث عمرو بن العاص الطعام الى المدينة وبعث أمير الشام بأربعمائة راحلة عليها الطعام وقالوا انه أبو عبيدة بن الجراح وهو خطأ لان عام الرمادة كان بعد طاعون عمواس الذى توفى به أبو عبيدة بن الجراح ويدلك على هذا ارسال عمرو بن العاص الطعام من مصر وانما كان فتح مصر بعد الطاعون اذ كان عمرو بن العاص عام الطاعون بالشام ولما قدم عمر بن الخطاب لقسمة المواريث استأذنه بقصد مصر وأذن له وسار وكان ذلك سنة ١٧ أو سنة ١٨ والذى دعا عمرو بن العاص لاحتفار الترعة الموصلة بين النيل وبحر القلزم انما هو عام الرمادة وقال بعضهم ومنهم ابن الاثير ان عمراً أصلح بحر القلزم وأرسل فيه الطعام وهو غير مفهوم وانما أرسل الطعام فى البر ثم استأذن عمر بحفر الترعة ووصل بين النيل وبين بحر القلزم احتياطاً من مثل ذلك الحادث وتقريباً للمسافة بين المدينة وبين مصر وسنستقصى الخبر عن ذلك فى سيرة عمرو بن العاص إن شاء الله تعالى

ولما اشتد الضيق على المسلمين استسقى عمر بالناس ودعا ودعا عمه العباس رضى الله عنهما فرحم الله الناس وأرسل عليهم من سماء رحمته السحاب الثقال فسقت الارض وأنعشت النفوس وانفرجت الأزمة والحديث

---

(١) العكة القربة الصغيرة والوطب سقاء اللبن أى وعاؤه

الاستيفاء كلام طويل بين العلماء لا نحب الخوض فيه فليرجع اليه من شاء في كتب الحقائق

باب

﴿ آثاره فى الخلافة ﴾

(كتابة التاريخ الهجرى)

لم يكن للعرب قبل الاسلام تاريخ يؤرخون به الا الحوادث الشهيرة عندهم فانها كانت بمثابة التاريخ فكانوا يقولون حدث ذلك في عام الفيل مثلا وولد فلان بعد عام الفجار بكذا وهلم جرا واستمر ذلك فى الاسلام الى مضى سنتين ونصف من خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه أى الى سنة ست عشرة من الهجرة وفيها رأى عمر لزوم وضع التاريخ لضبط الحوادث بعد اذ انتشر الاسلام وكثر الفتح ومست الحاجة لضبط الشؤون والاعمال فى الحكومة الاسلامية فجمع الصحابة الكرام واستشارهم في ذلك وسألهم من أي يوم نكتب التاريخ فأشار عليه علي بن أبي طالب رضى الله عنه بان يجعل التاريخ من السنة التى هاجر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة ففعل

﴿ تدوين الدواوين وفرض العطاء ﴾

من البديهي ان حاجات الدولة تترقى بترقى العمران وامتداد السلطان وقد كانت دولة الاسلام فى خلافة أبى بكر وصدراً من خلافة عمر فى مبادئ الظهور وسذاجة البيئة وعدم اتساع السلطان ولم يكن لها من الدخل والخرج الا الصدقة التى كانت تؤخذ من الاغنياء وترد على الفقراء (١) وأما المغانم والفئ فكانت قليلة لم

(١) علمت من هذا الفصل وغيره حكم الفيء في الاسلام ووجوه صرفه التي أتاها

نحوح أعمالهم التي بعثتها المدنية إلى صرف العناية في ترتيب الشؤون الإدارية على أصول الدول المتمدنة ... كفارس والروم وإنما كانت العناية منصرفة إلى الشؤون الحربية والفنون العسكرية ولما توسع المسلمون في الفتح وانتشروا

للكتاب الكريم وزيادة في الفائدة نشرح لك هنا حكم الصدقة ووجوه الصرف التي قررها للصدقة الاسلام ومنها تعلم ان الأمة الاسلامية انما سعدت واعتزت وقويت في صدر الاسلام بالعمل بهذا واشباهه من قواعد الاسلام التي ترمي كلها لغرض واحد وهو سعادة المسلمين * الصدقة تؤخذ على السائمة من غنم وابل وبقر بنسبة معلومة في كتب الشريعة لامحل لبسطها هنا وهي ليست كالفيء من حق سائر المسلمين بل هي والعشور التي تؤخذ من المسلمين لمن سمى الله عز وجلّ في كتابه الكريم بقوله تعالى (انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل) قال ابو يوسف اما المؤلفة قلوبهم فقد ذهبوا واما العاملون عليها (يعني ولاة الصدقة) يعطيهم الامام ما يكفيهم من غير سرف ولا تقتير وبقية الصدقة للفقراء والمساكين سهم وللغارمين وهم الذين لايقدرون على قضاء ديونهم سهم وفي ابناء السبيل المنقطع بهم سهم يحملون به ويعانون وفي الرقاب سهم في الرجل يكون له الرجل المملوك أو أب مملوك أو أخ أو أخت أو أم أو ابنة أو زوجة أو جدة أو عم أو عمة أو خال أو خالة وما أشبه هؤلاء فيعان في شراء هذا ويعان منه المكاتبون وسهم في اصلاح طرق المسلمين في كلام طويل يرجع اليه من شاء في كتاب الخراج وانما نقول هنا ان الأمة الاسلامية لو عملت بالكتاب الكريم ولم يحد أولياء أمورها عن هذا النهج القويم لما عرف فرد من أفرادها شقاء الحياة التي تعانيها الطبقة النازلة الآن وأيّ شريعة في العالم تقضي على الامة بوفاء دين العاجزين عن وفاء ديونهم من أفرادها واعالة فقرائها ومواساتهم بقسم من مالها وأيّ شريعة في العالم تأخذ من الاغنياء قسماً من مالهم لتشتري به الارقاء وتجعلهم أحراراً سعداء اللهم ليس غير هذه الشريعة شريعة تجعل الناس في سعادة الحياة كلهم سواء وتريد المسلمين على التكافل والتضافر والاخاء ولكن أضاعها أهلها فخسروا وكانوا من النادمين فانا لله وانا اليه راجعون

في الممالك وكثرت موارد الدولة وتشعبت مناحي العمران وأخذت ترد اليه من الخراج والجزية زيادة لاطاقة للخليفة وأمرائه بضبطها ولا قبل لهم باحصائها فاستحسن توزيع الاعطيات (المرتبات) على أربابها بالعدل الا بضبطها وترتيبها على أصول ثابتة وتقييدها في قيود خاصة فدعا عمر رضي الله عنه الصحابة واستشارهم في كيفية تدوين الديوان . فقال علي بن أبي طالب تقسم كل سنة ما اجتمع اليك من مال ولا تمسك منه شيئاً وقال عثمان . أرى مالاً كثيراً يسع الناس . وان لم يحصوا حتى يعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الامر (ينبسط أو يلتبس) : فقال له الوليد بن هشام بن المغيرة قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديواناً وجندوا جنداً [1] فدوّن ديواناً وجند جنداً . فأخذ بقوله فدعا عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا من نبهاء قريش فأمرهم بتدوين الديوان فعملوا والديوان هو الدفتر أو مجتمع الصحف والكتاب يكتب فيه أهل الجيش وأهل العطية كما في القاموس وتوسعوا بمسماه بعد فأطلقوه على كل دوائر الحكومة الادارية وغيرها ثم على المكان الذي يكون فيه الديوان فسموه ديواناً

ولما كتبت الدواوين كتب ديوان الشام بالرومية وديوان العراق بالفارسية واستمر كذلك الى عهد عبد الملك بن مروان في الشام والحجاج بن يوسف عامله على العراق فنقل عبد الملك في الشام الديوان الى العربية ونقله الحجاج في العراق الى العربية وسببه كما نقل ذلك في فتوح البلدان ان عبد الملك بن مروان بلغه

---

(١) قال في القاموس الجند بالضم العسكر والاعوان والمدينة وصنف من الخلق على حدة اه والعرب كانوا يسمون كل ناحية لها جند يقبضون أرزاقهم به جنداً فيقولون جند قنسرين وجند الاردن وغيرها وهي من ترتيب عمر بن الخطاب (رض) كما سترى

من أحد كتاب الروم أمراً أغضبه فأمر سليمان بن سعد بنقل الديوان الى العربية فسأله أن يعينه بخراج الأردن سنة ففعل ذلك وولاه الأردن فلم تنقض السنة حتى فرغ من نقله وأتى به عبد الملك بن مروان فدعا بسرجون كاتبه فعرض عليه ذلك فغمه وخرج من عنده كئيباً فلقيه قوم من كتاب الروم فقال اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم

وكذلك فعل الحجاج في العراق والذي نقله الى العربية هو صالح بن عبد الرحمن مولى بني تميم وكان يكتب بين يدي زادان فروخ الفارسي كاتب الحجاج ولما قصد نقل الديوان الى العربية بذل له مردانشاه بن زادان مائة ألف درهم على أن يظهر العجز عن نقل الديوان ويمسك عن ذلك فأبى ونقله والقصة طويلة ستَرِد في سيرة الحجاج ان شاء الله

وأنت تعلم ان قوام الدولة هو المال وروحها التي تختلج في جسمها فتديرحركته هو الديوان ومع هذا فلما لم يكن العرب يومئذ في الدرجة التي تؤهلهم لادارة شؤون الديوان على أصول الدول المترقية في الحضارة عهد الخلفاء بهذا العمل الى الاعاجم من الفرس والروم ورضوا بكتابة الديوان بلغة الكتاب الغريبة عن لغتهم مع ما في هذا من الغبن الظاهر وتعريض أموال الدولة لتلاعب الكتاب وانما دعاهم الى تسليم الدواوين الى الأعاجم وترتيبها على نحو ترتيب دولتي الفرس والروم ضرورة التوسع في الفتح والترقي في مراقي الحضارة والخروج عن حالة البداوة الى حالة تستلزم تقليد الأمم الراقية في وسائل العمران ادلم يروا لهم مندوحة عن هذا الامر كما لم يروا امامهم في الدين يمنعهم من مجارات الأمم في أصول الحضارة والمدنية وأخذ العلم النافع ولو عن مشركي الفرس ومن البلاء ان ألصق بعض الفقهاء بعدُ كل شيء من أمورنا الدنيوية بالدين وحرّموا على الأمة العمل بأي شيء نافع مادام

لم يصبغ بصبغة إسلامية ولو تمحلاً . ولو كان الدين يضيق على هذه الامة الى الحد
الذي توهمه أولئك الفقهاء لما قلد عمر رضي الله عنه الفرس والروم فيما اقتضته حاجة
الدولة في عصره من وضع التاريخ والدواوين وترتيب الجيوش وإعداد العدة الحربية
ونحو ذلك وإذا قيل ان عمر رضي الله عنه مجتهد له أن يفعل ما يرى فيه المصلحة وعلى
والأمة أن تعمل فكيف ساغ مثل الحجاج بن يوسف أن يبدل أمراً أجتهد به
الخلفاء الراشدون وأقروه فأصبح شرعاً لا ينبغي لأحد سواهم التصرف فيه
والعدول عنه .

اللهم ان طبيعة الاجتماع تقضي بأخذ الأمم بعضها عن بعض كل ما يصلح
للترقي في مراقي الكمال وشأن الامم هذا شأن الأفراد في إحراز العلم بالمسابقة
والاكتساب ومعاذ الله أن يرضى الاسلام بالحرج للمسلمين ويمنعهم عن المسابقة
مع السابقين ليكونوا أدنى الأمم والشعوب وإنما توهم بعضهم أن من لوازم الدين
صبغ كل شيء بصبغة الدين جعلنا نحكم بعقولنا القاصرة في الدين ونعتقد أن الأخذ
بأيّ سبب نافع من أسباب المدنية التي نتوصل بها الى مسابقة الأمم والغلبة على
الدول زيغ عن صراط الدين حتى بلغ بنا هذا الاعتقاد الفاسد أن صرنا نحرّم
الامر الذي يدعونا الدين اليه ويحثنا عليه وأقرب شاهد من هذا القبيل نتلوه
عليك هذا الشاهد الملخص من تاريخ السلطان سليم الثالث العثماني رحمه الله

تولى هذا السلطان العاقل منصب السلطنة في أوائل الجيل الماضي وقد اضطرب
أمر الدولة وأشرفت على السقوط في هوّة الدمار لتغلغل الفساد في جسم الفرق
الينكجرية يومئذ وانحلال قوى الدولة بانحلال قوى الجندية العثمانية وانحطاط
نظامها في جانب نظام الجند الاوربي الذي ظهر يومئذ بمظهر جديد مبني على
الاصول العلمية والاختبارات الفنية فخشي السلطان ان هو لم يأخذ باصول الجندية

الجديدة ولما رأى ترتيب الجيوش النظامية جيرانه من الدول الاوربية أن تكتسح
هذه الدول ممالكه النظامية اذ ظهرت له بوادر الخطر بوشك احتلال النمسا لصر
وتحفز الروس للوثوب على القسطنطينية ونزوع أهالي المورة للثورة فعزم عزماً
أكيداً على تنظيم الجندية العثمانية وقبول الاصلاحات الاوربية في البحرية
والعسكرية وإلغاء الجندية الينيجرية ورأى أن تعريض حياته الشخصية للخطر
مع جنود الينيجرية خير من تعريض المملكة لهجوم الدول الاوربية ومصير
الدولة العثمانية للزوال وهو شهم وعلو نفس وأقدام قل أن صدر مثله عن أحد من
الملوك الا فيما ندر اذ معظمهم يجعلون حياة الدولة والملك فداء عن حياتهم الشخصية
ولا جرم فان لكثير من أفراد هذه الاسرة العثمانية كثيراً من الايادي البيضاء
على الامة وكل امرئ يذكر بفعله وأجهل المؤرخين من يغمط فضل الرجال
لما سنحت الفرصة لذلك الملك المقدام وأراد إبراز هذا العمل من القوة الى الفعل كان
أول المقاومين له علماء الدين وفي مقدمتهم عطاء الله أفندي شيخ الاسلام في عصره
حرضوا عليه العامة وأثاروا عليه الضغائن بحجة أنه يريد التشبه بالافرنج وما زالوا
يكافحونه مع الينيجرية ويكافحهم حتى تغلبوا عليه وخلعوه ثم قتلوه وجرت بعد ذلك
أمور يطول شرحها على عهد خلفه السلطان مصطفى والذي يليه السلطان محمود فكان
قصاراها إهراق سيول من الدماء انفذ بعدها السلطان محمود رحمه الله بماضي عزيمته
إرادته في الاصلاح وقضى على نظام الينيجرية وأهلها شر قضاء وتالله لو لم
يفعل ذلك لما بقي لدولة آل عثمان باقية الى الآن اذ هي الآن على ضخامة قوتها
وترتيب جندها على النظام الجديد ومجاراته لأحسن جنود الدول في فنون الحرب
قد غلبت على أمرها وانتزعت الدول الاوربية كثيراً من ممالكها الاوربية
والافريقية فكيف بها لو كانت على حالها القديم من ضعف الجندية وفساد النظام

لا جرم أنها كانت ذهبت لا قدر الله مع الذاهبين وأصبحت مثلا في الغابرين ولو مثل ساعتئذ عطاء الله أفندي هل بهذا يأمر الدين ويريد تلاشي المسلمين لاحابك بالبراءة الى الله من ذنبه واستغفر الى ربه

على ان الدولة العثمانية حرسها الله قد قدّت هذه القيود الثقال وقبلت من الاصلاح في أمورها السياسية وأمور الأمة المعاشية ما جعلها تدخل في مصاف الدول الاوربية وان كانت الأمة العثمانية لم تزل في دور الانحطاط وأما غيرها من الدول الاسلامية كدولة مراكش مثلا فانها لم تزل الى الآن على ما كانت عليه منذ مئات من السنين فليس لديها نظام للجندية ولا للادارة ولا للقضاء وليس عندها مدارس تعلم الناشئين الفنون الحديثة والاصول الحربية وتكسب الأمة ملكات العلم بحاجات العصر وترشد الدولة الى أسباب المنعة والقوّة والمانع من هذا كله هو زعم تحريم الدين لمثل هذه المنافع الدنيوية ومعاذ الله أن يكون الدين رائد هلاك الأمة والمانع من ترقي المسلمين ولو كشفت الأمة المراكشية عن بصائرها حجاب الغفلة وقامت دولتها بواجب الخدمة الصحيحة فنبذت عنها أوهام الواهمين وتخرصات الجاهلين وأخذت بحظ من أصول المدنية النافعة لكانت أحسن دول الاسلام حالا وأعظمهن قوّة لخلو بلادها من أهل الملل من غير المسلمين الذين تجعلهم الدول الاوربية في الممالك الاخرى ذريعة لمد يدها الى الشؤون الداخلية والتعرض بالاذى للدول الاسلامية وتالله ان أمة يبلغ عددها الثمانية ملايين كلهم من جنس واحد ودين واحد لو رزقها الله سلطانا عظيم النفس عالي الهمة محبا للاصلاح يرتب شؤون دولته على نمط جديد ويصرف همته في إعزاز شأن الملك لكانت أمة عزيزة الجانب منيعة الحمى ولكان لها جيش منظم يزيد عدده عن النصف مليون يحمي ذمارها ويرد الغارة عن ديارها ولكن

أين من يسمع ويعقل ومن ينصف ويعمل

هذا وأما فرض العطاء فان عمر أمر بان يحصى الناس بالديوان ويبدأ من ذلك بالعباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ومن يليه من ذوي القربى ثم باهل السابقة والذين حضروا الفتوح على درجاتهم التي اختارها لهم عمر ثم بالفقراء والمساكين والنساء والاطفال كما هو مبين في مظانه من كتب الاحاديث والتاريخ وقد أشرنا اليه في باب ديوان الجيش وقال قائل لعمر يومئذ يا أمير المؤمنين لو تركت في بيوت الاموال عُدَّةً لكون إن كان فقال كلمة ألقاها الشيطان على فيك وقاني الله شرها وهي فتنة لمن بعدي بل أعدّ لهم ما أمرنا الله ورسوله ، طاعة لله ورسوله فهما عدتنا التي بها أفضينا الى ما ترون فاذا كان هذا المال ثمن دين أحدكم هلكتم

على ان العطاء على ذلك الوجه لم يستمر الا مدة الخلفاء الراشدين ثم لما تغير حال الدول وانتشر الاسلام وكثر المسلمون خص الخلفاء العطاء من غير الخمس بطبقة الجند فقط على نسبة اختاروها لا على نسبة الفيء كله أي خصصوا لهذا قدراً مخصوصاً من الفيء يختلف باختلاف الدول واستأثروا بالباقي وبالخمس لانفاقه في وجوه المصالح العامة لان العطاء كان يعطى للمسلمين باعتباره في أخذوه بسيوفهم اذ كانوا كلهم جنوداً محاربين فاتحين ثم لما خصصت الجندية بطبقة مخصوصة من الناس تغير نظام العطاء أيضاً واضطر الدول بحكم الضرورة لاقتصاد الاموال وادخارها في بيت المال لانفاقها على المصالح الأخرى التي تقوم بها الدول وتقتضيها أبهة الملك هذا انقطع النظر عما خصص منها للانفاق على ترف الدوله وشهوات الملك لان هذا تابع بالطبع لحال الملوك من عفةٍ وشَرَهٍ وامساك وبذل

وأمّا الكلام على الفيء الذي هو أصل العطاء وعلى حكمه وحكم الخمس وماهو وحكم الجزاء أو الجزية المستثناة من الخمس الى غير ذلك مما يتعلق بهذا البحث فبسوط فى كتب الفقه وكتب التفسير المطوّله فليرجع اليه من أحب

وانما زيادة فى الفائدة نقول هنا إنّ الفيء هو كل ماصالح عليه العدوّ بعد وضع الحرب أوزارها وحكمه أن يرفع منه الخمس الى الامام ليقسمه بين أهله الذين نص عليهم القرآن والباقي يوزع على الجند الفاتحين للبلاد والمرابطين فى الثغور والقائمين على حراسة الدولة الآ الجزية فانها مستثناة من حكم الخمس أى لا يرفع منها الخمس بل تعطى للجند القائمين بحماية أهل الذمة وحراسة البلاد

واعلم انّ الاسلام هو أول شريعة نصت على مصرف الفيء أى وجوه الصرف والانفاق من أموال بيت المال ووضع مايعرف الآن (بالبودجه) ومعناها تقرير وجوه النفقات السنويه للحكومة فقد روى الطبرىّ فى تاريخه عن ابن عباس قال لما فتحت القادسية ودمشق قال عمر للناس اجتمعوا فاحضروني علمكم فيما أفاء الله على أهل القادسية وأهل الشام فاجتمع رأي عمر وعليّ على ان يأخذوا من قبل القرآن فقالوا (ماأفاء الله على رسولهِ من أهل القُرَى) يعني من الخمس (فللهِ وللرسول) من الله الامر وعلى الرسول القسْم (ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) الاية ثم فسروا ذلك بالآية التى تليها (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم) الآية فأخذوا الاربعة الاخماس على ماقسم عليه الخمس فيمن بدئ به وثنّى وثُلث وأربعة أخماس لمن أفاء الله عليه المغنم ثم استشهدوا على ذلك أيضاً بقوله تعالى (اعلموا انما غنمتم من شيء فانّ لله خمسه) فقسم الاخماس على ذلك واجتمع على ذلك عمر وعليّ وعمل به المسلمون بعدُ هذا ماذكره الطبرى وانما كان عمل المسلمين بذلك مدة الخلفاء الراشدين

وأما من يليهم الى اواسط الدولة العباسية فقد عملوا بهذا بما وصل اليه الامكان ثم لما توسع أمر الدول وتبسط الخلفاء فى مناحى الحضارة أخذ يتغير ذلك الترتيب كما علمت هذا مما تقدم وربما بدأ هذا التغيير فى عهد ولاية معاوية على الشام كما سترى فى قصته مع أبي ذر فيما يلي من هذا الكتاب

ترتيب العمال
(وتقسيم الولايات)

لما تولى الخلافة عمر بن الخطاب كانت الحرب قائمة فى الشام وكان الامراء من علمنا مما تقدم فى محله فجعل امارة مايفتتح من الشام الى أبى عبيدة وجعل امارة الحرب في كل جهة لأمير مخصوص فجعل إمارة الحرب فى دمشق ليزيد بن أبى سفيان وامارة الأردن لشرحبيل بن حسنة وامارة فلسطين لعمرو بن العاص وقد مر تفصيل ذلك وبيانه الا ان الامارة العامة كانت لابى عبيدة فالمحاربة والصلح وكل مايتعلق بامور الحرب السياسية كان منوطاً به ولما تم فتح الشام واستقرت فيها قدم المسلمين أبقى أبا عبيدة أميراً عاماً على الشام وجعل مقره حمصاً وأضاف اليه جند قنسرين ثم أضيف الى هذا القسم جزء من الجزيرة لما فتحها عياض بن غنم وولى جند قنسرين بعد وفاة أبى عبيدة ثم جعل دمشق جنداً وعليها يزيد بن أبى سفيان ثم معاوية بعده ثم جعل الاردن كذلك جنداً وفلسطين جنداً وقسمه الى قسمين أحدهما حاضرته ايلياء والآخر حاضرته الرملة وقد مر الكلام على ذلك فلا حاجة للتفصيل والمراد من الجند وأنهم كانوا يسمون كل ناحية بها جند يقبضون ارزاقهم منها جنداً فبدلاً من أن يقولوا ولاية قنسرين مثلاً يقولون جند قنسرين ويسمون الولاية أيضاً كورة جمعها كور وروى الطبري في حوادث سنة (١٧هـ) أن عمر لما جاء الشام في هذه السنة رتب المشاتي والصوائف ثم

(أي الجنود التي تغزو في الصيف والجنود التي تغزو في الشتاء) وسدّ فروج الشام ومسالحها [١] وأخذ يدور بها واستعمل عبدالله بن قيس على السواحل من كلّ كورة (أي على السواحل جميعها سواء كانت تابعة لكورة دمشق او غيرها)

وجعل أبا عبيدة على حمص وخالد بن الوليد تحت يديه على قنسرين وعلى دمشق يزيد بن أبي سفيان وعلي الاردنّ معاوية (بعد شرحبيل) وعلى فلسطين علقمة بن مُجَرِّز وعلى الاهراء [٢] عمرو بن عبسة وجعل على كل عمل عاملاً فقامت مسالح مصر والشام والعراق على ذلك الترتيب الذي رتبه عمر (رض) الى عهد العباسيين

وذكر في فتوح البلدان أن معاوية كتب الى عمر بعد موت أخيه يزيد يصف له حال السواحل فكتب اليه في مرمة حصونها وترتيب المقاتلة فيها واقامة الحرس على مناظرها [٣] واتخاذ المواقيد لها

---

(١) تقدم معنى المسالح والفروج في خبر فتوح سعد بن أبي وقاص

(٢) المخازن التي تخزن فيها الحبوب وغيرها من أموال الفيء

(٣) المناظر وتسمى في هذا العهد المناطير هي قباب مبنية على رؤس الجبال العالية بين كل بلد وآخر بحيث يقارب بعضها من بعض ويشرف بعضها على بعض وكان يقام فيها حراس يوقدون النار عند مايرون اقبال العدوّ من جهتهم فيوقد حراس المنظار الذي يليهم كذلك وهكذا حتى يصل الخبر الى المدينة أو الثغر أو المسلحة في زمن قليل فيستعدون لامداد الجهة التي أقبل منها العدوّ ولم تزل آثارها قائمة الى الآن في كثير من انحاء سوريه وقد شهدت بعض المناظر القائمة على الجبال بين دمشق وحماه الى مافوق ومعظم الموجود من بناها الى الآن هو من آثار الدول التركمانية والكردية والجركسية التي شيدوها في أيام الحروب الصليبية وعنوا بها اعتناءً عظيماً جداً

وكذلك كان تقسيم العراق وفارس فكان ذلك الوجه قسمين قسم تابع للبصرة وعليه عُتْبة بن غزوان ثم المغيرة بن شعبة ثم أبو موسى الاشعرى وقسم تابع للكوفة وعليه سعد بن أبى وقاص ثم عمّار بن ياسر ثم غيره وغيره وكانت عماله عامل هذا القسم أى قسم الكوفة كما فى رواية ابن جرير الطبرى تمتد ما بين الكوفة وحلوان والموصل وماسبذان وقرقيسياء الى البصرة ثم امتدت هذه العمالة حتى تجاوزت فارس العربية وكانت تقسم الى أقسام عليها عمال من قبل عامل الكوفة وكانت مسالحها وثغورها مما يلي الجزيرة وأرمينا الموصل وقرقيسياء وثغورها فيما يلى فارس تابعة لتقدم الجيوش فى الفتح وتجاوزها حدود البلاد الاسلامية بالطبع

وكان يتبع كل أمير حرب كاتب وقاص يقصي بين الناس كما رأيت فى باب تعبية الجيش وغيره ويتبعه أمير يسمى عامل الاقباض يحصي المغانم فاذا فتحت البلاد وتقررت الجبايه كان عامل الخراج وكان عامل الاقباض فى حرب فارس السائب بن الاقرع وعامل الخراج النعمان بن مقرّن ثم غيره وغيره وقدم بيان ذلك فى غضون أخبار الفتح فلا حاجة للمزيد

وأنت ترى انّ ذلك الترتيب هو غاية فى اصابة الغرض وبعد النظر فى تنظيم شؤون الدوله بالنسبة لذلك العصر وربما كان عمر (رض) فى نفسه نحو فارس والروم ولعله بدئ سادحاً ثم ترقى بترقي المسلمين وتقدمهم فى الفتح فى خلافة عمر (رض) بحيث تم هذا الترتيب فى سنة (١٧) كما رأيت

(ضرب النقود)

كانت العرب قبل الاسلام تتعامل بالنقود الفارسية والرومية من الدرهم والدينار واستمرّ ذلك الى ان جاء الاسلام ومضى صدر من خلافة عمر وكان الشائع استعماله بينهم يومئذ الدراهم البغلية وهى درهم فارس وكان وزن هذا الدرهم

زنة مثقال من الذهب فلما كانت سنة (١٨ هـ) ضرب عمر الدراهم على نقش الكسروية وشكلها بأعيانها غير انه زاد في بعضها الحمد لله وفي بعضها محمد رسول الله وجعلها في أواخر خلافته كل عشرة دراهم بزنة سبعة مثاقيل كما ذكر ذلك المقريزي في النقود الاسلامية الا ان عمر (رض) لم يضرب الدينار وانما ضربت الدنانير على عهد عبد الملك بن مروان . وأما نسبة الدرهم الى الدينار فقد كانت تختلف باختلاف الزمان كما سنذكر ذلك في سيرة عبد الملك بن مروان ان شاء الله وأما نسبة الدرهم والدينار الى نقود هذا الوقت لا باعتبار الوزن بل باعتبار قيمة المقومات من كل شيء بالدرهم أو الدينار فذلك يحتاج أولاً الى الوقوف على نسبة حقيقية لأجور العمال بالدرهم في صدر الاسلام ليقاس عليها مثلها في هذا العصر ونعلم القيمة الاعتبارية يومئذ للدرهم ونقاس على مثلها في هذا العصر وكل ما قيل من هذا القبيل اذا لم يبن على ذلك التقدير الصحيح فحدس وتخمين ليس من الحقيقة على شيء لان الدرهم من الفضة دون القيمة الآن ادر بما ساوى كل أربعين درهماً باعتبار الوزن ديناراً والدنانير اوح ثمنه بين ١٢ فرنكاً و ١٦ فرنكاً وهذه القيمة ربما كانت في بعض بلاد أوروبا لهذا العهد قيمة أجرة عاملين أو ثلاثة وفي بعض بلاد المشرق قيمة أجرة أربعة عمال الى الثمانية من ذوي المهن لا مما يسمونه العامل البسيط

فالدرهم والدينار لا يصح ان تكون قيمتهما الاعتبارية في صدر الاسلام كقيمتهما الآن بل أعلى وربما كان للدينار أجرة عشرين عاملاً أو أكثر والفرق بينهما لا نعلم الآن تحقيق عملهما في ذلك الوقت وعسانا نوفق الى الوقوف على حقيقة شيء من هذا القبيل فنبسطها عند الكلام على النقود الاسلامية في خلافة عبد الملك بن مروان ان شاء الله

(وضع البريد)

البريد اسم للمسافة التي بين كل محطة وأخرى من محطات البريد وهي أربعة فراسخ أو اثنا عشر ميلا ثم أطلق على حامل الرسائل وتوسعوا به الآن فأطلقوه على أضبار (أكياس) البريد وأصله على ما يقال من وضع الفرس والذي رتبه دارا ملك الفرس في القرن الخامس قبل الميلاد ثم استعمله الرومان وغيرهم من الأمم وربما نأتي على شيء من تفصيل خبره في غير هذا المحل

ثم استعمل في الاسلام وأقيم له عامل مخصوص يسمى عامل البريد وهو منفصل عن سلطة الولاة مكلف خلا عن أعمال البريد نقل أخبار الولاة والبلاد لدار الخلافة وان يكتب المهم من هذه الاخبار للخليفة ليكون على علم من أحوال الرعية والولاة وقد كانت هذه الوظيفة تارة لصاحب البريد وتارة منفصلة عنه يسمى عاملها صاحب الاخبار وسنستقصي الكلام على هذا عند وصولنا الى الكلام على دولة الخلفاء من بني امية وبني العباس ان شاء الله

وروى المؤرخون ان أول من وضع البريد في الاسلام هو معاوية بن أبي سفيان ولعله هو أول من رتبه على أصول معروفة ووضع له الخيل وأقام له المحطات والا فالبريد استعمله عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل معاوية اذ قد جاء ذكره كثيرا في سيرته ومنه ما مر في فصل علاقته مع الملوك عند ما قال عن الرسول الذي أتى بالعقد هدية من امبراطورة الروم انه بريد المسلمين وفي مناقب عمر للامام ابن الجوزي أن عمر لما أبعد نصر بن حجاج عن المدينة الى البصرة بسبب تغزل بعض النساء به قلق نصر للرجوع الى المدينة وكتب عمر الى عامله بالبصرة كتابا فمكث الرسول عنده أياما ثم نادى مناديه ألا ان بريد المسلمين يريد ان يخرج فمن كانت له حاجة فليكتب وكتب نصر بن حجاج كتابا ودسه في الكتب الى أمير المؤمنين

فمن هذا الخبر وغيره يستدل على أنّ أول واضع للبريد في الاسلام هو عمر ابن الخطاب الا انه ربما لم يكن على الوجه الذى كان بعد ولم يبلغ من الاتقان مبلغه في عصر الأمويين والعباسيين وانما هو بدء ساذج ثم ترقى بترقى الزمان

﴿ تمصير البصرة والكوفة ﴾

مصّرت البصرة سنة (١٥ ه) عن يد عتبة بن غزوان بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وكان في مكانها محل يسمى الخريبة تقيم فيه مسالح كسرى لتمنع العرب من العيث ومصّرت الكوفة سنة (١٧ ه) عن يد سعد بن أبي وقاص وكان البناء أولاً بالقصب فدب الحريق في الكوفة والبصرة فارسل سعد الى عمر نفراً يستأذنونه في البنيان باللبن (الطوب) فقال افعلوا ولا يزيد أحدكم على ثلاثة أبيات ولا تطاولوا في البنيان وكتب الى أهل البصرة بمثل ذلك فخططوا المناهج (الشوارع) على عرض عشرين ذراعا وطول أربعين ذراعا والازقة سبعة أذرع والقطائع ستين ذراعاً وبنوا المسجد الجامع في الوسط بحيث تتفرع الشوارع وكان أمرهم عمر بتخطيط الشوارع على ذلك الوجه الا انه لما ازدحمت السكان في المدينتين أخلّوا بذلك الاصل ولم يراعوا حالة التنظيم فتقدموا في البناء في الشوارع والساحات حتى ازدحمت المنازل وضاقت الشوارع واختلت أصول التنظيم التى وضعها لهم عمر رضى الله عنه وانما كان الباعث على ذلك بعد القوم عن أسباب الحضارة وعدم مراعاتهم لاصول التأنق في البنيان لقرب عهدهم بالبداوة وقد عقد العلامة ابن خلدون فصلا بهذا الصدد في مقدمته الشهيرة أغنانا عن الكلام فليرجع اليه من شاء

(التوسعة في المسجدين)

في سنة (١٧ ه) حج عمر (رض) في المسجد الحرام ووسع فيه وهدم على

قوم أبوا ان يبيعوا دورهم ووضع أثمان دورهم فى بيت المال حتى أخذوها واستأذنه أهل المياه التى على الطريق بين مكة والمدينة فى ان يبنوا منازل فى هذا الطريق فأذن لهم وشرط عليهم انّ ابن السبيل أحق بالظل والماء ، وكذلك صنع بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه هدمه ووسع فيه وأدخل دار العباس فيما زاد فيه

(جملة مآثر)

ومن مآثره ان أقام دور الضيافات وأدرّ عليها الارزاق . عن ابن سعد قال اتخذ عمر دار الدقيق فجعل فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب وما يحتاج اليه يعين به المنقطع ووضع فيما بين مكة والمدينة فى الطريق ما يصلح من ينقطع به وفى بعض الروايات انه فعل مثل ذلك أيضا بالطريق بين الشام والحجاز (ومنها) انه مرّ يوم مجيئه الشام على قوم من المجذمين ففرض لهم شيئا من بيت المال ومنعهم بذلك عن التكفف بين الناس (ومنها) أمره عمرو بن العاص بمصر بحفر الترعة التى وصلت بين النيل وبين البحر الاحمر فى عام الرمادة واستمرت كذلك الى عهد الفاطميين ثم ردمت كما سترى تفصيل الخبر عنها فى سيرة عمرو بن العاص (ومنها) ما تقدم ذكره من حفر الترع واقامة الجسور في العراق العربى والعراق العجمى (ومنها) ما تقدم ذكره أيضا من وضع الديوان واقامة الكتاب له وفرض العطاء للعساكر والمجاهدين وتقسيم الجيوش وترتيبها كما ستراه مفصلا فى سيرة سعد ابن أبي وقاص رضى الله عنه وغير ذلك من الآثار الجليلة التي تمكن من ايجادها ذلك الخليفة العظيم مع اشتغاله بالفتوح وانصراف همته لتوسيع نطاق سلطان الاسلام جزاه الله عن هذه الأمة خير الجزاء وربما أتى على اجمال آخر من آثاره عند ذكر أولاده فى غير هذا الباب ان شاء الله

باب

(أخلاقه ومناقبه)

سياسته وعدله

كانت العرب على جانب من خشونة الطباع وجفاء الخلق والاعتزاز بالعشيرة والأنفة عن الخضوع لحكم السلطان يعلمه من وقف على تاريخ هذه الامة ولما جاء الاسلام هذب أخلاق فريق منهم وهم الصحابة لمعاشرتهم للنبي عليه الصلاة والسلام ووقوفهم على حقائق الدين وإشراب قلوبهم حب الايمان والفريق الآخر الذين لم يتمكن من قلوبهم الاسلام لقرب عهدهم منه بقي في نفوسهم شيء من آثار الجاهلية لا ينتزعه الا تمادي الزمان لهذا لم يسع أبا بكر الصديق رضي الله عنه الا أن يعاملهم بالقوة الممزوجة بالرفق كما رأيت ذلك في سيرته وأخباره معهم أيام الردة ولما استخلف عمر رضي الله عنه وجد أن لا مناص له من ان يحذو في معاملتهم بالشدة حذو أبي بكر خوف النزوع الى الثورة والخروج عن حدود الاسلام وقيود الاخوة والرجوع الى الفرقة والشقاق والعصبية المضرة وقد كان رضي الله عنه شديدا بطبعه فساس أولئك الاقوام بمزيد الشدة والارهاب لما كان يتوقعه من حصول الفتن والدسائس ولو لم يقابل شدته إغراقه في العدل وكرمه في بذل المال وحكمته في وضع الثواب في محله والعقاب في محله لما استقام له أمر الخلافة كما انه لو لم يستعمل مع العرب تلك السياسة لما استقام أمر المسلمين ولخيف من حصول فتن كبرى تتكمش لها أعصاب الاسلام كما حصل ذلك بعد وفاته رضي الله عنه الا انه لم يتأت عن تلك الفتن من الضرر

ما يوازي الضرر الذي كان يتأتى عنها فيما لو حصل ذلك في أوائل خلافة عمر (رض)
وإنما خف ضرر تلك الفتن بعد لأن الإسلام كان ملأ أكناف الأرض والعرب كلهم
تفرقوا في أنحاء البلاد واشتغلوا بأمور الفتح وذاقوا لذة الملك والسلطان وأسسوا
ذلك الملك العريض الذي استحال أن تدك أساسه عواصف الفتن في خلافة
عثمان وعليّ ومعاوية رضي الله عنهم وإنما كان الفضل في هذا لعمر بن الخطاب الذي
أخذ على الأمة سبيل النزوع إلى الجاهلية الأولى ودفعها في غمار الفتح وشغلها
بمحاربة الأمم عن محاربة نفسها وربّاها على الخضوع لأولي الأمر فيما لا يكون به
حيف على النفوس ولا مساس بالدين ولا حجر على الحرية ولا تمييز بين الطبقات
وهذا منتهى ما توصف به رجال السياسة من الفضل والدهاء والعلم بسياسة الأمم
وإحكام أمور الدول وحسب عمر أنه كان كالشمس المشرقة على الآفاق لا تخفى
عليه خافية من أمور الرعية ولا تفوته ظلامة فينتصف منه أو مظلوم فينصفه حتى قيل
إنّ علمه بمن نأى من عماله كان كعلمه بمن كان عنده لأنه جعل عليهم عيونا حيثما
كانوا ينقلون إليه أخبارهم في معاملة الرعية حتى كانت أخبار الجهات كلها عنده
تأتيه بها البرد صباح مساء (1) وناهيك بالعامل الذي تندر منه نادرة أذى لأحد من

---

(1) هكذا حال الدول عندما تسير في سلم الصعود ومتى انحدرت إلى الهبوط
انقلبت عندها هذه القاعدة رأساً على عقب فتجعل الأمراء العيون على الرعية
لا على العمال يكونوا عوناً لهم على الرعية كما هي الحال الآن في ممالك الإسلام حيث
لا يستطيع أحد أن يشكو ظلم العمال وسوء الأحوال حتى أوغل الولاة في الظلم وساموا
الناس سوء العذاب وجروا العمران [illegible] أمر الدول الإسلامية في [illegible]
واحدة الملك وقوى عليها [illegible] [illegible] تشكو من هذه [illegible]
الحال [illegible] في [illegible] [illegible]
سائد على الممالك الإسلامية [illegible] [illegible] حكومات

الرعية أو يهفو هفوة فى شأن من الشؤون فانه لا يلبث أن يأتيه نذير عمر بالعزل أو التأنيب من حيث لا يشعر فلهذا املأت رهبته القلوب وخافه العمال وانقاد له الناس واستكانت لديه النفوس العاتية

أخرج ابن الجوزى فى المناقب عن عمرو بن مرة قال لقى رجلا من قريش عمر فقال لن لنا فقد ملئت قلوبنا مهابة . فقال . أفى ذلك ظلم . قال لا . قال فزادني الله فى صدوركم مهابة . وأخرج عن عبد الله بن جبير انه سمع عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما يحدث قال . مكثت سنة وأنا أريد أن أسأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن آية فلا أستطيع أن أسأله هيبة .

وأخرج ابن جرير في تاريخه عن زيد بن أسلم عن أبيه أن نفرا من المسلمين كلموا عبد الرحمن بن عوف فقالوا كلم عمر بن الخطاب فانه قد أخشانا حتى والله ما نستطيع أن نديم اليه أبصارنا قال فذكر ذلك عبد الرحمن بن عوف لعمر فقال أو قد قالوا ذلك فوالله لقد لنت لهم حتى تخوفت الله فى ذلك ولقد اشتددت عليهم حتى خشيت الله فى ذلك . وايم الله لأنا أشد منهم فرقا (خوفا) منهم منى وأخرج ابن عساكر هذا الحديث من طريق آخر وزاد عليه قول عمر فاين المخرج وقام يبكى يجر رداءه ويقول عبد الرحمن بيده أف لهم بعدك والظاهر ان عمر رضى الله عنه انما استعمل مع العرب هذه الشدة لعلمه باخلاقهم الجافية

وتلصق بهم عار الانحطاط الى دركات الضعة والذل واستسلامهم لعقيدة الرضا بالقضاء والصبر على الضيم وتخصصهم لأمم وأصبحوا يساقون بعصا الاستعباد كاليهود والهنود شاوهي مرة أخرى علامة لأمة كانت من هذا السبيل علمت منه مرتبتها في نظر العالم ..... لأمم وكيف ... لا .... بهما في اصرهم الى هذا الحد فانا لله وانا اليه راجعون

وانهم ان تظاهر لهم باللين فقد فتح لهم باب الادلال والتعجرف المعروف فيهم يدلك على هذا مارواه الحافظ ابن عساكر عن الاصمعي قال · كلم الناس عبد الرحمن بن عوف ان يكلم عمر بن الخطاب فى ان يلين لهم فانه قد أخافهم حتى أخاف الابكار فى خدورهن: فكلمه عبد الرحمن فالتفت عمر اليه فقال ياعبد الرحمن انى لأجد لهم الا ذلك والله لو انهم يعلمون مالهم عندي من الرأفة والرحمة والشفقة لاخذوا ثوبي من عاتقي والذى زاد عمر هيبة فى النفوس انه كان لا يراعى فى الحق كبيراً ولا يبالى شريفاً ولا أميراً الا فيما تقضى به الضرورة السياسية وهذا فيما لا يمَس به حق من حقوق الرعية ومن هذا القبيل حكايته المشهورة مع جبلة بن الايهم ملك غسان فانه لما أسلم ووفد على عمر بن الخطاب بأبهة الملك وحشمه تلقاه عمر بالترحيب وبينما هو يطوف يوما وطئ على إزاره أعرابىّ من بنى فزارة فضربه على وجهه فشكاه الاعرابى الى أمير المؤمنين فاستدعى عمر جبلة وقال له امّا ان ترضيه وامّا ان يضربك كما ضربته فكبر ذلك على جبلة وقال ألا تفرّقون بين الملك والسوقة قال لا قد جمع بينكما الاسلام فاستمهله الى الغد ثم أخذ قومه وفرّ بهم ليلا ولحق بالامبراطور هرقل بالقسطنطينية فارسل عمر من يسترضيه فأبى الرجوع وهذه مرتبة من انصاف الرعية وافادتهم حتى من الملوك لم يبلغها أحد غير عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومن بدائع أخباره فى انصاف افراد الرعية من الولاة مانقله فى حسن المحاضرة عن أنس قال أتى رجل من أهل مصر الى عمر بن الخطاب فقال ياأمير المؤمنين عائذ بك من الظلم قال عذت معاذاً قال سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته فجعل يضربنى بالسوط ويقول أنا ابن الاكرمين فكتب عمر الى عمرو يأمره بالقدوم عليه ويقدم بابنه عليه فقدم فقال عمر أين المصريّ خذ السوط فاضرب فجعل

يضربه بالسوط ويقول عمر اضرب ابن الأكرمين ثم قال للمصري ضعه على صلعة عمرو قال يا أمير المؤمنين انما ابنه الذي ضربني وقد اشتفيت منه فقال عمر لعمرو مذكم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً قال يا أمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتني (يعني) المصري

هذا منتهى الانصاف للرعية والعدل بين طبقات الامة وبمثله علّم الناس ان لا كبير فوق الحق ولا أمير الا دون الشريعة حتى نفسه رضي الله عنه فقد كان ينصف غيره منها ولا يمتاز نفسه امام الحق والعدل الا كواحد من الناس فقد جاء في كنز العمال عن الشعبي قال كان بين عمر وبين أبيّ بن كعب خصومة فقال عمر اجعل بيني وبينك رجلا . فجعلا زيد بن ثابت فأتياه فقال عمر أتيناك لتحكم بيننا وفي بيته تؤتى الحكَم . فلما دخلا عليه وسع له زيد عن صدر فراشه فقال ههنا يا أمير المؤمنين . فقال له عمر هذا أول جور جرت في حكمك ولكن أجلس مع خصمي فجلس بين يديه فادعى أبيّ وأنكر عمر فقال زيد لأبي أعف لأمير المؤمنين من اليمين وما كنت لأسألها لأحد غيره فحلف عمر ثم أقسم لا يدرك زيد القضاء حتى يكون عمر ورجل من عرض الناس عنده سواء (وفيه) عن عبد الله بن عكيم قال قال عمر بن الخطاب . انه لا حلم أحب الى الله تعالى من حلم امام ورفقه ولا جهل أبغض الى الله تعالى من جهل امام وخرقه ومن يعمل بالعفو فيما بين ظهريه تأتيه العافية ومن ينصف الناس من نفسه يعطى الظفر في أمره والذل في الطاعة أقرب الى البر من التعزز بالمعصية وخلا هذا فقد كان رضي الله عنه حريصا على ان لا يشكى منه ويرشد الى كل ما فيه راحة الناس وسلامة الأمة وتنكب طرق الخطأ أو الجور حتى انه من الامر ان كان كلما اجتمع اليه ناس من الامصار أو جمع عماله من كبار الصحابة يسألهم عن سيرته بين الناس ويستطلع

طلع ضمائرهم من جهة سياسته فى الرعية ولا يأبى قبول النصيحة (ومن) ذلك ما جاء فى كنز العمال عن النعمان بن بشير ان عمر بن الخطاب قال فى مجلس وحوله المهاجرون والانصار . أرأيتم لو ترخصت فى بعض الامور ما كنتم فاعلين فسكتوا فقال ذلك مرتين أو ثلاثا . فقال بشير بن سعد لو فعلت ذلك قومناك تقويم القِدح (وهو السهم المقوّم قبل ان يراش وينصل) فقال عمر . أنتم اذن أنتم اذن (استحسانا لقولهم) . وفى المناقب عن عبد الجبار بن عبد الواحد التنوخى قال قال عمر (رض) وهو على المنبر أنشدكم الله لا يعلم رجل منى عيبا الا عابه فقال رجل نعم يا أمير المؤمنين تديل بين البردين وتجمع بين الادمين ولا يسع ذلك الناس قال فما أذال بين بردين ولا جمع بين أدمين حتى لقى الله . وقوله يديل بين بردين أى يلبس قميصا ويخليه ويلبس غيره (وذكر) بعض المؤرخين انه خطب يوما فقال . أيها الناس من رأى منكم فيّ اعوجاجا فليقومه فقام رجل فقال . والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا . فقال عمر . الحمد لله الذى أوجد فى المسلمين من يقوّم اعوجاج عمر بسيفه

الا انى لم أقف على سند لهذه الخطبة وهى ان صحت فربما تكون من قبيل الخبر الاول لا خطبة . وأنت ترى من هذه الاخبار الى أية درجة بلغت حرية الضمائر وحب العدل بالمسلمين يومئذ ومنها تعلم انهم انما سادوا بقول الحق وتعشق الحرية واستقلال الضمائر لا بالذل والخنوع والتقيد بقيود العبودية الى ما تقيدت بها قوم الاصر تهم بالهلاك وسودت عليهم لا مم كما سودت العرش الآن على مائتى مليون من المسلمين اتخذوا رؤساءهم أولياء من دون الله بعد ما كانوا لى هوة للدمار وبعدوا من آثار ما لكهم العظيم للدمار .

وفى كنز العمال عن سلمة بن شهاب العبدي قال قال عمر بن الخطاب أيها

الرعية إنّ لنا عليكم حق النصيحة بالغيب والمعاونة على الخير وانه ليس شيء أحب الى الله تعالى وأعم نفعاً من حلم امام ورفقه وليس شيء أبغض الى الله تعالى من جهل امام وخرقه

(ومن سياسته) في تقويم أخلاق الناس وحملهم على المحجة الواضحة في الاعمال وان لهم ما تكنه السرائر ما جاء في كنز العمال أيضا من حديث عتبة بن مسعود قال. سمعت عمر بن الخطاب يقول. ان ناساً كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وان الوحي قد انقطع وانما نأخذكم الآن بما ظهر من أعمالكم فمن أظهر لنا خيراً أمناه وقربناه وليس لنا من سريرته شيء الله يحاسبه في سريرته. ومن أظهر لنا شراً لم نأمنه ولم نصدقه وان قال ان سريرته حسنة. وانما يعرض بهذا بالمنافقين تنبيها لهم الى انه مراقب لاعمالهم

ومع انه كان يأخذ الناس بهذه الطريقة ويحملهم على الاستقامة في الاعمال فانه كان يحذرهم من خيانة السرائر وينهاهم عن التردد في الامور ويرشدهم الى الجمع بين العزيمة والنية سوقاً لهم الى الاستقامة في العمل والحزم في الرأي فقد أخرج ابن جرير الطبري في تاريخه عن عمر بن مُجاشع قال قال عمر بن الخطاب القوة في العمل ان لا تؤخر عمل اليوم لغد. والامانة أن لا تخالف سريرةٌ علانيةً واتقوا الله عز وجل فانما التقوى بالتوقي ومن يتق الله يقه.

وهكذا رضي الله عنه كان في رعيته كالوالد الرؤوف يوالیهم بالنصائح ويرشدهم الى سبيل الخير والسعادة ويأمرهم بالتقوي والعدل والتآلف والاجتماع وينهاهم عن التحزب والتفرق وخصوصاً قريشا فانه كان لا يسام لهم على أمر ولا يدعهم ساعة من نصيحة لانهم قدوة الناس وأئمة العرب

أخرج الطبري عن ابن عباس أنّ عمر قال لناس من قريش بلغني انكم

تحذون مجالس لا يجالس اثنان معاً حتى يقال من صحابة فلان من جلساء فلان حتى تحوميت المجالس وأيم الله ان هذا السريع في دينكم سريع في شرفكم سريع في ذات بينكم ولكأني بمن يأتي بعدكم يقول هذا رأى فلان . قد قسموا الاسلام أقساماً . أفيضوا مجالسكم بينكم وتجالسوا معاً فانه أدوم لألفتكم وأهيب لكم في الناس اللهم ملوني ومللتهم وأحسست من نفسي واحسوا مني ولا ادري بأيها يكون الكون وقد اعلم ان لهم قبيلاً منهم فاقبضني اليك .

ومن جميل سياسته انه كان يعلم من نفسه الشدة ولا يرضى لعماله ان يكونوا مثله لهذا عزل خالد بن الوليد عن الامارة وجعل بدله أبا عبيدة بن الجراح وكان عماله جميعهم ممن عرفوا باللين والاناة كأبي عبيدة وسعد بن أبي وقاص وعتبة ابن غزوان وحذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف وأضرابهم الا بعض القواد وربما كانوا على شيء من الشدة وذلك يكون في مثلهم بالطبع ومع شدته رضي الله عنه فقد كان يوصي عماله بالرفق والعدل والاناة وعدم الايغال في العقوبة ومن كرهه للايغال في العقوبة ان أرسل مرة الى أبي موسى الاشعري وقد اشتد في العقوبة على بعضهم يهدده بالعقاب اذا عاد الى مثلها

جاء في كنز العمال عن ابن عمر قال كنت مع عمر في حج (أو عمرة) فاذا نحن براكب قال عمر أرى هذا يطلبنا فجاء الرجل فبكى قال ما شأنك إن كنت غارماً أعناك وان كنت خائفاً أمناك الا ان تكون قتلت نفساً فتقتل بها وان كنت كرهت جوار قوم حولناك عنهم قال اني شربت الخمر وأنا أحد بني تيم وان أبا موسى جلدني وحلقني وسود وجهي وطاف بي الناس وقال لا تجالسوه ولا تؤاكلوه فحدثت نفسي باحدى ثلاث اما ان اتخذ سيفاً فاضرب به أبا موسى . واما ان آتيك فتحولني الى الشام فانهم لا يعرفوني . واما ان الحق

بالعدو فآ كل معهم واشرب . فبكى عمر ، قال ما يسرني انك فعلت وان لعمر كذا وكذا واني كنت لاشرب الناس لها في الجاهلية وانها ليست كالزنا . وكتب الى أبي موسى ما صورته

سلام عليك أما بعد فانّ فلان بن فلان التيمي أخبرني بكذا وكذا وأيم الله اني ان عدت لاسوّدن وجهك ولأطوفن بك في الناس فان أردت ان تعلم حق ما أقول فعد . فأمر الناس ان يجالسوه ويؤاكلوه فان تاب فاقبلوا شهادته . وحمله عمر (أي أركبه) واعطاه مائتي درهم

ومن جميل سياسته اهتمامه باهل الذمة الذين دخلوا في عهد المسلمين وسلطانهم من الشعوب غير المسلمين ووصاياه للعمال بالحرص على راحتهم وتجنب ظلمهم وأذاهم وبلغ اهتمامه بهم ان كان اذا غابت عنه أخبارهم أو بلغه أقل شيء عنهم يستدعي ذوي امانة من المسلمين الذين أقاموا في بلادهم ويسألهم عن أحوالهم ويستقصي سيرة العمال معهم ومن ذلك ما رواه الطبري في تاريخه ان عمر (رض) كتب الى أمير البصرة ان يبعث له جماعة من ذوي الرأي والبصيرة فارسل اليه وفداً فيهم الاحنف بن قيس فسألهم عن أهل الذمة وهل يشكون ظلماً أو حيفاً فاجابوه بالسلب ولم يطمئن الى قولهم حتى استوثق من الاحنف وكان يثق بصدقه ثم صرفهم

ومن أجمل ما يؤثر عنه من الرفق باهل الذمة ما جاء في كنز العمال ان عمر مرّ بشيخ من أهل الذمة يسئل على أبواب المساجد فقال ما انصفناك كنا أخذنا منك الجزية في شبيبتك ثم ضيعناك في كبرك ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه

ومن حسن سياسته تقدمه الى قواده ان لا يمسكوا الجند في الغزو أكثر من أربعة أشهر وسببه انه كان يطوف بالمدينة على عادته فسمع امرأة من وراء بابها تقول

تطاول هذا الليل واسودّ جانبه ... وأرّقني أن لا خليل ألاعبهُ

فلولا حذار الله لا شيء مثله ... لزُحزح من هذا السرير جوانبهُ

فكتب عمر الى عماله ان لا يغيب أحد بالغزو ونعم الرأى

ومن سياسته توقيفه الحدود عند الضرورة الداعية لذلك فقد أخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن حكيم بن عمير قال كتب عمر بن الخطاب ألاَ لا يجلدنّ أمير جيش ولا سرية أحداً الحد حتى يطلع الدرب لئلا تحمله حمية الشيطان ان يلحق بالكفار

ومن سياسته انه كان يحبس عن العمل كثيراً من كبار الصحابة منهم من كان لا يستعمله خوفاً على دينه من ان يدنسه بالولاية فقد اخرج ابن سعد عن عمران بن عبد الله قال قال أبيّ بن كعب لعمر بن الخطاب مالك لا تستعملني. قال اكره ان تدنس دينك

ومنهم من لا يستعمله خشية ان يحمله على رقاب الناس أو خشية ان تحدثه نفسه بالامارة اذا ابعده عن مراقبته وهؤلاء هم بنو هاشم لما كان يتفرّسه فيهم من التطلع الى الامارة ففي مروج الذهب للمسعودي عن عبد الله بن عباس أنّ عمر أرسل اليه فقال يا بن عباس انّ عامل حمص هلك وكان من أهل الخير وأهل الخير قليل وقد رجوت ان تكون منهم وفي نفسي منك شيء لم أره منك وأعياني ذلك فما رأيك في العمل قال لن أعمل حتى تخبرني بالذي في نفسك . قال وما تريد الى ذلك قال أريده فان كان شيء أخاف منه على نفسي خشيت منه عليها الذي خشيت وان كنت بريئاً من مثله علمت اني لست من أهله فقبلت عملك هنالك فاني قلما رأيت طلبت شيئاً الا عاجلته فقال يا بن عباس اني خشيت ان يأتي عليّ الذي هو آت وانت في عملك فتقول هلمّ الينا ولا هلمّ اليكم دون غيركم

انى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلّم استعمل الناس وتركـكم : قال (اى ابن عباس) والله قد رأيتُ من ذلك فلم تراه فعل ذلك : قال (أي عمر) والله ما أدري أضنّ بكم عن العمل فأهل ذلك أنتم أم خشى أن تبايعوا بمنزلتكم منه فيقع العقاب ولا بدّ من عتاب فقد فرغت لك فما رأيك قال (أى ابن عباس) أراني لا أعمل لك قال ولم . قلت ان عملت لك وفي نفسك ما فيها لم أبرح قذى فى عينك قال · فأشر عليّ ؛ قلت اني أرى ان تستعمل صحيحا منك صحيحا لك

ومن سياسته تقدمه الى العمال بان لا يأذنوا لاحد من جنود المسلمين ان يزرع أو يزارع فى البلاد المفتتحة وان لا يقطعوا أرضاً لاحد منهم البتة وذلك لامور الامر الأول كي لا يزاحم المسلمون أهل الذمه والعهد فى أرضيهم ويضيّقوا عليهم فى معيشتهم والامر الثانى كي لا يألف الجند الاعمال فى الارض فى إبّان الفتح فتميل نفوسهم الى الراحة من عناء الحرب والأمة حربية لم يأن لها اطراح لأمة القتال واعتزال الحرب والاخلاد الى الراحة والترف والامر الثالث كى تبقى الارض فى يد أهلها مادة تستمد منها الدوله ما يقوم بشؤونها العسكرية والادارية ولا يحتكرها المقتطعون من جنده فتعدم مادة القوّة عن الدوله الاسلامية فيما بعد ولا تجد من المال ما يكفى لمن يقوم من الجند بحراسة البلاد وقد مرّ الشاهد على سياسته هذه فى غير ما محل من هذا الكتاب ومنه ما كتبه الى عمال العراق وعمرو بن العاص في مصر كما رأيت ذلك في فصل (كيف يكون الاستعمار) وأخباره في سياسته طويلة نكتفى منها بما تقدم دلاله على الباقى

﴿ نظرة في بعض الاخبار المتعلقة باهل الذمة ﴾

قد رأيت في هذا الباب وفى باب اجلاء عمر لاهل نجران وسترى في باب اخباره واقواله كيف كانت سياسة عمر مع اهل الذمة وكيف كان شديد الحرص

على راحتهم حاثا العمال على انصافهم وعدم ايذائهم ومن كان هذا شأنه مع القوم فيستحيل على العقل التصديق بما يناقض سيرته هذه معهم وقد اورد بعض ارباب السير ونقلة الحديث خبرين عن عمر يتعلقان بأهل الذمة احدهما امره لعامله في العراق بختم رقاب اهل الذمة من الفرس بالرصاص والثاني تقدمه الى العمال ان لا يحدث النصارى في امصار المسلمين (اي التي مصرها المسلمون خاصة كالبصرة والكوفة) بيعة ولا يرفعوا صليبا على انّ هذين الخبرين وماشابههما قد وهّن روايتها اهل الحديث وحفاظه وقالوا إنها موضوعة وقد اورد الامام الشوكاني في نيل الاوطار الحديث الثاني عن البيهقي وعن الحافظ الحراني باختلاف بينهما باللفظ وقال عن الاول في اسناده ضعف وعن الثاني في اسناده حنش وهو ضعيف ويريد بحنش احد المطعون بهم في رواية الحديث .

فلا ندري ماهو الباعث لقرني الوضاعين على وضع امثال هذه الاحاديث أهو الجهل بمقاصد الاسلام الذي جاء للتأليف بين القلوب والتعارف بين الشعوب (يا أيّها الناس انّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا انّ أكرمكم عند الله اتقاكم) ام ذلك شيء دس في الاخبار وتناقله الرواة مع الغفلة عن مقاصد الشرع

ليس بعجيب على الكذابين أو المنافقين او الجاهلين ان يدسوا ماشاؤا في الاخبار انما العجيب ان ينقلها بعض المؤرخين والعلماء الأعلام على علاتها كما نقل ابن الجوزي وهو امام معروف الخبر الثاني في مناقب عمر دون التنبيه على ضعفه واعتاجرّ بلاء التشيع وبعث روح التفرق وانسى المسلمين اصول التألف والتحاب حتى بين أنفسهم بانتشار امثال هذه الاحاديث والأخبار في كتب الخاصة مع علمهم بان منها الكاذب ومنها ضعيف السند وما دعاهم الى نقلها توهم

انها قربى يتقرب بها الى الدين او يتعصب بها له مع ان التعصب للدين هو التمسك به والذود عن حوضه واعزاز جانبه وجانب اهله بارشادهم الى ان السيادة على الامم انما هي بمسابقتهم في مضمار الحياة الاجتماعية لا بايذاء الغير في دينه وحريته والله تعالى يقول (لكم دينكم ولي دين) ولو اراد الاسلام ايذاء الذمي في حريته الدينية والشخصية لامر باكراه اهل الكتاب على الاسلام كما امر باكراه مشركي العرب . ومن ثم فلو فرض ورود امثال تلك الاخبار سواء عن عمر (رض) او عن غيره فلا ينبغي لها ان تحمل على ما يناقض اصول الدين بل تحمل على الضرورة السياسية التي ربما تدعو اليها سياسة الفتح كما يدل عليه تخصيص امر عمر لو صح الخبر عنه بعصر مخصوص اذ لا بد لكل فاتح من اظهار الشدة في بادئ الامر بما يشبه ما يسمونه الآن الادارة العرفية او العسكرية ريثما تثبت قدمه في البلاد وتسكن الى حكمه نفوس المغلوبين هذا من جهة ومن جهة ثانية فربما كان لجدة العرب في الدين وعدم تمكن عقائدهم منه لقرب عهدهم به دخل في مثل تلك السياسة التي يراد بها المحافظة على عقائد العرب يومئذ من ان يتطرق اليها اهل جوارهم من الكتابيين بشيء من الافساد لقرب عهدهم بالوثنية واغراقهم في الجهل كما كان لهذه السياسة دخل في اجلاء اهل نجران ومن هذا القبيل الخبر الذي نحن بصدد الكلام عليه وهو خبر تقدم عمر الى عماله بعدم احداث النصارى بيعاً في الامصار التي مصرها المسلمون هذا على فرض صحته وهو لم يصح كما رأيت وعلى هذا القصد ينبغي ان يحمل كل ما جاء من الاحاديث والاخبار التي من هذا القبيل لا على قصد ايجاد النفرة بين المسلمين واهل الكتاب لا سيما والمحذور الذي كان يدور في خلد الصحابة ويخشاه النبي صلى الله عليه وسلم على العرب يومئذ كان قد زال بزوال سببه ولا يحمل هذه الاخبار على غير هذا المحمل الذي بسطناه

الآجاهل بمقاصد الاسلام غير عالم بان الدين الذى يأمر أهله بمعاشرة أهل الذمة بالمعروف ومعاملتهم بالانصاف وعدم ايذائهم فى حال من الاحوال لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم لا يناهض نفسه ويأتي بما يخالف عدله ولكن العقلاء الذين يصمون الامور موضع النقد والمحاكمة قليل وآفة العلم اتباعهم بما يوافق الهوى لا الحق والسلام

أخباره مع عماله

ووصاياه لهم

كان رضى الله عنه شديد المراقبة لعماله كثير السؤال عن سيرتهم وأخبارهم وبلغ به ذلك أن أقام عليهم العيون يوافونه بأخبارهم وجعل أحد الصحابة وهو من من أهل التقى والصدق واسمه محمد بن مَسْلَمة قاصاً أى محققاً لأخبارهم ومقتصاً لآثارهم فاذا شكا أحد من الرعية أحداً من العمال أرسل محمداً المذكور يقتص الخبر ويحقق الشكوى تحقيقاً علنياً لا فى السر كي لا يؤخذ العامل بوشاية واش أو سعاية مغتر فيذهب ويجمع اليه الناس فى المسجد وربما طاف عليهم فى أحيائهم يسألهم عن علمهم بسيرة الامير وبأسباب الشكوى منه ومن ذلك ما ذكره الطبرى فى تاريخه عند الخبر عن إرسال الجيوش الى نهاوند فى أخبار سنة (٢١) قال ونزل بسعد (أى ابن أبى وقاص) أقوام وألبوا عليه فيما بين تراسل القوم واجتماعهم الى نهاوند ولم يشغلهم ما دهم المسلمين من ذلك وكان ممن نهض الجراح بن سنان الأسدي فى نفر فقال عمر ان الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم فى هذا الامر وقد استعد لكم من استعد وأيم الله لا يمنعني ذلك من النظر فيما لديكم وان نزلوا (أى الفرس) بكم فبعث عمر محمد بن مسلمة والناس فى الاستعداد للاعاجم والاعاجم فى الاجتماع وكان محمد بن مسلمة هو صاحب العمال الذى يقتص آثار

من شكي زمان عمر [١] فقدم محمد على سعد ليطوف به على أهل الكوفة والبعوث تضرب على أهل الامصار الى نهاوند فطوف به على مساجد أهل الكوفة لا يتعرض للمسئلة عنه فى السر وليست المسئلة فى السر من شأنهم اذ ذاك . وكان لا يقف على مسجد فيسئلهم عن سعد الا قالوا لا نعلم الا خيرا ولا نشتهي به بدلا ولا نقول فيه ولا نعين عليه الا من مالأ الجراح بن سنان وأصحابه فانهم كانوا يسكتون ولا يقولون سوءاً الى ان قال الطبرى وخرج محمد به (أى بسعد) وبهم الى عمر حتى قدموا عليه فأخبره الخبر فسأله عمر عن أوجه الشكوى فأنكرها ولم يسمعهم إثباتها فردهم عمر وخشى اذا أتى سعداً على الكوفة أن يكون بينهم وبينه أمر فعزله احتياطاً وسأله من خليفتك على الكوفة فقال له عبدالله بن عبدالله بن عتبان فأقره

ومنه تعلم كيف كان رضى الله عنه مراقباً لعماله كثير التحقيق عن أخبارهم لا يتعجل فى أمرهم اذا جاءته شكاية على أحدهم بل يتثبت الخبر بنفسه ويحققه بمواجهته فان ثبت عليه شئ مما يدعيه الشاكي عزله وله بهذا الصدد أخبار كثيرة مع عماله ربما نأتى على شئ منها فى سيرة أشهر المشهورين من رجاله ان شاء الله تعالى

وكان رضى الله عنه لا يحب أن يفرق عماله فى المعاملة بين الحر والعبد ولا بين القوي والضعيف أخرج بن جرير الطبرى عن الاسود بن يزيد قال كان الوفد اذا قدموا على عمر (رض) سألهم عن أميرهم فيقولون خيراً فيقول هل يعود مرضاكم فيقولون نعم فيقول هل يعود العبد فيقولون نعم فيقول كيف صنيعه بالضعيف وهل يجلس على بابه فان قالوا لا عزله

---

(١) وظيفة محمد بن مسلمة هذه تشبه وظيفة المفتشين لهذا العهد

وكان رضي الله عنه لا يغفل عن أن يرسل الاوامر الى عماله تباعاً في أن يعدلوا ولا يظلموا ولا يأخذوا بالظنة ولا يبغوا أو يغدروا ومن ذلك انه لما وفد عليه الاحنف بن قيس وسأله عن حال الذمة في ولاية البصرة وصَرَفه كما تقدم الخبر عن ذلك في الفصل السابق كتب معه كتاباً الى عتبة بن غزوان أمير البصرة يوصيه فيه بأهل الذمة هذه صورته (عن تاريخ الطبري)

أعزِب الناس عن الظلم واتقوا واحذروا أن يدال عليكم لغدرٍ يكون منكم أو بغي فانكم انما أدركتم بالله ما أدركتم على عهدٍ عاهدكم عليه وقد تقدّم اليكم فيما أخذ عليكم فأوفوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عوناً وناصراً

وبلغه مرةً ان جزء بن معاوية حفر نهراً عامله على الاهواز برل جبل الاهواز والناس يختلفون اليه والجبل كؤود يشقّ على من رامه فكتب اليه ما صورته نقلا عن تاريخ الطبري في حوادث سنة (١٧)

(أما بعد) فلقد بلغني انك نزلت منزلاً كؤوداً لا تؤتى فيه الا على مشقة فأسهل ولا تشق على مسلم ولا على معاهد وقم في أمرك على رِجْلٍ تُدرك الآخرة وتصفُ لك الدنيا ولا تدركنّك فَتْرَةٌ ولا عجلة فتكدّرَ دنياك وتذهب آخرتك

هذه لعمري الرأفة بالرعية وهذا منتهى الحنان وغاية الحرص على راحة الناس فالله أكبر ان خليفة لا يغفل حتى عن أمثال هذه الجزئيات لخليفة لا يخلقه الزمان ولا يوهن له سلطان ولا يمحى ذكره عن صفحات الجنان فرضي الله عنه وأرضاه

ومن وصاياه للعمال ما أخرجه الطبري عن أبي عمران الجَوْنيّ قال كتب عمر الى أبي موسى انه لم يزل للناس وجوه يرفعون حوائجهم فأكرم من قِبَلك من وجوه الناس وبحسب المسلم الضعيف من العدل ان ينصف في الحكم وفي القسم

ومراده بهذه الوصية أن يكرم أبو موسى وجوه الناس ليألفوه ويرفعوا اليه حوائج المسلمين وأمور الضعفاء كي يكون عارفاً بحاجات الرعية من كل الطبقات فينصف هذا فى الحكم وذلك فى القسم ولا يفوت عدله فرداً من أفراد الرعية الذين لا يصلون اليه

وأخرج عن أبى فراس قال خطب عمر بن الخطاب فقال يا أيها الناس اني والله ما أرسل عمالاً اليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ولكني أرسلهم اليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم (وفى روايه ويقصوا بينكم بالحق ويحكموا بينكم بالعدل) فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه الى فوالذى نفس عمر بيده لأقصنّه منه [1] فوثب عمرو بن العاص فقال يا أمير المؤمنين أرأيت ان كان رجل من أمراء المسلمين على رعيته فأدب بعض رعيته انك لتقصه منه قال إى والذى نفس عمر بيده اذاً لأقصه منه وكيف لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه . ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تجمروهم فتفتنوهم ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم

وعن أبى رواحة قال كتب عمر بن الخطاب الى العمال اجعلوا الناس عندكم فى الحق سواء قريبهم كبعيدهم وبعيدهم كقريبهم اياكم والرشا والحكم بالهوى وان تأخذوا الناس عند الغضب فقوموا بالحق ولو ساعة من نهار

وروى الطبرى ان عمر كان يقول فى عماله اللهم انى لم أبعثهم ليضربوا أبشارهم من ظلمه أميره فلا إمرة عليه دونى ومع كل هذا التشديد على العمال فانه رضى الله عنه كان دائماً قلقاً على الرعية خائفاً من ان يجار عليهم بأمر لا يصله

(١) يعنى تمكين خصمه من الاقتصاص منه أو نقتص له منه

خبره لهذا عزم قبيل قتله ان يسافر ويطوف على العمال جميعهم ليبحث عن أمور الرعية ويقضي حاجاتهم . فقد أخرج الطبري عن الحسن قال : قال عمر بن الخطاب لئن عشت ان شاء الله لأسيرن في الرعية حولاً فاني أعلم ان للناس حوائج تقطع دوني أما عمالهم فلا يرفعونها الي وأما هم فلا يصلون الي فأسير الى الشام فأقيم بها شهرين ثم أسير الى الجزيرة فأقيم بها شهرين ثم أسير الى مصر فأقيم بها شهرين ثم أسير الى البحرين فأقيم بها شهرين ثم أسير الى الكوفة فأقيم بها شهرين ثم أسير الى البصرة فأقيم بها شهرين والله نعم الحول هذا . ونحن نقول نعم الخليفة هذا ولا والله لا يخلفه خليفة في المسلمين ولا يدانيه ملك من ملوك الارض أجمعين

هكذا كان قلقه على الرعية وتطلعه الى أخبار العمال مع تحريه في انتخابهم أهل الامانة والتقى والكفاءة لولاية أمور الرعية حتى كان أكثر عماله ناهجين في العدل منهجه سالكين في الزهد والورع والعفة طريقه ففي عماله سلمان الفارسي وكان عاملا له على المدائن وكان على جانب من الزهد والتقى والصلاح عظيم فكان يلبس الصوف ويركب الحمار ببردعته بغير إكاف ويأكل خبز الشعير فلما احتضر بالمدائن قال له سعد بن أبي وقاص يا أبا عبد الله اذكر الله عند همك اذا هممت وعند لسانك اذا حكمت وعند يدك اذا قسمت فجعل سلمان يبكي فقال له يا أبا عبد الله ما يبكيك قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان في الآخرة عقبة لا يقطعها الا المخفون وأرى هذه الاساودة (جمع سواد وهو المال الكثير) حولي فنظروا فلم يجدوا في البيت الا اداوة وركوة ومطهرة

وكان عامله على الشام أبا عبيدة بن الجراح وكان ظاهر اللباس وعليه الصوف الجافي فعذل على ذلك وقيل له انك بالشام وأمير المؤمنين وحولك الاعداء فغير من زيك وأصلح من شارتك فقال ما كنت بالذي أترك ما كنت عليه في عصر

رسول الله صلى الله عليه وسلم

وكان عامله على حمص سعيد بن عامر بن حذيم فشكاه أهل حمص اليه وسألوه عزله : فقال عمر اللهم لا تفل فراستي فيهم . ماذا تشكون منه . قالوا لا يخرج الينا حتى يرتفع النهار ولا يجيب أحداً بليل وله يوم في الشهر لا يخرج الينا فقال عمر عليّ به فلما جمع بينه وبينهم وقال ما تنقمون منه قالوا لا يخرج الينا حتى يرتفع النهار . فقال ما تقول ياسعيد فقال ياأمير المؤمنين انه ليس لاهلي خادم فاعجن عجيني ثم أجلس حتى يختمر ثم أخبز خبزي ثم أتوضأ وأخرج اليهم . قال وماذا تنقمون منه . قالوا لا يجيب بليل . قال قد كنت أكره أن أذكر هذا اني جعلت الليل كله لربي وجعلت النهار لهم . قال وماذا تنقمون منه . قالوا له يوم في الشهر لا يخرج الينا . قال نعم ليس لي خادم فاغسل ثوبي ثم أجففه فأمسي . فقال عمر الحمد لله الذي لم يفلّ فراستي فيكم ياأهل حمص فاستوصوا بواليكم خيراً . ثم ان عمر بعث اليه بألف دينار وقال استعن بها . فقالت له امرأته قد أغنانا الله عن خدمتك فقال لها ألا ندفعها لمن يأتينا أحوج ما كنا اليه قالت بلى فصرها صرراً ثم دفعها لمن يثق به وقال انطلق بهذه الى فلان وبهذه الى يتيم بني فلان ومسكين آل فلان حتى بقي منها شيء يسير فدفعه الى امرأته وقال أنفقي هذه ثم عاد الى خدمته فقالت له امرأته ألا تبعث بذلك المال فتشتري لنا منه خادماً فقال سيأتيك أحوج ما تكونين اليه

هكذا كان معظم عمال عمر رضي الله عنه فكيف لا يكون عصره أسعد العصور على المسلمين وأعظمها بركة على الرعية ولا جرم فالخليفة الصالح لا يختار من العمال الا الصلحاء العدول والناس على دين ملوكهم والعمال يسلكون طرائق ملوكهم فان كان الملوك ظالمين ظلم العمال وان كانوا عادلين عدلوا

وكان رضي الله عنه يكره احتجاب العمال عن الرعية ويبالغ في حب ظهورهم للناس فان بلغه أن عاملا احتجب عن الرعية نكل به أشد تنكيل فقد روى الطبري أن سعد بن أبي وقاص لما بني دار الامارة في الكوفة وكانت الاسواق قريبة منه وعوعاؤهم تمنع سعداً الحديث ادّعى الناس عليه مالم يقل وقالوا قال سعد سكّن عني الصويت وبلغ عمر ذلك وانّ الناس يسمون الدار قصر سعد فدعا محمد بن مسلمة فسرّحه الى الكوفة وقال أعمد الى القصر حتى تحرق بابه ثم ارجع عودك على بدئك فخرج حتى قدم الكوفة فاشترى حطباً ثم أتى به الى القصر فأحرق الباب وأتي سعد فأخبر الخبر فقال . هذا رسول أُرسل لهذا الشأن وبعث ليبطر من هو فاذا هو محمد بن مسلمة فأرسل اليه رسولاً بأن أدخل فأبى فخرج اليه سعد فأراده على الدخول والنزول فأبى وعرض عليه نفقة فلم يأخذ ودفع كتاب عمر الى سعد وفيه

بلغني انك بنيت قصراً اتخذته حصناً ويسمى قصر سعد وجعلت بينك وبين الناس باباً فليس بقصرك ولكنه قصر الخبال انزل منه منزلاً مما يلي بيوت الاموال وأغلقه ولاتجعل على القصر باباً تمنع الناس من دخوله وتنفيهم به عن حقوقهم ليوافقوا مجالسك ومخرجك من دارك اذا خرجت

فحلف له سعد ماقال الذي قالوا ورجع محمد بن مسلمة من فوره حتى اذا دنا من المدينة فني زاده فتبلّغ بلحاء الشجر فقدم على عمر فسأله فأخبره الخبر كله فقال له هلا قبلت من سعد فقال لو أردت ذلك كتبت لي به أو أذنت لي فيه فقال عمر ان أكمل الرجال رأياً من اذا لم يكن عنده عهد من صاحبه عمل بالحزم أو قال به ولم ينكل

وأخبره بيمين سعد وقوله فصدق سعداً وقال هو أصدق ممن روى

عليه وأملغني

جاء في كنز العمال عن عاصم بن أبي النجود أن عمر بن الخطاب كان اذا بعث عماله شرط عليهم ان لا تركبوا برذوناً ولا تأكلوا نقياً ولا تلبسوا رقيقاً ولا تغلقوا ابوابكم دون حوائج الناس. إن فعلتم شيئاً من ذلك فقد حلت بكم العقوبة ثم يشيعهم فاذا أراد أن يرجع قال اني لم أسلطكم على دما المسلمين ولا على أعشارهم ولا على أبشارهم [1] ولا على اعراضهم ولا على اموالهم ولكني بعثتكم لتقيموا بهم الصلاة وتقسموا فيهم فيئهم وتحكموا بينهم بالعدل فان أشكل عليكم شيء فارفعوه الي ألا فلا تضربوا العرب فتذلوها ولا تجمروها [2] فتفتنوها ولا تعتلوا عليها فتحرموها جودوا القرآن (وفي رواية) وأقلوا من الرواية

وكان اذا بلغه عن أحد من عماله أمر يخل بالمروءة عزله في الحال ففي المناقب لأبي الفرج بن الجوزي عن بن سعد قال. كان عمر بن الخطاب استعمل النعمان ابن نضلة على ميسان وكان يقول الشعر فقال.

ألا هل أتى الحسناء ان حليلها بميسان يسقى في زجاج وحنتم

في أبيات يقول في ختامها

لعل أمير المؤمنين يسوءه تنادمنا بالجوسق المهدم

فلما بلغ عمر قوله قال. نعم والله انه ليسوؤني من لقيه فليخبره اني قد عزلته فقدم عليه رجل من قومه فاخبره بعزله فقدم على عمر فقال والله ما أحب شيأ مما قلت ولكن كنت امرءاً شاعراً وجدت فضلا من قول فقلت فيه الشعر فقال عمر والله لا تعمل لي على عمل ما بقيت. وفي روايه عن عثمان الحزامي عن أبيه قال

(١) كناية عن أجسامهم وأموالهم (٢) قال في القاموس جمره تجميرا جمعه والقوم على الامر تجمعوا في ال قال والجيش حبسهم في أرض العدو ولعله هو المراد

لما بلغ عمر بن الخطاب هذا الشعر كتب الى النعمان بن نضلة « بسم الله الرحمن الرحيم » حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا اله الا هو اليه المصير . أما بعد فقد بلغني قولك

لعل أمير المؤمنين يسوءه تنادمنا بالجوسق المتهدم

وايم الله انه ليسوءني وعزله

ومن عجيب سياسته مع العمال انه كان يحصي اموالهم قبل العمل وما زاد بعده يصادرهم على كله او بعضه ومن هذا ما رواه الطبري ان عمر استعمل عُتْبة بن أبي سفيان على كنانة فقدم المدينة بمال فقال له ما هذا يا عتبة قال مال خرجت به معي وتجرت فيه . قال ومالك تخرج المال معك في هذا الوجه فصيّره في بيت المال .

وروى ان خالداً لما أدرب هو وعياض الى بلاد الروم انتجعه من العراق رجال منهم الاشعث بن قيس فوصله بعشرة آلاف درهم فبلغ ذلك عمر فكتب الى أبي عبيدة أن يحصي مال خالد ويصادره على النصف فدعاه وتلا عليه أمر أمير المؤمنين وصادره على نصف ماله حتى الخفين أخذ منهما واحداً وترك له الآخر وكان خالد بن الوليد أميراً على قنسرين من قبَل أبي عبيدة لا من قبل عمر وفي رواية أخرى للطبري أن عمر كان لا يخفى عليه شيء في عمله فكتب اليه من العراق بخروج من خرج من الشام وبجائزة من أجيز فدعا البريد وكتب معه الى أبي عبيدة أن يقيم خالداً ويعقله بعمامته وينزع عنه قَلَنْسُوَته حتى يعلمهم من أين أجاز الاشعث أمن ماله أم من اصابة أصابها (يعني من المغنم) فان زعم انها من اصابة أصابها فقد أقرّ بخيانة وان زعم انها من ماله فقد اسرف واعزله على كل حال واضمم اليك عمله . فكتب ابو عبيدة الى خالد فقدم عليه ثم جمع الناس وجلس لهم على المنبر فقام البريد فقال أمن مالك أجزت بعشرة آلاف أم من اصابة فلم يجبه حتى اكثر عليه

وأبو عبيدة ساكت لا يقول شيئاً فقام بلال (مولى رسول الله) صلى الله عليه وسلم اليه فقال ان أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا ثم تناول قلنسوته فعقله بعمامته وقال ماتقول أمن مالك أم من اصابة قال لا بل من مالي فأطلقه وأعاد قلنسوته ثم عممه بيده ثم قال (نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا) وأقام خالد متحيراً لا يعلم أمعزول هو أم غير معزول وأبو عبيدة لا يخبره كرامة له وكأن عمر لما أبطأ عليه الخبر علم بالذي كان فكتب الى خالد بالقدوم عليه فعتب خالد على أبي عبيدة لانه لم يعلمه بأمر عمر من قبل فقال أبو عبيدة اني والله ما كنت لأروعك ما وجدت لذلك بداً وقد علمت ان ذلك يروعك . ثم ان خالداً رجع الى قنسرين فخطب أهل عمله وودعهم وتحمل ثم أقبل الى حمص فخطبهم وودعهم ثم خرج نحو المدينة حتى قدم على عمر فشكاه وقال لقد شكوتك الى المسلمين وبالله انك في أمري غير مجمل [1] يا عمر فقال عمر من أين هذا الثرى . قال من الانفال والسهمان ما زاد على الستين الفاً فلك فقوّم عمر عروضه [2] فخرجت اليه عشرون ألفاً فأدخلها بيت المال ثم قال يا خالد والله انك علي لكريم وانك الي لحبيب ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء . ثم ان عمر كتب الى الامصار اني لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة ولكن الناس فتنوا به فخفت ان يوكلوا اليه ويبتلوا به فأحببت ان يعلموا ان الله هو الصانع وان لا يكونوا بعرض [3] فتنة . ويقال انه عوّضه عما أخذه منه وكتب الى الناس وهكذا أيضاً شاطر سعد بن أبي وقاص على ماله وشاطر أبا هريرة ولما أبى ان يشاطره ضربه وصادر غيرهم أيضاً ورد أموالهم لبيت المال . وهذا أمر لا يعجب من صدوره عن عمر (رض) على شهرته بالعدل لانه لا بد أن يكون له في هذا رأي سديد ومرمى بعيد ولعل الحامل

---

(١) مجمل من أجمل في الطلب أتأد واعتدل ولم يفرط (٢) متاعه (٣) بطريق

له على ذلك هو لانه كان يرى أن هذا المال حق المسلمين فينبغي له أن يكون لمامة المسلمين حتى لا يتكاثر به الاغنياء ويتعالوا به على الفقراء ويدلنا على هذا ما رواه ابن جرير الطبري فى تاريخه عن السائب بن يزيد قال . سمعت عمر بن الخطاب يقول والله الذي لا اله الا هو (قالها ثلاثا) ما من أحد الا له فى هذا المال حق أعطيه أو منعه وما أحد أحق به من أحد الا عبد مملوك وما أنا فيه الا كأحدهم ولكنا على منازلنا من كتاب الله وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم والرجل وبلاؤه فى الاسلام والرجل وقدمه فى الاسلام والرجل وغناؤه (كفايته) فى الاسلام والرجل وحاجته والله لئن بقيت ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه

وأخرج عن حبيب بن أبي وائل قال . قال عمر بن الخطاب لو استقبلت من أمري ما استدبرت لاخذت فضول أموال الاغنياء وقسمتها على فقراء المهاجرين

ولا يخفى على من له إلمام بأصول المذاهب الاشتراكية القائمة فى هذا العصر فى أوروبا أن من الاغراض التى ترمي اليها جعل الاموال حقا يشترك فيه الناس من كل الطبقات والاسلام قد قرر قاعدة الاشتراك لان بين مذهب الاشتراكيين ومذهب المسلمين فرق فى أن المسلمين يعتبرون هذا الحق فى ثمرة رأس المال وهى الفضول وان الاشتراكيين يعتبرونه فى رأس المال نفسه وهو خطأ أداهم اليه الافراط والغلو كما شرحنا ذلك فى كتابنا تنبيه الافهام . والله لو علم اولئك الناس أن الاسلام قرر قاعدة الاشتراك على أصول الحق والعدل التي لا تصادم نواميس الاجتماع وان أهله باتوا لا يعرفون شيئا من هذه القاعدة ولا غيرها من القواعد التى تضمن سعادتهم الاجتماعية وحياتهم الملية

لأخذتهم الحيرة من هذا الامر وربما تنبه قادتهم وزعماؤهم الى قبول الاسلام وجعله أساسا للسعادة التي ينشدونها للانام واكتفوا في بث دعوتهم مؤنة المقاومة التي يلاقونها من أهل الجدل والخصام

﴿ كلمة في الحرية والطاعة ﴾

﴿ أو الحكومة العسكرية والحكومة القانونية ﴾

أخذت على نفسي أن لا أغفل في هذا الكتاب خبرا يمر على القارئ من الاخبار التاريخية المهمة مالم أردفه ببيان مفيد لا سيما فيما يرجع للاخلاق ويمثل صورة الفضائل والرذائل ويفرق بين السعادة والشقاء ومما ينبغي ان لا يفوتنا النظر فيه حادث خالد بن الوليد الذي هو أهم حادث في تاريخ الحرية العربية في الاسلام وكيف لا يكون كذلك وهو يمثل نتائج الحرية والعدل في صورة من الكمال تتزلزل لها أقدام الظلم وتخشع امامها قوى الكون البشرى الهابطة من أعلى عليين والصاعدة من أسفل سافلين ألا وهي الطاعة للرئيس والخضوع للقانون

الحرية فضيلة معناها تخلص الانسان من الاسر وتملصه من ضيق الحجر وجواز تصرفه في كل حق من حقوق الانسانية الى سوغها العقل وقضت بها أصول الاجتماع والتعاون بحيث يكون الانسان مالكا لارادته لا بهيمة تتحرك بارادة سواه مالكا لثمرة عمله لا حق لآخر بحرمانه منها مالكا لأمنه لا سلطان لآخر في سلبه منه ومتى فقد الشخص واحدة من هذه الثلاث سلب معنى الحرية وصار كالحيوان يتعب ليأكل سواه ويشقى ليسعد غيره ويسعى ليموت هو ويحيا من عداه

ربما يتوهم ان الحرية بهذا المعنى هي الاطلاق عن كل قيد مادام ليس لارادة النفس على ما يلزم من خالها من قيد وليس الامر كذلك اذ كما ان التفريط بالحرية طرف نازل له كذلك الافراط فيها أيضا وفي كلا الطرفين رجوع للهيمية

وفقد الفضيلة الحرية وانما هناك وسط ترجع اليه وقيد تتقيد به بل قيدان وهما القيد النفسي والقيد الخارجي فأمّا القيد النفسي فهو إمّا الزاجر الديني وإمّا الفضيلة الذاتية والقيد الخارجي هو الوازع وليس في كلا القيدين معنى للعبودية أو منع للحرية وانما هو إمساك للنفس عن الاندفاع مع تيار الهوى والشهوة الذي يلحق الانسان بالبهائم ففي مطاوعة الارادة للزاجر النفسي مطاوعة للفضيلة ووقوف عند حد الانسانية وفي مطاوعتها للوازع مطاوعة للشرع وخضوع للقانون

الانسان ميال بطبعه للسعادة اذا أُرشد اليها وحُثّ عليها والشرائع انما هي شرعة السعادة البشرية وقوام الحياة الاجتماعية فالوازع الذي يزع الناس بالشريعة لا يحاول بما يزع به قهراً للنفوس ولا حجراً على الارادة بل يماشي الارادة ويساعد النفوس على نيل السعادة لهذا فطاعة الوازع من مستلزمات السعادة لا يأباها العقل ولا يهضم بها حق من حقوق الحرية مادامت طاعته يراد بها طاعة القانون الذي هو أصل في السعادة لا طاعة الوازع نفسه من حيث كونه آمراً بهواه وشهواته لا مأموراً من القانون ومهيمناً عليه

اذا تقرر هذا فاعلم ان الأمة العربية كانت في جاهليتها على جانب من الاغراق في الحرية يكاد يكون إفراطاً فيها كما يعلم ذلك كل مطلع على تاريخ هذه الأمة لان حب الحرية خلقٌ تأصل في نفوسها منذ نشأت في فضاء البوادي الماسع مطلقة عن كل حجر . ومن هذا الافراط نشأ ما يسمونه العصبية ذلك لانهم كانوا أشتاتاً في التحرؤ الى بطون وقبائل لا تجمعهم جامعة الجنس ولا سلطة وازع تضمهم الى كلمة واحدة فكانوا يفترقون عند الحاجة الى العصبة بين تحدد العشيرة الواحدة ضد الأخرى دفاعاً عن الحوزة وصد الغارة وجلب مغنم ومغرم في هذا الامر من ضعف النظام الاجتماعي وفقد روابطه القانونية فهم كانوا به والعين وعلته

حريصين لانه نتيجة مغالاتهم في الحرية وحبهم للانطلاق عن كل قيد . ولما جاء الاسلام ببيانه وبسط عليهم جناح حنانه وجمعهم على كلمته وضم شتيتهم الى رايته كان من مبادئه الاولى في النصح والارشاد تحذيرهم من التفرق وتعليمهم لأصول الطاعة وأمرهم بالخضوع الى الوازع ليكونوا يداً واحدة وقوة واحدة ومن ذلك قوله تعالى في الكتاب الكريم « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم » وانما أرادهم على الطاعة لأولي الامر لانها طاعة للشرع الذي فيه سعادتهم بردهم في الحرية الى حد الوسط بلا شطط عليهم في التقييد ولا ارسال لهم منه ولا حمل لهم على طاعة الوازع لنفسه بل لما يزعهم به من الشرع العادل يدلك على هذا قول أول خليفة في الاسلام وهو أبو بكر (رض) في احدى خطبه التي مر ذكرها في الجزء الأول « أطيعوني ما أطعت الله (في تنفيذ أوامره) فيكم فاذا عصيته فلا طاعة لي عليكم » وقول الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رض) أعينوني على نفسي بالامر بالمعروف وإحضاري النصيحة وأعينوني على أنفسكم بالطاعة وقوله أنه لم يبلغ حق ذي حق « يعني نفسه » أن يطاع في معصية الله وكثير من أمثال هذا الكلام مما مر في باب خطبه وغيرها من هذا الكتاب واذ كانت البداوة أصلا في سلامة الفطرة وقبولها للخير وقد رأى القوم ان هناك نظاماً يضم أشتات الافكار الى وجهة واحدة ويقوم بحراسة الحقوق قياماً يغني عن العصبية مع استبقاء ما الفوه من الاصول الديموقراطية في حالتهم الاجتماعية لم تأب نفوسهم السامية مثل تلك الطاعة وخضعوا لحكم الاسلام واجتمعوا على الرضى بسيادة الخلفاء ومن ثم تعلم ان دولة المسلمين في عهد الخلفاء الراشدين كان قيامها بالقانون لا بالقوة وحمايتها بالشريعة لا بالسيف وبعبارة أوضح انها كانت دولة قانونية تستند الى الشرع الآلهي لتقوم لا دولة عسكريه

تستند الى القوة الجبرية لتسقط وتنحل وشتان بين دولة تستند الى القانون الذي هو سيف لا يفل حده وبين دولة تستند على قوة القهر التي لا تلبث أن تني أو تنحل وتهوي بالدولة الى حضيض الاضمحلال وتعاجلها بالانحلال

لمّا علمت الامة العربية يومئذ ان الطاعة على ذلك الوجه ركن من أركان الحرية لا سبب لسلبها منهم وان ليس فيها سلب لارادتهم ولا قهر لنفوسهم ولا حيف عليهم ولا هضم لحقوقهم وان ليس للوازع فوق الامر بالمعروف والنهي عن المنكر أمر يراد به الاشتطاط عليهم والاستئثار بالامر دونهم راضت لاولياء الامر نفوسهم العاتية ولانت اخلاقهم الجافية فأخلصوا طاعتهم في الحق ومعاونتهم على المعروف واليك الدليل

خالد بن الوليد من سادات قريش وابن عم عمر بن الخطاب وفي مرتبته في الشرف الذي انتهى الى الرهط من قريش فوصله في الاسلام كما رأيت في صدر الجزء الاول من هذا الكتاب وخلا هذا فانه كان محبوباً من المسلمين كبير الجاه عند الناس له من قلوب الجند مكانة ليست لسواه اذا أمر طاعوا واذا أشار قبلوا جاءه أمر أمير المؤمنين بالشخوص الى حيث يقيم أبو عبيدة فامتثل وسئل فردد وجاءه أبو عبيدة وهو ابن عمه وأميره أن يأمر فيه أمر الخليفة فقام اليه مولى (عبد) من موالي رسول الله (صلى) فنزع عمامته عن رأسه وعقله بها وسأله ماسأله حتى أجاب فأعاده فلبسوه الى رأسه وعممه بيده وقال نسمع ونطيع لولاتنا (يعني عمر) ونفخم موالينا[1] « يعني خالداً » هذا كله على ملأ الناس ومشهد من عامة المسلمين فما الذي أسكت مثل هذا الامير الخامل في مثل هذا الموقف فلم ينتصر لنفسه ولم ينصره أحد من المسلمين هذا على ما عرف به من عزة النفس

(١) المولى تطلق على السيد وعلى العبد

وإباء الضيم
أسكته أمران الأول علمه أنه لا يطاوع بسكوته وخضوعه هوى أمير المؤمنين بل يطاوع وجدانه ويطيع قانونه ودينه والامر الثاني علمه بانه فيما صنع غير مسلوب الارادة بقوة عمر (رض) ولا مغلوب له على أمره بل هو حر في أن يناقشه الحساب ويسأله عن سبب ما صنع وينتصف لنفسه منه اذا اشتط عليه او جار وقد كان ذلك كما رأيت وأنصفه عمر (رض) ولولا أن يعلم خالد أن له سلطانا في نفسه يناقش به عمر وارادة لا يغلبه عليها الا الحق لاستحال على عمر ان يعامله بتلك الشدة لما يعرفه في القوم من حب الحرية واستقلال الارادة وعزة النفوس وحسبك دليلاً على هذا ان أمير المؤمنين عمر (رض) لم يسعه بعد أن عامل خالداً بتلك المعاملة الا ان يعتذر عما صنع للناس ويجهر بالسبب على ملأ المسلمين دفعاً لسبه الضمائر وإعلانا بالسلامة حريتهم من مساس القوة والحجر وذلك انه قام يوماً يخطب فيهم خطبة في شأن العطاء رواها ابن الجوزي في المناقب قال في آخرها

واني اعتذر اليكم من خالد بن الوليد فاني أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين فأعطاه ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان فنزعته وأمرت أبا عبيدة بن الجراح

فقام أبو عمرو بن حفص بن المغيرة (بن عم خالد) فقال والله ما اعتذرت يا عمر ولقد نزعت عاملاً استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأغمدت سيفاً سله رسول الله « صل » ووضعت أمراً نصبه رسول الله « صل » وقطعت رحما وحسدت بن العم

فقال عمر (رض) انك قريب القرابة حديث السن مغضب في ابن عمك .

ثم نزل ولم يزد على ان ردّ عليه رداً جميلاً

وهذا نهاية مايقال في اطلاق الحريه للرعية يناقشون بها عن أنفسهم ويكفون الايدي عن حقوقهم ومع وصول العرب الى هذا الحد من الجرأة في الرد على مثل عمر بن الخطاب ومناقشته الحساب فانهم كانوا أطوع له من بنانه لعلمهم بانهم انما يطيعون بطاعته الله والرسول في الشرع الذي كان عمر منفذاً له مهيمناً عليه ولو كانت الحكومة ثمة حكومة عسكرية لكان خالد اول من لجأ الى القوّة وضرب بجيوشه وحدة الدولة وناصب خليفة المسلمين العداوة وتوثب على الخلافة ومعاذ الله ان يحدّث خالد نفسه بشيء من ذلك مادام الأمر يومئذ للقوّة وإنما كان الآمر الناهي عند سائر المسلمين هو الشرع والوجدان لا القوة ولا الرئاسة ولقد بلغ بفريق من المسلمين في دولة الخلفاء الراشدين غلوهم في الخضوع للوجدان والشرع دون الوازع وهم الحرورية وغيرهم من فرق الخوارج ان قالوا لعليّ رضي الله عنه لهم المشهور « لا حكم الا الله » وتغالوا في هذا القول حتى أنكروا لزوم الخلافه وسفكوا دماء آلاف من الناس في سبيل تأييد معتقدهم الشاذ حتى أفضى الامر الى قتالهم كما سترى بعد

اذا تمهد هذا علمنا انّ حكومة الخلفاء الراشدين قامت على دعامة الشريعة لا القوة وكانت حكومة دستورية لا عسكرية وانّ الحرية لازم من لوازم الطاعة وسبب متين يتوصل به الى السعادة وشد عرى الصلة والاتفاق بين الحاكم والمحكوم لهذا كانت دولة الخلفاء الراشدين من أعظم الدول قياماً على الحق والحرية والعدل وبلغ المسلمون على عهدهم مبلغاً من القوّة والغنى وقهر الأمم وفلّ جيوش الدول ما لم يبلغوا مثله في تاريخ دولة قبلهم ولا بعدهم قط وقد اختلط العرب بالاعاجم وابذعرّوا في أطراف البلاد وغلبوا على قلبهم في المالك وصفقت

عصبيتهم عن مقاومة أعداء الحرية من المتوثبين على الخلافة والدخلاء في دولتهم من الأمم الأخرى الذين ألفوا الاستعباد وفطروا على حب الاستبداد انحطت دول الاسلام عن مقامها وأخذت بالتقهقر في سيرها وانقطعت صلة الاتفاق بينها وبين رعيتها فأصبحت ورعيتها على طرفي نقيض تريدهم على الخضوع لهوى الامراء وشهواتهم ويريدونها على العدل والاستقامة واتباع الشرع والقانون وهذا خطب عظيم اذا طال أمره والعياذ بالله في أمة دمرها تدميراً اذ لا يزال يضرب الامراء عقلاءها بجهلائها وصلحاءها بسفهائها حتى يفنى الفريقان كما فنيت أمة الرومان واليونان وعرب المسلمين هذا اذا أبقى الاستبداد للافراد الأمة أفئدة تهوي الى الحرية ونفوساً تطلب النزوع الى الحياة الطيبة والرقي الى مرتبة الانسانية وأما اذا بلغ الاستبداد من عامة الأمة مبلغه فأصابها الفالج العام الذي يصيب الأمم في أواخر عهدها فذهب قواها ويميت أعصابها عن الحركة وعقولها عن الادراك فدمارها يكون بيد غيرها لا بيدها والمآل الى هذا أشنع والموت بيد المتغلب أفظع وحسبك دليلا على هذا ما يقاسيه المسلمون من ضروب القهر والشقاء من بعض الدول الاوربية التي آل اليها ذلك السلب ملك المسلمين وتسلطت على أقوام كثيرين منهم ولو كان ثمة قوم لهم قلوب يفقهون بها وآذان يسمعون بها فاذا ذكروا يذكرون لما خضعوا لهذا الاستعباد ولكانوا أنداد الأمم الاوربية في مضمار المنافسة الحيوية ولكن بالحرقة الفؤاد قوم ما في واد والعرسون في واد

(حضه الناس على الكسب)

الانسان مدني بالطبع يتعاون على العمل ويتبادل مع أخيه العوض والعوض انما هو ثمرة العمل فكل يعمل للآخر ليبادله العوض ورب صنعة يتعاون عليها جمع

من الناس كل فرد منهم يشتغل بفرع منها فاذا ترك أحدهم نصيبه من العمل بذلك الفرع خسر الكل لهذا كان أس الحياة الاجتماعية العمل وأصلها الكسب وليس في الوجود شرع ينهى عن الكسب بل كل الشرائع تأمر به ولو مع الرفق في الطلب والاسلام من الشرائع التي حتمت السعي للرزق وأمرت بالكسب الا انه أمر بالرفق في الطلب والتوكل على الله مع السعي ليكون الرجاء بالكسب أقوى والقناعة لجرثومة اليأس أقطع والعزيمة على السعي أمضى واذ كان عمر رضي الله عنه أعلم الصحابة بالدين وأفقههم فيه وخشي أن يلابس نفوس العامة شيء من ظواهر الآيات التي أمرت بالتوكل والقصد ورأى بعضهم حمل معنى التوكل على محمل الزهد وترك السعي جعل دأبه حض الناس على السعي وحثهم على العمل والكسب ومن ذلك ماجاء في كنز العمال عن معاوية بن قرة قال لقي عمر بن الخطاب ناساً من أهل اليمن فقال ما أنتم فقالوا متوكلون فقال كذبتم ما أنتم متوكلون انما المتوكل رجل ألقى حبه في الارض وتوكل على الله ٠ وفي المناقب لابي الفرج بن الجوزي عن محمد بن سيرين عن أبيه قال شهدت مع عمر بن الخطاب المغرب فأتى علي ومعي زرينة لي فقال ماهذا معك فقلت زرنمة لي أقوم في هذا السوق فاشتري وأبيع فقال يامعشر قريش لا يغلبنكم هذا وأشباهه على التجارة فانها ثلث الامارة

وفيه عن خوات التيمي قال قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يامعشر القراء ارفعوا رؤسكم فقد وضح الطريق واستبقوا الخيرات ولا تكونوا عيالاً على المسلمين

وفيه عن الحسن قال قال عمر رضي الله عنه من تجر في شيء ثلاث مرات فلم يصب فيه شيئاً فليتحول الى غيره

---

(١) تصغير زرنمة وهي الكارة من ثياب

وفيه عن الاكيدر العارض قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه تعلموا المهنة فانه يوشك أن يحتاج أحدكم الى مهنته

وفي كنز العمال عن عمر قال : لولا هذه البيوع صرتم عالة على الناس

وفي المناقب عن بكر بن عبد الله قال : قال عمر مكسبة فيها بعض الدناءة خير من مسألة الناس

وفيه عن ذكوان قال : قال عمر اذا اشترى أحدكم جملا فليشتره عظيما سمينا فان أخطأه خيره لم يخطئه سوقه

وفيه عن محمد بن عاصم قال : بلغني ان عمر بن الخطاب كان اذا رأى فتى فأعجبه حاله سأل عنه هل له حرفة فان قيل لا سقط من عينه

وفي العقد قال عمر بن الخطاب لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني وقد علم ان السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة وان الله تعالى انما يرزق الناس بعضهم من بعض وتلا قول الله جل وعلا (فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون)

وفيه قال عمر بن الخطاب يا معشر القراء التمسوا الرزق ولا تكونوا عالة على الناس

وفيه قال عمر بن الخطاب حَسَبُ الرجل ماله وكَرَمُه دينه ومروأته خُلُقه

﴿ نهيه عن التنطع ﴾

(وتحذيره من الابتداع)

الاسلام دين اليسر ودين الفطرة يأمر بالاعتدال في كل الاعمال حتى العبادة وينهى عن التنطع الناشئ عن التوسع والابتداع ولم يكن العرب على صلاتهم في الدين يعرفون هذا التنطع الذي ابتدعه الاعاجم بعد لعدم توسعهم في

التأويل ووقوفهم عند ظاهر الشرع فلما انتشر الاسلام في أنحاء الارض وعم سائر الشعوب في دولة الخلفاء الامويين والعباسيين وأكثر الاعاجم من الابتداع وغالوا بالتنطع والتشدد فيما ليس من الدين كان يعيبهم العرب على ذلك ويهزأون بهم ويتباعدون عن بدعهم فقد ذكر ابن عبد ربه في العقد الفريد عن الاصمعي قال . قدم أبو مهدية الاعرابي من البادية فقال له رجل يا أبا مهدية أتتوضؤون بالبادية قال والله يا ابن أخي لقد كنا نتوضأ فتكفينا التوضئة الواحدة الثلاثة أيام والاربعة حتى دخلت علينا هذه الحمراء (وهي الموالي من الاعاجم) فجعلت تليق استاهها بالماء كما تلاق الدواة

وانما أراد بقوله فتكفينا التوضئة الواحدة الخ الاعرابي التهكم على تنطع الاعاجم لانهم (أي العرب) كانوا حقيقة يفعلون ذلك بالوضوء معاذ الله أن يكونوا في هذه المرتبة من التهاون بالفرائض وهم أساء أولئك الدين نشروا هذا الدين وعلى عهدهم أنزل القرآن . ومن هذا تعلم ان التنطع أمر لا يريده الدين وانما كان منشؤه الابتداع والتوسع ومن هذا القبيل توسعهم في حديث السواك وهو (لولا ان أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك) ومع ان الحديث يتضمن الندب والاستحباب فقد كاد بعضهم ينزله منزلة الواجب وكتبوا فصولاً وأبواباً مخصوصة في فوائده واستعماله وحمله الى آخر ما قالوه في شأنه مما لم يكن منشؤه الا التنطع حتى فيما ليس من الدين

كان من الصحابة نفر ولعوا بالعبادة وانقطعوا الى التعبد لكن بما لا يخرج عما جاء به الكتاب ورأوه من نبيهم عليه الصلاة والسلام فخشي عمر أن يسري الى العامة حب الانقطاع الى العبادة والتنطع في الدين فينشأ عن ذلك تعطيل لوظائف الاجتماع الدنيوية وتوسعٌ في التأويل وتجرؤ على الابتداع فجعل ينهى الناس عن

التنطع ويحذرهم من الابتداع ومن نهيه عن التنطع ما أخرجه أبو الفرج بن الجوزي عن محمد بن عبد الله القرشي عن أبيه قال . نظر عمر الى شاب قد نكس رأسه فقال له يا هذا ارفع رأسك فان الخشوع لا يزيد على ما في القلب فمن أظهر للناس خشوعاً فوق ما في قلبه فانما أظهر للناس نفاقاً على نفاق

وأخرج عن أبي عمرو الشيباني قال . خبر عمر بن الخطاب برجل يصوم الدهر فجعل يضربه بمخفقته وجعل يقول كل يا دهر كل يا دهر

وعن سعيد بن المسيب ان عمر بن الخطاب قال عجلوا الفطر ولا تنطعوا تنطع أهل العراق

وعنه عن أبيه قال كنت جالساً عند عمر (رض) اذ جاءه راكب من أهل الشام فطفق يسأله عن حالهم فقال . هل تعجل أهل الشام الافطار . قال نعم . قال لن يزالوا بخير ما فعلوا ذلك ولم ينتظروا النجوم انتظار أهل العراق

وعن محمد بن سيرين ان عمر بن الخطاب خرج من الخلاء يقرأ القرآن فقال له أبو مريم يا أمير المؤمنين أتقرأ القرآن وأنت غير طاهر . فقال له . مسيلمة (هكذا) أمرك بهذا

وأما تحذيره من الابتداع فقد أخرج الامام أبو الفرج أيضاً عن عابس بن ربيعة قال . رأيت عمر نظر الى الحجر فقال أما والله لولا انى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك ثم قبله

وعن عبد الله بن سرجيس قال . كان الاصلع (يعني عمر) اذا استلم الحجر قال انى لاعلم انك حجر لا تبصر ولا تسمع ولولا انى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك

وعن نافع قال كان الناس يأتون الشجرة التي بايع رسول الله صلى الله عليه

وسلم تحتها بيعة الرضوان فيصلون عندها فبلغ ذلك عمر فأوعدهم فيها وأمر بها فقطعت وهذا الاثر يوافق ماتقدمناه في فصل (لاوثنية في الاسلام)

ولبت عمر يأتي في هذا العصر بدرته وسيفه وينظر الى مصير صار اليه المسلمون من تقديس الاحجار والاشجار واذا كانت تلك شجرة واحدة بويع تحتها رسول الله صلى الله عليه وسلم فعندنا الآن عدد لا يحصى من الاشجار كالجميز في مصر والمسن والزيتون في الشام وهي من الاشجار التي كانت تعتبر مقدسة عند الوثنيين القدماء فقدس عوام المسلمين بعضها بحجة ان هذه دفن تحتها فلان الصالح وتلك لمسها فلان الشيخ الى غير ذلك من الاعذار التي ينتحلونها بعقولهم القاصرة عن مرتبة التوحيد التي وضع الله فيها مثل أبي بكر وعمر فانا لله وإنا اليه راجعون

وأخرج عن عمرو بن ميمون عن أبيه قال أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجل فقال يا امير المؤمنين انا لما فتحنا المدائن أصبت كتابا فيه كلام معجب قال أمن كتاب الله قال لا فدعا بالدرة فجعل يضربه بها ويقول (الر تلك آيات الكتاب المبين انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) الى قوله تعالى وان كنت من قبله لمن الغافلين ثم قال انما أهلك من كان قبلكم انهم أقبلوا على كتب علمائهم وأساقفتهم وتركوا التوراة والانجيل حتى درسا وذهب مافيهما من العلم اه

(أدبه وتأدبه)

(أدبه مع رسول الله)

تقدم في مناقب باب صحبته كلام على أدبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وحبه له وقيامه دائما بين يديه ناهي عن الاسباب في هذا الباب وحسبه أدبا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تعسه في حبه حتى انسا ذهبه عن حقيقة موته في ذلك اليوم (من قال إن محمدا قد مات علوت رأسه بسيفي هذا) والقصة طويلة مر معنا في

هذا الكتاب ملخصها

أدبه مع نفسه

عن أنس قال دخلت حائطاً (بستاناً) فسمعت عمر يقول وبيني وبينه جدار: عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ بخ والله لتتقين الله ابن الخطاب أو ليعذبنك الله وقال السيوطي قال عبد الرحمن بن عامر بن ربيعة رأيت عمر أخذ تبنة من الارض فقال ياليتني كنت هذه التبنة ياليتني لم أك شيئاً ليت أمي لم تلدني وعن سفيان بن عيينة قال قال عمر بن الخطاب أحب الناس إلي من رفع إلي عيوبي. وأخرج الطبري عن سلمان ان عمر قال له أملك أنا أم خليفة فقال له سلمان إن جبيت من أرض المسلمين درهماً أو قل أو اكثر ثم وضعته في غير حقه فأنت ملك غير خليفة فبكى عمر ولشد ما كان وأبو بكر يهربان من صفات الملوك ويقومان بحقوق الخلافة خوف الاتسام بسمة الملوك الجبارين التي يأباها الاسلام وتنهى عنها شريعة محمد عليه الصلاة والسلام

(تأديبه لنفسه)

كان عمر رضي الله عنه شديداً على الناس سريع العقوبة يتناول المسيء بالدرة التي قيل فيها « لدرة عمر أهيب من سيوفكم » ومع هذا فقد كان سريع الانابة رقيق القلب لا يلبث أن يعاقب حتى يندم لطهارة وجدانه وسلامة قصده

خرج الحافظ عز الدين الجزري في أسد الغابة عن أبي غنية يحيى بن عبد الملك بن سلامة بن صبيح التميمي قال قال الأحنف بن قيس كنت مع عمر ابن الخطاب فأتيه رجل فقال يا أمير المؤمنين انطلق معي فاعدني على فلان فانه قد ظلمني فرفع عمر الدرة فخفق بها رأسه فقال تدعون أمير المؤمنين وهو معرض لكم حتى اذا شغل في أمر من أمور المسلمين أتيتموه اعدني اعدني قال فانصرف

الرجل وهو يتذمر قال « اي عمر » عليّ الرجل « اي ردوه عليّ » فألقى اليه المخفقة. وقال امتثل « اي اقتص بمثل الضربة » فقال لا والله ولكن أدعها لله ولك قال ليس هكذا اما ان تدعها لله ارادة ما عنده او تدعها لي فاعلم ذلك. قال ادعها لله. قال « اي الاحنف » فانصرف ثم جاء يمشي حتى دخل منزله ونحن معه فصلى ركعتين وجلس فقال « يخاطب نفسه » يا ابن الخطاب كنت وضيعاً فرفعك الله وكنت ضالاً فهداك الله وكنت ذليلاً فأعزك الله ثم حملك على رقاب الناس فجاءك رجل يستعديك فضربته ما تقول لربك غداً اذا أتيته قال فجعل يعاتب نفسه في ذلك معاتبة حتى ظننا انه خير أهل الارض

وأخرج ابن جرير في تاريخه عن إياس بن سلمة عن أبيه قال مرّ عمر بن الخطاب « رض » في السوق ومعه الدِرّة فخفقني بها خفقة فاصاب طرف ثوبي فقال أمِط عن الطريق فلما كان في العام المقبل لقيني فقال يا سلمة تريد الحج. فقلت نعم فأخذ بيدي فانطلق بي الى منزله فاعطاني ستمائة درهم وقال استعن بها على حجك واعلم انها بالخفقة التي خفقتك. قلت يا أمير المؤمنين ما ذكرتها قال وانا ما نسيتها

هذه هي الفضيلة وذاك هو الوجدان الحساس الذي جعل ذلك الخليفة العظيم يطلب العفو من شخص عن خفقة أصابت ثوبه لم يقصد بها أذاه وانما قصد تنبيهه الى كشف الاذى عن طريق الناس والله أعلم بما عانى من القلق ريثما آن أوان الحج ووجد سبيلاً لاسترضاء ذلك المسلم عنه وطلب الصفح منه مع انه خليفة المسلمين الذي أنيط به العقاب فعاقب بمعروف ولم تتجاوز في مس طرف الثوب بدِرّته حد التنبيه الى إماطة الضرر عن الطريق فاين هذا الانصاف والرحمة من جبروت الخلفاء والسلاطين الذين تسطو يد القوة بعد على الناس وتحكم فيهم

تحكم المالك في العبيد لا رحمة تشفع ولا جاه يشفع ولا فضيلة تمنع وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون

(تأديبه للمسلمين)

بلغ برأفة عمر بالمسلمين وحملهم على الطريق الواضحة وتأديبهم بآداب النبوة ان كان إذا أراد تنبيههم الى أمر نافع وصرفهم عن أمر ضار يتقدم الى أهله بذلك التنبيه ليكونوا قدوة الناس وأسوة المسلمين في التأديب ومن ذلك ما أخرجه ابن جرير في تاريخه عن سالم وابن عساكر في تاريخه عن ابن عمر قال كان عمر إذا صعد المنبر فنهى الناس عن شيء جمع أهله فقال اني نهيت الناس عن كذا وكذا وان الناس ينظرون اليكم نظر الطير الى اللحم وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله الا اضعفت عليه العقوبة لمكانه مني

وروى عن عكرمة بن خالد قال دخل ابن لعمر بن الخطاب عليه وقد ترجل ولبس ثياباً حساناً فضربه عمر بالدرة حتى أبكاه فقالت له حفصة لم ضربته قال رأيته قد أعجبته نفسه فأحببت ان أصغرها اليه

ومن أخباره في التأديب التي تدل على عظيم رحمته وحنانه وشدة عقوبته لغلاظ القلوب ما جاء في كنز العمال عن أبي عثمان النهدي قال استعمل عمر بن الخطاب رجلاً من بني أسد على عمل فجاء يأخذ عهده فأتى عمر ببعض ولده فقبله. فقال الاسدي أتقبل هذا يا أمير المؤمنين والله ما قبلت ولداً قط قال عمر فأنت والله بالناس أقل رحمة هات عهدنا لا تعمل لي عملاً أبداً ورد عهده

حوزى هذا العامل بالعزل والابعاد بتاتاً عن العمل « الوظف » لكلمة قالها لعمر (رض) أحس منها عمر بغلظة فؤاده فخشي إن هو عهد اليه بالعمل ان يكون فظاً غليظ القلب على الرعية فعزله وهل كان للامراء والسلاطين من بعده

نصر يبصرون به أو سمع يسمعون به فيعلموا أنّ عمر بن الخطاب الذى أرهب أبناء الحرية وصناديد العرب وسادات قريش واستخضع لحكمه الفرس والروم الصابئة منهم وأهل الكتاب فكانوا كلهم بالسمع والطاعة له سواء إنما ساسهم بمثل هذه السياسة وكان بهم رؤفا كرأفة الوالد بالبنين وعليهم عطوفا كعطف المرضع على الطفل

أجل كان منهم من علم ذلك وعمل به وهم الخيرة الطيّبون الذين ساسوا وعمروا وجاء غيرهم فخربوا ودمروا فكانوا أصواعى من العذاب انقضّ على المسلمين فقضت على ماشيّده غيرهم بالدمار وشوّشت نظام الملك وقتلت العقول وجردت سيوف الاستبداد على الأمة فأعدمتها رشدها وأفسدت أخلاقها وذهبت بعلومها وطأمنت من أشرافها وأفقدتها عزها وشممها وأذلّتها ذلا ها نحن أولاء نشاهد نتائجه الآن بالعيان حيث نظلم ونهان من كل إنسان وليس فينا روح تدب ولا نائم يهب بل كلّنا أموات يحسبنا العالم المتمدن من الرفات قلوبنا متفرقة وأهواؤنا شتّى ونفوسنا جامدة إلا عن السفاسف وخطانا قاصرة إلا عن أماكن الفساد وشأننا كله شأن من رضي بالذل وانغمس في الجهل واستسلم للقضاء حتى ساعة الفناء قلت

ومن يَنم عن شؤونِ كلّها خطر   فليس يخطئ مَنْ سعيه للناس

ومن تأديبه لأشراف قريش وقهره لنفوسهم مع ما عرفوا به من الكبرياء والسيادة ما رواه ابن الجوزى عن الحسن قال حضر باب عمر (رض) سهيل بن عمرو بن الحرث بن هشام وأبو سفيان بن حرب فى نفر من قريش من تلك الرؤوس . وصهيب وبلال وتلك الموالى الذين شهدوا بدراً فخرج إذن عمر فأذن لهم (أى للموالى) وترك أولئك . فقال أبو سفيان لم أر كاليوم قط أذن

لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه لا يلتفت الينا فقال سهيل بن عمرو وكان رجلا عاقلا أيها القوم اني والله أرى الذى في وجوهكم ان كنتم غضاباً فاعضوا على أنفسكم دُعي القوم ودُعيتم فأسرعوا وأبطأتم فكيف بكم اذا دُعوا على أنفسكم يوم القيامة وتُركتم وكان هذا شأنه رضي الله عنه مع كبار قريش الذين تأخر اسلامهم الى ما بعد الفتح أخرج أبو الفرج أيضاً عن يحيي بن عبد الرحمن بن أبي حاطب عن أبيه قال قدمنا مكة فاقبل أهل مكة يسعون . يا أمير المؤمنين أبو سفيان حبس مَسيل الماء علينا ليهدم منازلنا فاقبل عمر ومعه الدرة فاذا أبو سفيان قد نصب أحجاراً فقال ارفع هذا فرفعه ثم قال وهذا وهذا حتى رفع أحجاراً كثيرة خمسة أو ستة ثم استقبل عمر الكعبة فقال الحمد لله الذي جعل عمر يأمر أبا سفيان ببطن مكة فيطيعه ومن علم ماهى سلطة أبي سفيان بمكة وكيف كان تحكم قريش فى رقاب الناس علم فضل الاسلام فى تأسيسه قاعدة المساواة وعدله بين الناس ومحوه آثار التفاضل بالانساب ؟ ومن أخباره فى التأديب مانقله فى العقد الفريد ان عمر (رض) قال لرجل من سيد قومك قال انا قال كذبت لو كنت كذلك لم تقله

﴿ أدبه مع المسلمين وتواضعه لهم ﴾

اذا أردت ان تعلم أدب الرجال العظام الذين رفع الله نفوسهم لا بالكبرياء وسودّهم على الامم لا بالعطرسة والتجبر وحببهم الى الناس لا بالخيلاء فاسمع ماأخرجه الطبريّ فى تاريخه عن الحسن قال قال عمر اذا كنت فى منزله تسعني وتعجز الناس فو الله ماذلك لى بمنزله حتى أكون أسوة للناس

هذا خليفة العظيم الذى دوّخ ممالك فارس والروم وأرهبت سطوته الامم

وامتد ظل سلطانه الى حدود الهند شرقا وأفريقيا الشمالية غربا ومنحه الله هذا الملك العريض والسلطان العظيم لا يرضى لنفسه منزلة فوق منزلة الناس حتى من أدنى رعاياه ان هذا لهو العدل الذي ليس فوقه عدل ولا جرم فبمثل ذلك عظم قدره وشاع ذكره وملأ الاذهان خبره حتى عده المؤرخون من أعظم رجال الاسلام وحتى انه المفتخر به على ملوك الارض فرضي الله عنه وأرضاه

ومن تواضعه ما أخرجه الطبري عن ابن أبي سليمان عن أبيه قال قدمت المدينة فدخلت دارا من دورها فاذا عمر بن الخطاب (رض) عليه ازار قطري يدهن ابل الصدقة بالقطران

وأخرج عن زهير بن سالم ان كعب الاحبار قال نزلت على رجل يقال له مالك وكان جارا لعمر بن الخطاب فقلت له كيف بالدخول على أمير المؤمنين فقال ليس عليه باب ولا حجاب يصلي الصلاة ثم يقعد فيكلمه الناس

وفي المناقب عن الحسن (رض) قال كان بين عمر بن الخطاب وبين رجل كلام في شيء فقال له الرجل اتق الله فقال رجل من القوم أتقول لامير المؤمنين اتق الله فقال له عمر دعه فليقلها لي نعم ما قال لا خير فيكم اذا لم تقولوها ولا خير فينا اذا لم نقبلها

وليس قول عمر هذا من قبيل التواضع فقط بل هو من قبيل العلم بوجوب النصيحة على المسلمين وبوجوب انتصاح الامام منهم ورضاه بنصحهم وتذكيرهم له بالتقوى والعدل وذكر أرباب السير ان عمر (رض) كان أيام القادسية شديد التطلع الى أخبار جيوش المسلمين كثير الاهتمام بأمرهم فكان يخرج كل يوم خارج المدينة يترقب الاخبار ويتنسمها ثم يرجع الى أهله فلما لقيه البشير سأله من أين فأخبره فقال يا عبد الله حدثني قال هزم الله العدو وعمر يخب معه

ويستخبره والآخر يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة فاذا الناس يسلمون عليه بامرة المؤمنين فقال الرجل · فهلا أخبرتني رحمك الله انك أمير المؤمنين وجعل عمر يقول لا عليك يا أخي

وذكروا انّ عمر لما قدم الشام عرضت له مخاضة فنزل عن بعيره وخلع نعليه فامسكهما بيده فخاض الماء ومعه بعيره فقال له أبو عبيدة (رض) قد صنعت صنيعاً عظيما عند أهل الارض (يعني أهل الشام) فصك عمر في صدره وقال أواه لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة انكم كنتم أذل الناس وأحقر الناس وأقل الناس فأعزكم الله بالاسلام فمهما تطلبوا العزة بغير الله يذلكم الله

وروى الطبري ان عمر لما قدم الشام في أيام الطاعون اتخذ أيله طريقاً حتى اذا دنا منها تنحّى عن الطريق واتبعه غلامه فنزل فبال ثم عاد فركب بعير غلامه وعلى رحله فرو مقلوب وأعطى غلامه مركبه فلما تلقاه أوائل الناس قالوا أين أمير المؤمنين قال أمامكم يعني نفسه وذهبوا هم الى أمامهم فجاروه حتى انتهى هو الى أيلة فنزلها وقيل للمتلقين قد دخل أمير المؤمنين أيله ونزلها فرجعوا اليه (وذلك لانه لما قال لهم أمامكم وعنى نفسه لم يعرفوه وظنوا انه يشير الى انّ الامير غيره وقد تقدمه الى الامام)

وروى عن مولى لعثمان بن عفان (رض) قال كنت رديفاً لعثمان بن عفّان حتّى أتى على حظيرة الصدقة في يوم شديد الحر شديد السموم فاذا رجل عليه ازار ورداء قد لف رأسه برداء يطرد الابل يدخلها الحظيرة حظيرة إبل الصدقة فقال عثمان من ترى هذا قال فانتهينا اليه فاذا هو عمر بن الخطاب فقال هذا والله القوي الامين

وفي ذكر العيني عن الفضل بن عميرة انّ الاحنف بن قيس قدم على عمر بن

الخطاب في وفد من العراق قدموا عليه في يوم صائف شديد الحر وهو محتجز[1] بعباءة يهنأ[2] بعيراً من إبل الصدقة فقال يا أحنف ضع ثيابك وهلم فأعن أمير المؤمنين على هذا البعير فانه من إبل الصدقة فيه حق اليتيم والارملة والمسكين فقال رجل يغفر الله لك يا أمير المؤمنين هلا تأمر عبداً من عبيد الصدقة يكفيك هذا فقال عمر يا ابن فلانة وأي عبد هو أعبد مني ومن الاحنف هذا انه من ولي أمر المسلمين فهو عبد للمسلمين يجب عليه لهم ما يجب على العبد لسيده من النصيحة وأداء الامانة في المداراة .

تالله ان هذا الخلق لعلو لصاحبه عن وصف الواصفين ومرتبة لا يبلغها أحد من الخلفاء والسلاطين ومن يعد نفسه عبداً للرعية اذا ملكها وخادماً لها اذا أمرته عليها ويقوم على خدمتها قيام التابع على خدمة المتبوع في جزئيات أمورها وكليات سياستها الجدير بان يقال هذا ملك كريم لا ملك عظيم وحقيق بمثله الافتخار وعليه البكاء والى مثله الحنين ولا مثل لعمر جباراً على الظالمين رحيماً بالمستضعفين قوياً على الحق كريماً على الناس باراً بالرعية يتعب لتستريح ويسهر لتنام ويجوع لتشبع ويفتقر لتستغني فنسأل الله له الرحمة والرضوان كما نسأله لانفسنا العافية من الظلم والسلامة من عاقبة الجور انه مجيب السؤال

﴿اهتمامه بأمور الرعية﴾

(وعسسه بالليل)

كان عمر رضي الله عنه من حرصه على راحة الرعية يتفقدهم بنفسه ويهتم بشؤونهم أكثر من اهتمامه بشؤون بيته ومع ذلك فانه كان لا ينام عنهم بالليل كما

(١) ملتف (٢) يطلي

كان لا يغفل عنهم ساعة من نهار فليله ونهاره فى خدمة الرعية سواء اذ كان أكثر لياليه يعس بالمدينة بنفسه ويرتاد منازل المسلمين ويتفقد أحوالهم شأن الامراء الذين يعرفون انهم بما فوض اليهم من أمر الهيمنة على القانون خدام للرعية مسؤلون عن راحة الامة وسعادتها لا ان الرعية خدام لهم عبيد لشهواتهم

روى الطبريّ فى تاريخه عن بكر بن عبد الله المزنيّ قال جاء عمر بن الخطاب الى باب عبد الرحمن بن عوف فضربه فجاءت المرأة ففتحته ثم قالت له لا تدخل حتى أدخل البيت وأجلس مجلسي فلم يدخل حتّى جلست ثم قالت أدخل فدخل ثم قال هل من شئ فأتته بطعام فأكل وعبد الرحمن قائم يصلى فقال له تجوّز أيها الرجل فسلم عبد الرحمن حينئذ ثم أقبل عليه فقال ما جاء بك فى هذه الساعة يا أمير المؤمنين قال رُفقة نزلت فى ناحية السوق خشيت عليهم سُرّاق المدينة فانطلق فلنحرسهم فانطلقا فأتيا السوق فقعدا على نشز (مرتفع) من الارض يتحدثان فرفع لهما مصباح فقال عمر ألم أنه عن المصابيح بعد النوم فانطلقا فاذا هم قوم على شراب لهم فقال انطلق فقد عرفته فلما أصبح أرسل اليه فقال يا فلان كنت وأصحابك البارحة على شراب قال وما علّمك يا أمير المؤمنين قال شئ شهدته قال أو لم ينهك الله عن التجسس قال فتجاوز عنه

قال بكر بن عبد الله وانما نهى عمر عن المصابيح لان الفأرة تأخذ الفتيلة فترمي بها فى سقف البيت فيحترق وكان اذ ذاك سقف البيت من الجريد

وأخرج عن زيد بن أسلَم عن أبيه قال خرجت مع عمر بن الخطاب الى حرة حتى اذا كنّا بصرار اذا نار تؤرّثُ (تتقد) فقال يا أسلم اني أرى هؤلاء ركبًا قصر بهم الليل والبرد انطلق بنا فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم فاذا امرأة معها صبيان لها وقدر منصوبة على النار وصبيانها يتضاغون (يتصايحون) فقال

عمر السلام عليكم يا أصحاب الضوء وكره أن يقول يا أصحاب النار قالت وعليك السلام: قال أأدنو قالت ادن بخير أو دع. فدنا فقال ما بال هؤلاء الصبية يتضاغون قالت الجوع قال وأيّ شيء في هذه القدر قالت ما أسكتهم به حتى يناموا . الله بيننا وبين عمر. قال أي رحمك الله ما يدري عمر بكم قالت يتولى أمرنا ويغفل عنا فأقبل عليّ (أي على أسلم) فقال انطلق بنا فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق فأخرج عدلا فيه كبة شحم فقال أحمله عليّ فقلت أنا أحمله عنك قال احمله عليّ مرتين أو ثلاثاً كل ذلك أقول أنا أحمله عنك، فقال في آخر ذلك أنت تحمل عني وزري يوم القيامة لا أم لك فحملته عليه وانطلق وانطلقت معه نهرول حتى انتهينا اليها فالقى ذلك عندها وأخرج من الدقيق شيئاً فجعل يقول لها ذرّي عليّ وأنا أحرك لك وجعل ينفخ تحت القدر وكان ذا لحية عظيمة فجعلت أنظر الى الدخان من خلل لحيته حتى أنضج وأدم القدر ثم أنزلها وقال ابغني شيئاً فأتته بصحفة فافرغها فيها ثم جعل يقول اطعميهم وأنا أسطح لك فلم يزل حتى شبعوا ثم خلّى عندها فضل ذلك وقام وقمت معه فجعلت تقول جزاك الله خيراً أنت أولى بهذا الامر من أمير المؤمنين . فيقول قولي خيراً انك اذا جئت أمير المؤمنين وجدتني هناك ان شاء الله ثم تنحّى ناحية عنها ثم استقبلها وربض مربض السبع فجعلت أقول ان لك شأناً غير هذا وهو لا يكلمني حتى رأيت الصبية يصطرعون ويضحكون ثم ناموا وهدأوا فقام وهو يحمد الله ثم أقبل عليّ فقال يا أسلم ان الجوع أسهرهم وأبكاهم فاحببت أن لا انصرف حتى ارى ما رأيت منهم

وفي مناقب عمر للامام أبي الفرج بن الجوزي عن أنس بن مالك قال بينا عمر يعس المدينة اذ مرّ برحبة من رحابها فاذا هو ببيت من شعر لم يكن

بالامس قد نام منه فسمع أنين امرأة ورأى رجلا قاعدا قد نام منه فسلم عليه ثم قال من الرجل فقال رجل من اهل البادية جئت الى امير المؤمنين اصيب من فضله : فقال ما هذا الصوت الذي اسمعه في البيت قال انطلق يرحمك الله لحاجتك قال عليّ ذاك ما هو قال امرأة تمخّض قال هل عندها احد قال لا قال (اي انس) فانطلق حتى اتى منزله فقال لامرأته ام كلثوم بنت علي رضي الله عنهما هل لك في اجر ساقه الله اليك قالت وما هو قال امرأة عربية تمخّض ليس عندها احد قالت نعم ان شئت قال فخذي معك ما يصلح المرأة لولادتها من الخرق والدهن وجيئيني ببرمة وشحم وحبوب قال فجاءت به فقال لها انطلقي وحمل البرمة ومشت خلفه حتى انتهى الى البيت فقال لها ادخلي الى المرأة وجاء حتى قعد الى الرجل فقال له أوقد لي نارا ففعل فأوقد تحت البرمة حتى أنضجها وولدت المرأة فقالت امرأته يا أمير المؤمنين بشّر صاحبك بغلام فلما سمع (أي الرجل) يا أمير المؤمنين كأنه هابه فجعل يتنحّى عنه فقال له مكانك كما أنت فحمل البرمة فوضعها على الباب ثم قال (أي لام كلثوم) أشبعيها ففعلت ثم أخرجت البرمة فوضعتها على الباب فقام عمر رضي الله عنه فاخذها فوضعها بين يدي الرجل فقال كل ويحك فانك قد سهرت من الليل ففعل ثم قال (اي عمر) لامرأته اخرجي وقال للرجل اذا كان غد فأتنا نأمر لك بما يصلحك ففعل الرجل فأجازه وأعطاه

لله أيّ نفس طاهرة بارة هذه النفس وأيّ جنان خالص من شوائب التصنع هذا الجنان وأيّ خليفة عظيم بعد عمر يحمّل نفسه مثل هذا العناء ويضع نفسه في هذه المرتبة من التواضع والرحمة ويأخذ نفسه بهذا الأدب والاهتمام بافراد الرعية وهو يحتاج الى التجرد عن شهوات الملك وعظمة السلطان والتنزل عن مرتبة التسلط والكبرياء الى منزلة المساوي بأفراد الرعية وهيهات هيهات

فانّ الجبروت ملكة في نفوس الملوك لايمحوها الاّ الرغبة في الله كرغبة عمر او الرهبة من الشعب كرهبة ملوك الامم الحديثة من رعيتهم لهذا العهد

﴿ ورعه وزهده ﴾

تقدم معنا في سيرة ابي بكر (رض) ان طريقة الصحابة في الزهد هي العفة عن الفضول والقناعة بالكفاف وان ليس منهم الاّ من كان له سبيل للارتزاق وعمل اليد سواء كان في التجارة والصناعة وقد كان عمر كما في رواية النخعي تاجراً وانما هو كأبي بكر رضي الله عنهما ترك التجاره لمّا ولي امر المسلمين واقتنع من بيت المال بالكفاف وقال اصحاب السير ان عمر (رض) لما كتب نفسه في العطاء أقام نفسه مقام الاجير وأخرج ابن جرير الطبري في تاريخه وابن الجوزي في المناقب عن نافع عن ابن عمر قال جمع عمر الناس بالمدينة حين انتهى اليه فتح القادسية ودمشق فقال اني كنت امرءاً تاجراً وقد شغلتموني بأمركم هذا فماذا ترون انه يحل لي من هذا المال فاكثر القوم وعليّ رضي الله عنه ساكت فقال ياعليّ ماتقول قال مايصلحك ويصلح عيالك بالمعروف ليس لك من هذا الامر غيره فقال القول ماقال علي بن أبي طالب

واخرج عن اسلم قال قام رجل الى عمر بن الخطاب (رض) فقال ما يحل لك من هذا المال فقال ما أصلحني وأصلح عيالي بالمعروف وحلة للشتاء وحلة للصيف وراحلة عمر للحج والعمرة ودابة لحوائجه وجهاده

وروى الطبري ان هذا العطاء الذي رضيه عمر لنفسه وفرضه له المسلمون لم يكفه واشتدت به الحاجة فاجتمع نفر من المهاجرين منهم عثمان وعلي وطلحة والزبير وتشاوروا في زيادة يريدونها لعمر في رزقه من بيت المال فابوا مفاتحته بذلك فاتوا ابنته حفصة وأمروها ان تخبره الخبر وترى رأيه فيه ولاتذكر له

أسماءهم فلما أخبرته بذلك عرفت الغضب في وجهه وقال لها من هؤلاء : قالت لا سبيل الى علمهم حتى أعلم رأيك فقال لو علمت من هم لسوءت وجوههم أنت بيني وبينهم أنشدك بالله ما أفضل ما اقتنى رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتك من الملبس (وكانت زوجته) قالت ثوبين ممشقين كان يلبسهما للوفد ويخطب فيهما للجمع قال فأيّ الطعام ناله عندكِ ارفع قالت خبزنا خبزة شعير فصببنا عليها وهي حارة أسفل عكة [1] فجعلناها هشة [2] دسمة فأكل منها وتطعّم استطابة لها . قال فأيّ مبسط كان يبسطه عندك كان أوطأ [3] قالت كساء لنا ثخين كنّا نربّعه في الصيف فنجعله تحتنا فاذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه قال يا حفصة فأبلغيهم عني ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدّر فوضع الفضول مواضعها وتبلّغ بالترجية وانى قدّرت فوالله لأضعنّ الفضول مواضعها ولأتبلّغنّ بالترجية [4] وانما مثلي ومثل صاحبيّ كثلاثة سلكوا طريقا فمضى الاول وقد تزوّد زادا فبلغ ثم اتبعه الآخر فسلك طريقه فأفضى اليه ثم اتبعه الثالث فان لزم طريقهما ورضي بزادهما لحق بهما وكان معهما وان سلك غير طريقهما لم يجامعهما

هكذا كان شأن عمر رضي الله عنه في العفة والقناعة والرضى بالكفاف مما يسد الجوع ويستر العري وروى في المناقب عن الحسن قال خطب عمر الناس وهو خليفة وعليه ازار فيه اثنتاعشرة رقعة . وفي المناقب أيضا عن أبي عثمان النهدي قال رأيت عمر بن الخطاب يطوف بالبيت وعليه ازار فيه اثنتاعشرة رقعة احداهن بادم (جلد) أحمر وفيها عن قتادة أنّ عمر بن الخطاب أبطأ على

---

(١) قربة السمن الصغيرة (٢) طرية (٣) ألين (٤) قال في القاموس تبلغ بكذا اكتفى به والترجية والزجاء بمعنى واحد وهو سد الرمق

الناس يوم الجمعة ثم خرج فاعتذر اليهم فى احتباسه وقال انما حبسني غسل ثوبي هذا ولم يكن لى ثوب غيره

وفيها عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص قال . قالت حفصة بنت عمر بن الخطاب لعمر يا أمير المؤمنين لو لبستَ ثوباً هو الين من ثوبك هذا وأكلت طعاماً هو ألين وأطيب من طعامك فقد وسّع الله من الرزق وأكثر من الخير . فقال اني سأخاصمك الى نفسك أما تذكرين ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى من العيش فما زال يذكرها حتى أبكاها

ومن هذا وغيره من أخبار عمر الكثيرة فى الزهد نعلم انه (رض) انما سلك هذا الطريق من الزهد اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وبأبي بكر الصديق ولم يكن يرضى لعامة المسلمين بمثل هذا الزهد والتقشف وانما هو كان يحملهم على الطريق الوسط كي لا ينغمسوا فى النعيم ويسترسلوا فى الشهوات فتفسد أخلاقهم وتفتر هممهم ولا ينقطعوا عن العمل ويعرضوا بتاتاً عن نعيم الحياة فتجمد ملكاتهم وتتعطل أمور معاشهم ومن يرى كتابه لذى كتبه الى أبي عبيدة ابن الجراح (وستأتى صورته فى باب كتبه) يلومه فيه على شدته فى منع المسلمين عن التنعم يتضح له مذهبه فى حمل المسلمين على طريق الوسط وعدم حملهم على الزهد وانما هو كان يشدّد على العمال فقط في النهي عن التنعم ويحملهم على طريقته في الزهد كى لا يتبسطوا في نعيم الحضارة ويتوسعوا في اسباب الرفاه فيحملهم ذلك على السرف الذي يحتاج الى كثرة المال وربما حملت احدهم حاجة السرف الى تناول المال من غير طرقه المشروعة فتتأذى بهم الرعية وتضطرب نظام العدل الذي لم يكن شيء في الدنيا احب اليه منه

كلمة في بيت المال

علمت مما مر في الفصل السابق ان عمر رضي الله عنه انما سلك في زهده وتقشفه طريق النبوة ولم يأخذ من بيت المال الا مقدار الحاجه للمعيشة الساذجة التي تليق بزهده كما ان المسلمين انما راعوا في فرضهم العطاء له حالة معيشته ولما اشتدت به الحاجة رأوا لزوم الزيادة في عطائه ليعادل نفقته فأبى عليهم هذه الزيادة ورعا وزهداً وعمل الصحابة هذا يدل على جواز تناول الامير من بيت المال ما فيه الكفاية له في معيشته بنسبة حاله فيما لو ترقت أصول معيشته اذ ليس في طاقة كل خليفة ان يسلك مسلك عمر وأبي بكر في التقشف والزهد ويتأدب مثلهما بآداب النبوة وليس ذلك بواجب على كل خليفة بل الواجب هو القصد في المعيشة والامساك عن البذل الى حد السرف والتعفف عن فضول أموال الأمة ووضعها في مواضعها المشروعة كما كان ذلك من الخليفة عثمان رضي الله عنه فانه لما لم يستطع المسير على قدم من سبقه حاوله ان يتوسع في المعيشة ويتناول من بيت المال ما يكفيه من غير سرف ولا تقتير

وقد رأيت ان الصحابة رضوان الله عليهم لما تشاوروا في أمر الزيادة في عطاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) انما راعوا حاجته الضرورية التي كانت تناسب معيشته وتقتضي تلك الزيادة ولم يراعوا نفس المنصب أو يريدوا التوسعة عليه بقبول الاموال كما انه هو لم يرض تلك الزيادة خشية ان يكون فيها شيء من السرف في الاموال وحبذا لو نظر الخلفاء بعده هذا النظر وراعوا في بيت المال أوامر الشريعة وسنة السلف من الصحابة فان فيها كل الحكمة وليست في ذاتها ممانعة لهم عن تناول مقدار الحاجة مهما بلغ وانما هي تمنع من تناول الفضول والتوسع في البذل والسرف في المعيشة الى حد الاستئثار

بأموال بيت المال وتبديدها في سبيل الشهوات ووضعها في غير مواضعها المشروعة التي بها قوام الامة كلها الا الخليفة وحده ولقد بلغ تجاوز هذه الحدود المعقولة في دول الاسلام مبلغا يدهش عقول الباحثين وما نطن الآن أن أكثر البلاء الذي حل بهذه الأمة والضعف الذي انتابها في العصور القديمة والحديثة ناشئ عن اسراف امرائها وسلاطينها وتبديدهم للاموال في طرق الشهوات وليست هذه الآفة خاصة بدول الاسلام وانما هي عامة في كل دول الارض وانما هي تتفاوت بتفاوت الامم بمعرفة حقوق الرؤساء وحقوقها وتباين بتباين صبغة الحكومة في كل قوم

وأشقى الامم من هذا القبيل الأمم التى لا حد لسلطة رؤسائها يعرف ولا غاية لسلطانهم توصف وانما هم أرباب اليد المطلقة فى أموال الرعية يأخذون منها ماشاءوا ويمنعون من شاءوا وينفقون الاموال فيما شاءوا ليس عليهم من الامة رقيب عتيد ولا من الوجدان زاجر عتيد وقلما منيت مملكة بهذا النوع من الحكم وبهذا البلاء من التسلط الا في رادها وساء معادها والشاهد على هذا من دول الاسلام سيأتى فى هذا الكتاب وأما من دول أوروبا فيكفى فيه ان يقال ان الامبراطور شارلكان الذى قام فى أوروبا فى أوائل القرن السادس عشر بعد المسيح وملك معظم الديار الاوربية وتسلط على سائر الشعوب والدول لما لم يكن لسلطته حد فى بيوت الاموال جعل ينفق منها فى سبيل سيادته على الملوك فى عصره مالا يدخل تحت حساب حتى اذا أحس بالعجز عن سياسة دولة الملك العريض افتقر بيوت أمواله وانهاكه قوى رعيته ترهب فى دير من الاديرة ولم يلبث ان مات فيه واستشعر نموه عن سياسة الممالك لاروتنص الاسبانيول واذلك أساس ما سماه شارلكان بسببه من الارث الكبير

حتى كأنه ما كان . لهذا لما تنبهت الشعوب الاوربية من سنة الغفلة ووضعوا حداً لسلطة الرؤساء والامبراطرة أخذوا على أيديهم فيما أخذوا التسلط على بيوت الاموال وفرضوا لكل منهم كفايته منه بنسبة حاله فى المعيشة وحال بلاده من الثروة كما كان ذلك على عهد الخلفاء فى صدر الاسلام فكان من ذلك ان عم اليسر خزائن الدول الاوربية وتوفرت على القيام بشؤون الرعية الحربية والعلمية واعتزت بفضول المال بأسباب المنعة والجاه والقوة فبسطت جناح السلطان على معظم ممالك الارض وهذا شأن الحياة فى الامم اذا دب دبيبها فى جسمها وبهت دورة الدم فى عروقها والعكس بالعكس

ومن عجيب الامور انّ يد الحاكم متى أطلقت فى بيت المال يتفشى الخلل فى سائر فروع الحكومة تفشيا وبيلا بحيث لو أراد الحاكم نفسه ان يتلافى ذلك الخلل لتعذر عليه ذلك بأى سبب من الاسباب ولو مهما كان قادراً أو مملكته غنية وأقرب شاهد نذكره للشرقي هنا ما كان فى عهد المرحوم اسماعيل باشا الخديوي الاسبق فى مصر من الخلل العظيم فى سائر فروع الحكومة المصرية بسبب تسلطه على أموال الحكومة وسرفه فيها وتبديده لها فى الوجوه التى لا تستلزمها حياة الامة ولا الملك حتى كان من ذلك ان بات العامل فى الحكومة والجنديّ فى الثكنة لا يتناولان مرتبهما الّا كل بضعة شهور مرة مع غنى البلاد وثروتها ومع ما حملها من الديون التي تزيد عن مائة مليون من الليرات (الجنيهات)

ولمّا أحسّ بالخطر الذي أشرفت عليه البلاد والضيق الذي استحوذ على مالية الحكومة وهب لتلافى ذلك الخطر وأخذ فى تنظيم شؤون البلاد تعذر عليه ذلك مع طول باعه فى السياسة وحنكته في الامور ووجود رجال يساعدونه على ذلك القصد ثم فشل فشله المعروف في التاريخ وانتهى الامر بعزله عن امارة

مصر باتفاق كل الدول صاحبات الديون في مصر مع الدولة العلية صاحبة الشأن فيها ولما ولي الإمارة ابنه المرحوم توفيق باشا وأقبل منها على أمر جلل لا يقوم به الا العفيف الحازم الرأي وأراد أن ينقذ البلاد من ورطة العوز والحكومة من خلل النظام فأول ما بدأ به أن كف يده عن بيوت الاموال وأمر بتنظيم شؤون الجباية وقيد نفسه بقانون مخصوص من جهة ما يتناوله وأبناء عشيرته من الامراء من مال الحكومة وكان ذلك باشارة بعض مندوبي الدول صاحبات الشأن في المالية وهو لحسن قصده لم يقاوم رأيهم أو يأبى قبول اشارتهم ومن ثم ظهرت في الحكومة علائم الاصلاح وبدت في الحال ثمرة تنظيم الشؤون المالية حتى حدث ما حدث في مصر من أسباب الثورة العرابية واحتلال الدولة الانكليزية في البلاد ثم مضى الامر لهذا العهد على وجهه واستمر نظام المالية في نمو وجباية البلاد في ازدياد حتى بلغت الى هذا العهد عشرة ملايين ونصفا ونيفا من الجنيهات وانتظمت سائر فروع الحكومة انتظاماً يحسدها عليه كثير من الشعوب الشرقيين وحكوماتهم وكل ذلك نتيجة كف يد الحاكم عن بيوت الاموال وضبط أصول الجباية وحسابات الحكومة والله يوفق من شاء الى ما شاء

هذا وأما واضع بيت المال في الاسلام فانه أبو بكر (رض) كما مر في سيرته وانما كان ساذجاً تحشر اليه الاموال من الفيء والصدقة ثم توزع في اماكنها المشروعة وعلى وجوه التي أمر بها الله في الكتاب الكريم الذي وضع للمسلمين أصول التوزيع (المعروفة الآن بميزانية الحكومة المالية) وقد مر ذكر ذلك الا انه لم يكن ثمة ضابط ولا قيد في ديوان وقد رأيت فيما مضى من سيرة عمر رضي الله عنه كيف بعض لوضع الديوان بكيفية الفيء والخرج وأردت خزينة ضبطاً لاموريت المال وتقسيماً للنفقات وانما كان ديوان بيت المال هو الدفتر الذي

يضبط فيه الحساب ثم مازال يترقى الحال حتى تفرع عن بيت المال عدة دواوين على عهد الخلفاء من بني أمية وبني العباس كافرادهم ديوان العطاء وحده وكذلك ديوان الخراج وديوان الاقطاع وسنستقصيها عند الكلام على رجال هذه الدول ان شاء الله وكل هذه الدواوين كانت تابعة لبيت المال وقد توسع الائمة والفقهاء بعدُ في وضع الضوابط والقوانين التي تتعلق ببيت المال وكلها كانت استنباطا من أصول الشريعة وعمل الصحابة مثل كتاب الخراج لابي يوسف وما يشبهه من الكتب الواردة في مؤلفات الفقه الاسلامي الآ ان أمر بيوت الاموال تقلّب بعد ذلك بتقلب الدول الاسلامية وتغير بتغير الزمان وخرجت ضوابطه عن طوق الفقهاء واستأثر بها الامراء قلباً وإبدالاً ومحواً وإثباتاً على مقتضى الظروف والاحوال الى الآن

﴿ حسبته ﴾

أصل الحسبة هي مشارفة السوق والنظر في موازينه ومكاييله ومنع الغش والتدليس فيما يباع ويشرى فيه من المأكول والمصنوع وغيره وتسعير السوق ورفع الضرر عن الطريق ودفع الحرج عن السابلة وتنظيف الازقة وبالجملة هي كل الوظائف المتعلقة بما يعرف الآن بالمجالس البلدية ولها في الاسلام ولاية خاصة تسمى ولاية الحسبة وأول من وضعها على ما ظهر هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد جاء في كنز العمال في حديث أخرجه ابن سعد عن الزهري ان عمر بن الخطاب استعمل عبد الله بن عتبة على السوق وقال العلماء هذا اصل ولاية الحسبة

ومن ثم ترقت الحسبة في الاسلام ترقياً عجيبا حتى كانت من اهم الشؤون التي عني بها الخلفاء والفقهاء وقد توسع بعض العلماء بتوسع الحاجة في وظيفة والي الحسبة فجعلوها تشمل كل أمر بمعروف ونهي عن منكر ومن هؤلاء شيخ الاسلام ابن

تيمية فقد أجاز التوسع في ولاية الحسبة حتى في اقامة الصلوات الخمس في مواقيتها وتعاهد الائمة والمؤذنين وإلزامهم باداء وظائفهم على مقتضى الشرع وحجته في جواز التوسع بهذه الوظيفة ماقاله عن الولايات في كتاب الحسبة في الاسلام المطبوع حديثاً في مصر ونصه

عموم الولايات وخصوصها وما يستفيده المتولي بالولاية يتلقى من الالفاظ والاحوال والعرف وليس لذلك حد في الشرع فقد يدخل في ولاية القضاء في بعض الامكنة والازمنة ما يدخل في ولاية الحرب في مكان وزمان آخر وبالعكس وكذلك الحسبة وولاية المال اهـ

ومن هذا ترى مبلغ عناية القوم بهذه الوظيفة السامية وتوسعهم فيها وإتقانهم لها حتى انا رأينا من بعض آثار الحسبة على عهد الفاطميين قطعاً مستديرة من الزجاج ومزيجاً آخر معه على وزن الدينار والدرهم مكتوباً عليها وزن واف او ماهو بمعناه ومثلها للاوزان الحميمة وكلها كانت تصدر من والي الحسبة او المحتسب على تعبير المتأخرين لاجل ان يضبط بها الناس عيار الدراهم والدنانير والاوزان على مايطمئن منعاً للتلاعب والغش الا انا لم نقف على التاريخ الذي الغي فيه اسم المحتسب ولعله منذ نشأت المجالس البلدية في المملكة العثمانية وسنتكلم عليها في مكان آخر باوسع من هذا ان شاء الله

اما حسبة عمر رضي الله عنه فقد قدمنا انه استعمل لها عبد الله بن عتبة ومع ذلك فقد كان يقوم بنفسه بوظائف المحتسب ويشارف السوق ويراقب المكاييل والموازين ويأمر باماطة الاذى عن الطريق

أخرج الامام ابن الجوزي عن المسيب بن دارم قال رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يضرب جمالاً ويقول حملت جملك ما لا يطيق

وفي كنز العمال عن زيد بن فياض عن رجل من أهل المدينة قال دخل عمر بن الخطاب السوق وهو راكب فرأى دكاناً قد أحدث في السوق فكسره

وفيه عن عبد الله بن ساعدة الهذلي قال رأيت عمر بن الخطاب يضرب التجار بدرّة اذا اجتمعوا على الطعام بالسوق حتى يدخلوا سكاك أسلم ويقول لا تقطعوا علينا سابلتنا

وفيه عن علي انه كان يأمر بالمثاعب[1] والكنف تقطع عن طريق المسلمين

وفيه عن القاسم بن محمد ان عمر بن الخطاب مرّ بحاطب بسوق المصلّى وبين يديه غرارتان فيهما زبيب فسأله عن سعرها فسعر مدّين بكل درهم فقال له عمر : حدثت بعير مقبلة من الطائف تحمل زبيباً وهم يعتبرون بسعرك فاما أن ترفع في السعر واما أن تدخل زبيبك البيت فتبيعه كيف شئت فلما رجع عمر حاسب نفسه ثم أتى حاطباً في داره فقال ان الذي قلتُ ليس بعزمة ولا قضاء وانما هو شيء أردت به الخير لاهل البيت فحيث شئت فبع وكيف شئت فبع (أخرجه الشافعي في السنن)

وله اخبار غير هذه في الحسبة وقد اكتفينا عنها بما تقدم دلالة على الباقي

﴿ قضاؤه ﴾

كتبنا في سيرة أبي بكر فصلا عن القضاء في الاسلام وكيف كان يقضي ابو بكر وعمر رضي الله عنهما فلا نرى حاجة للمزيد هنا الا بعض أخبار عمر في القضاء فانا نأتي بها إتماماً للفائدة

كان عمر رضي الله عنه يتولى القضاء بنفسه وينيب عنه غيره لما هو معروف من أن القضاء في الاسلام وظيفة من وظائف الامام يجوز له أن يتولاها بنفسه

---

(١) مسايل الماء في الابنية

وأن ينيب بها عند الحاجة غيره وكان تحريه للعدالة في انتخاب القضاة كتحريه في انتخاب الولاة لا يراعي في كليهما الا الاهلية والاستعداد والتقوي والعدل ويعلم ان اثم الظالم اذا ظلم على موليه فقصد اخرج ابن الجوزي في المناقب عن عبد الملك ابن عمير قال قال عمر بن الخطاب رضوان الله عليه من استعمل رجلا لمودة أو لقرابة لا يستعمله الا لذلك فقد خان الله ورسوله والمؤمنين

وأخرج عن عمران بن سليم عن عمر قال من استعمل فاجراً وهو يعلم انه فاجر فهو مثله

وكما كان يتحرى في انتقاء العمال والقضاة التقوى والعدل له يتحرى العلم والمعرفة والذكاء ويبغض خرق العامل وجهله

أخرج ابن الجوزي عن محارب بن دثار عن عمر بن الخطاب انه قال لرجل قاض من أنت قال قاضي دمشق قال كيف تقضي قال أقضي بكتاب الله . قال فاذا جاءك ماليس في كتاب الله قال أقضي بسنة رسول الله قال فاذا جاءك ماليس في سنة رسول الله قال اجتهد رأيي وأوامر (أي أشاور) جلسائي قال أحسنت وقال فاذا جلست فقل اللهم اني أسئلك أن أفتي بعلم وأن أقضي بحكم . وأسئلك العدل في الغضب والرضى قال فسار الرجل ماشاء الله أن يسير ثم رجع الى عمر فقال ما ارجعك قال رأيت الشمس والقمر يقتتلان مع كل واحد منهما جنود من الكواكب فمع أيهما كنت قال مع القمر قال يقول الله عز وجل (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة) لا تلي لي عملا وانما عزله لجهله وأبعده عن العمل لسخافة قوله وهكذا كان شأنه مع عماله رضي الله عنه

وكان لا يحب تعجيل الفصل في الخصومة رجاء أن يصطلح الخصمان وتمحي

آثار الضغائن من النفوس فقد جاء في كنز العمال عنه رضي الله عنه انه قال ردوا الخصوم حتى يصطلحوا فان فصل القضاء يورث الضغائن بين الناس. وأما كلامه في القضاء ووصاياه للقضاة فتظهر من الكتابين التاليين

﴿كتابه في القضاء الى شريح القاضي﴾

أما بعد اذا جاءك شيء في كتاب الله فاقض به ولا يلفتنك عنه الرجال فان جاءك أمر ليس في كتاب الله فانظر سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقض بها فان جاءك أمر ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله فانظر ما اجتمع عليه الناس فخذ به. فان جاءك ما ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله ولم يتكلم فيه أحد قبلك فاختر أي الامرين شئت. ان شئت ان تجتهد رأيك وتقدم فتقدم. وان شئت ان تأخر فتأخر ولا أرى التأخير الا خيرا لك اه (من كنز العمال)

وأما أقضيته فكثيرة لا يسعها هذا الكتاب فليرجع اليها من أحب في كتب الحديث وقد خالف في بعض أحكامه ما قضت به السنة مراعاة للحال والمصلحة ولم يؤآخذ على ذلك لحسن قصده منها حكمه بتحريم المتعة وقد أحلت في ظروف مخصوصة ومنها حكمه بوقوع الطلاق الثلاث اذا صدر عن شخص مرة واحدة مع ان السنة قضت بوقوعه طلقة واحدة وأراد بهذا قهر النفوس على تجنب الطلاق لما يحصل عند المطلق من الندامة اذا أحس بألم الحكم بوقوع الطلاق الثلاث وغير ذلك من الاحكام النافعة الى أحد بها بعد كثير من أئمة المسلمين اقتداء بحسن رأيه وجميل قصده فليرجع اليها في مظانها من كتب الأئمة والمحدثين من شاء

﴿كتابه في القضاء الى أبي موسى الاشعري﴾

بسم الله الرحمن الرحيم (أما بعد) فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم

اذا أدلي اليك[١] فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له آس[٢] بين الناس في مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف في حيفك[٣] ولا يخاف ضعيف من جورك والبينة على من ادعى واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين الا صلحاً حرم حلالاً أو أحل حراماً . ولا يمنعك قضاء قضيته بالامس راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل . الفهم الفهم عندما يتلجلج[٤] فى صدرك مما لم يبلغك فى كتاب الله ولا سنة النبي صلى الله عليه وسلم . اعرف الامثال والاشباه وقس الامور عند ذلك ثم اعمد الى أحبها الى الله وأشبهها بالحق فيما ترى واجعل للمدعي حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهي اليه (أي وقتاً محدوداً) فان أحضر بينته أخذت له بحقه والا وجهت عليه القضاء فان ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى وأبلغ فى العذر . المسلمون عدول بعضهم على بعض الا مجلوداً فى حد أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظنيناً[٥] فى ولاء أو قرابة فان الله قد تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالشبهات . ثم اياك والقلق والضجر والتأذي بالناس والتنكر للخصوم فى مواطن الحق التى يوجب الله بها الأجر ويحسن بها الذخر فانه من يخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ولو على نفسه يكفه الله ما بينه وبين الناس ومن تزين للناس بما يعلم الله خلافه منه هتك الله ستره وأبدى فعله والسلام (من البيان والتبيين)

وهذا الكتاب على ايجازه هو الذي تدور عليه أحكام القضاء الى هذا العهد

---

(١) رفع اليك الامر وجيء به اليك (٢) اعدل وسو (٣) الحيف الجور والظلم كما فى القاموس (٤) التلجلج التردد فى الكلام كما فى القاموس (٥) هو المتهم بسبب قرابة أو ولائه

﴿ فراسته وذكاؤه ﴾

كان رضي الله عنه حديد الذكاء شديد الفراسة يكاد بفراسته يستطلع خبايا القلوب ويستخرج ما تكنه النفوس وقد ساعده تفرسه في الناس على وضع الشدة في مواضعها واللين في مواضعه حتى أخذ بنواصي الناس واستكانت له النفوس رغبة ورهبة وكان أشد الناس حذراً منه قريش كما كان هو أشد الناس حذراً منهم واستكناها لكنه ضمائرهم ليحسن الى محسنهم ويأخذ على يدي مسيئهم لهذا دبت في قلوبهم هيبته وعملت في نفوسهم فراسته

لمّا جاء عمرو بن العاص من جيفر وأخبر المسلمين بكثرة من تجمع لهم من جيوش الردة في خلافة أبي بكر تفرق المسلمون وتحلقوا حلقاً وأقبل عمر للتسليم على عمرو فمر على حلقة فيها نفر من المهاجرين وهم عليّ وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن وسعد فلما دنا عمر منهم سكتوا فقال فيم انتم فلم يجيبوه فاستطلع طلع واطنهم وأدرك بفراسته ماهو دائر بينهم من الكلام فقال لهم اكم تقولون ما أخوفنا على قريش من العرب قالوا صدقت قال فلا تخافوهم أنا والله منكم على العرب اخوف مني من العرب عليكم والله لو تدخلون معاشر قريش حجراً لدخلته العرب في آثاركم فاتقوا الله فيهم ومضى

ولا يخفى ما في هذا الكلام من المغامز خلا ما فيه من الاستخفاف بقوة العرب وانما أدرك ما خامر نفوسهم من أخبار الردة فاراد أن يستفز منهم صدق العزيمة لمضافرة أبي بكر ومكاتفته على استخضاع العرب ويبين لهم انهم قدوة العرب وأئمة الناس فحيثما اتجهوا اتجه معهم الناس طوعاً أو كرهاً وهذا هو الحق الذي شهدت له الحوادث العظمى التي حدثت بعد خلافة أبي بكر وعمر وسبق بها العرب الى ماسبقوا اليه ودخلوا مع قريش لى حيث دخلوا كما هو معروف في

التاريخ وسنيشير اليه في محله ان شاء الله

وحسب عمر من سعة المدارك وبعد النظر والذكاء قيامه ببيعة أبي بكر ومبادرته الى ذلك قبل اخوانه من المهاجرين مع تحققه ان أمر البيعة منوط بالشورى متوقف على اتفاق المهاجرين وغيرهم من أهل الحل والعقد لهذا اعتدها بعد ذلك فلتة وقى الله المسلمين شرها كما سترى في احدى خطبه التي تجيء في باب الخطب وانما عجل بيعة أبي بكر لما كان يفرسه في وجوه القوم ويتوقعه من المهاجرين من الاختلاف كما كان ذلك من الانصار ويا ويح الأمة لو حدث من الخلاف بين المهاجرين في ذلك العهد ما حدث في خلافة عثمان وما بعده اذ كان الاسلام غضاً طرياً والناس لوفاة النبي صلى الله عليه وسلم في اضطراب والعرب على قدم القيام على المسلمين وإنما تلافى هذا الخطر وحال دون ذلك الخلاف عمر رضي الله عنه بمبايعته لابي بكر لعلمه بأنه أقدم المهاجرين اسلاماً وأكبرهم سناً وأضعفهم عصبية فاذا تعجل بمبايعته قطع آمال المتطلعين الى الخلافة من أولي العصبيات الكبيرة فكانوا باجمعهم عصبية لابي بكر يذودون عن حوضه ويفون نحو طاعته لا سيما وان ليس لاحد منهم غاية بعد تقرير أمر الخلافة الا نصرة الدين والقيام على الحق شأنهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مدى حياته وانما هم تزاحموا على الخلافة بعده لاعتزاز كل فرد منهم بعصبيته وسابقته في الاسلام وكونه يرى نفسه أولى بخدمة المسلمين وأحق بامرة المؤمنين لانهم كما قدمنا في غير هذا المحل كانوا كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها . أي كلهم أهل للخلافة وجدير بخدمة ذلك المنصب فقيام عمر ببيعة أبي بكر قطع جهيزة قول كل خطيب وجعلهم كلهم راضين بها لعلمهم بسابقته وفضله وعزمه ولا ضعف صمير كل فرد من المتطلعين اليها بصرفها عن الآخر وهذا الذي دعا لارتياحهم

جميعاً الخلافة أبي بكر وإنما كان القائم بها العارف بلزومها عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعنهم أجمعين

ومن عجيب فراسته التي كان كأنه ينظر منها بعين الغيب ما ذكره ابن عبد ربه في العقد قال قال أبو بكر بن أبي شيبة كان عبد الله بن عباس من أحب الناس الى عمر بن الخطاب وكان يقدمه على الاكابر من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ولم يستعمله قط فقال له يوماً كدت أستعملك ولكن أخشى أن تستحل الفيء على التأويل فلما صار الامر الى علي استعمله على البصرة فاستحل الفيء على تأويل قول الله تعالى (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى) واستحله من قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تفرس فيه ذلك عمر من قبل

هكذا كان يبلغ فراسة عمر رضي الله عنه خصوصاً في بني هاشم وقد كان يتفرس فيهم القيام يوماً لطلب الخلافة وإثارة غبار الفتن والاستحواذ على ذلك المنصب الذي كانوا يرون أنفسهم أحق الناس به على خلاف ما كان يراه جلة المهاجرين الذين يعلمون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم منعهم من أن يعملوا له عملاً كي لا يحدثوا أنفسهم بشيء من الامارة لانها غير النبوة ومن ذلك ما ذكره في العقد ان العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم طلب منه ولاية فقال له (يا عم نفس تحييها خير من ولاية لا تحصيها)

وكان عمر لتفرسه فيهم التطلع الى الامارة لا يستعمل أحداً منهم كما لم يستعملهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويجاهر بطهه هذا فيهم وقد جاهر به لعبد الله بن عباس مرارا ومنه ما تقدم ذكره في باب سياسته اذ قال له يا ابن عباس اني خشيت أن يأتي علي الذي هو آت وأنت في عملك فتقول هلم الينا ولا هلم اليكم دون غيركم

ولقد تحققت فراسته في بني هاشم بعد اذ قضوا عصوراً طويلة في مكافحة الملوك ومزاحمة الخلفاء على الخلافة وأسسوا عدة دول أضخمها العباسية في بغداد والفاطمية في أفريقيا وأهرقوا سيولا من دماء أشياعهم وأشياع غيرهم في سبيل نيل هذه البغية. وتأتى عن هذه المزاحمة من التشويش في أمور الدول الاسلامية والاضطراب في المسلمين ما الله به عليم. على انهم لو اتعظوا بعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ صرف أسلافهم عن الامارة وصرفها عنهم لما أقدموا على شيء من ذلك بل لكانوا اذا استمر في نفوسهم شيء من التطلع الى الخلافة سلكوا اليها سبيلا غير ذلك السبيل وجعلوا الأمة بأجمعها طامحة الانظار اليهم ساعية بنفسها لاسناد منصب الخلافة لاهل الجدارة منهم وحسبهم موعظة وذكرى ان علي بن أبي طالب رضي الله عنه على صلاحه وتقواه وسابقته في الاسلام وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهرته بالعدل والورع والزهد (ومن كعلي بعده) لم يتوقف عن جمع كلمة الأمة على الرضى بخلافته لا لقصور فيه معاذ الله وانما هو لما وقر في نفوس الامة يومئذ من ان الهاشميين بسبب قرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسكنون عن الادلال على الناس وحب الاستعلاء على الكافة والناس يومئذ في إبان نشأة الاسلام وعز الحرية وحظيرة المساواة والاخاء التي حشرهم اليها الاسلام بقوله تعالى (انما المؤمنون اخوة) وبقول النبي صلى عليه وسلم (لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى) فتوهموا أن تسلمهم بنو هاشم شيئاً من هذه النعمة بالاستعلاء عليهم كانوا غير ميالين لاستخلاف أحد منهم بذلك على صدق هذا القول ما ذكره في العقد عن عبد الله بن عباس قال ماشيت عمر ابن الخطاب يوماً فقال لي يا ابن عباس ما يمنع قومكم منكم وأنتم أهل البيت خاصة قلت لا أدري قال لكني أدري انكم فضلتموهم بالنبوة فقالوا ان فضلوا بالخلافة

مع النبوة لم يبقوا لنا شيئاً وان أفضل النصيبين بأيديكم بل ما اخالها الا مجتمعة لكم وان نزلت على رغم أنف قريش (يريد الخلافة)

﴿ نُبَذ من فنون اقواله واخباره ﴾

من اخباره في الشفقة ورقة القلب ما اخرجه في المناقب عن الاحنف بن قيس قال وفدنا على عمر رضي الله عنه بفتح عظيم فقال أين نزلتم. فقلت في مكان كذا فقام معنا حتى انتهينا الى مناخ رواحلنا فجعل يتخللها ببصره ويقول ألا اتقيتم الله في ركابكم هذه أما علمتم ان لها عليكم حقاً ألا خليتم عنها فأكلت من نبت الارض فقلنا يا أمير المؤمنين انا قدمنا بفتح عظيم فاحببنا التسرع الى أمير المؤمنين بما يسره

عن نافع قال دخل شاب قوي المسجد وفي يده مشاقص [1] وهو يقول من يعينني في سبيل الله فدعا به عمر فأُتي به فقال من يستأجر مني هذا يعمل في أرضه فقال رجل من الانصار انا يا أمير المؤمنين قال بكم تأجره قال كل شهر بكذا وكذا قال خذه فانطلق به فعمل في ارض الرجل اشهراً ثم قال عمر للرجل ما فعل أجيرنا قال صالح يا أمير المؤمنين قال ائتني به وبما اجتمع له من الاجر فجاء به وبصرة من دراهم فقال (عمر للرجل) خذ هذه فان شئت فالآن اغز وان شئت فاجلس

وشفقته على هذا الرجل هي من جهة انه رآه قوياً واهلا للعمل فاعطاه لمن يستأجره كي لا يكون عالة على الناس

ومن جميل اخباره في تأديب الناس على ستر العورات وكتمان ما يمس لشرف الصيانة ما جاء في المناقب عن الشعبي قال اتى عمر بن الخطاب رجل فقال ان

---

(١) قال في القاموس المشقص كمنبر نصل عريض او سهم فيه ذلك والنصل الطويل او سهم فيه ذلك يرمى به الوحش

ابنة لي كنت وأدتها (١) في الجاهلية فاستخرجناها قبل أن تموت فأدركت معنا الاسلام فاسلمت ثم أصابها حد من حدود الله فاخذت الشفرة لتذبح نفسها وأدركناها وقد قطعت بعض أوداجها فداويناها حتى برأت ثم اقبلت بعد توبة حسنة وهي تخطب الى قوم افأخبرهم بالذي كان. فقال عمر (رض) اتعمد الى ما ستره الله فتبديه والله لئن اخبرت بشأنها احداً من الناس لاجعلنك نكالا لاهل الامصار انكحها نكاح العفيفة المسلمة

ومن أخباره في رفع القصاص عن القاتل دفاعاً عن الشرف والعرض ما أخرجه في المناقب عن الليث عن عبدالله بن صالح قال أتي عمر بن الخطاب بفتى أمرد وجد قتيلا ملقى على وجهه في الطريق فسأل عمر عن أمره واجتهد فلم يقف له على خبر ولم يعرف له قاتل فشق ذلك على عمر وقال اللهم اظفرني بقاتله حتى اذا كان رأس الحول أو قريباً من ذلك وُجد صبي مولود ملقى موضع القتيل فأتى به عمر فقال ظفرت بدم القتيل ان شاء الله فدفع الصبي الى امرأة وقال لها قومي بشأنه وخذي منا نفقته وانظري من يأخذه منك فاذا وجدت امرأة تقبله وتضمه الى صدرها فاعلميني بمكانها فلما شب الصبي جاءت جارية فقالت للمرأة ان سيدتي بعثتني اليك تبعثي الصبي لتراه وترده اليك. قالت نعم اذهبي به اليها وأنا معك فذهبت بالصبي والمرأة معها حتى دخلت على سيدتها فلما رأته أخذته فقبلته وضمته اليها فاذا هي بنت شيخ من الانصار من أصحاب رسول الله فاخبرت عمر خبر المرأة فاشتمل عمر على سيفه ثم أقبل الى منزلها فوجد أباها متكئاً على باب داره فقال يا أبا فلان ما فعلت ابنتك فلانة قال يا أمير المؤمنين جزاها الله خيراً هي من أعرف

(١) الوأد هو دفن البنت وهي أحياء وكانت عادة الوأد عند العرب في جاهليتها وجاء الاسلام أبطلها

الناس بحق الله تعالى وحق أبيها مع حسن صلاتها وصيامها والقيام بدينها فقال عمر قد أحببت أن أدخل اليها فازيدها رغبة فى الخير وأحثها على ذلك فقال جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين امكث مكانك حتى ارجع اليك . فاستأذن لعمر فلما دخل عمر أمر كل من كان عندها فخرج عنها وبقيت هي وعمر فى البيت ليس معها أحد فكشف عمر عن السيف وقال لتصدقيني وكان عمر لا يكذب : فقالت على رسلك يا أمير المؤمنين فوالله لأصدقن . ان عجوزاً كانت تدخل عليّ فاتخذتها اماً وكانت تقوم فى أمري بما تقوم به الوالدة وكنت لها بمنزلة البنت فامضيت بذلك حيناً ثم انها قالت لي يا بنية انه قد عرض لي سفر ولى بنت أتخوف عليها منه ان تضيع وقد أحببت أن اضمها اليك حتى ارجع من سفري . فعمدت الى ابن لها شاب امرد فهيأته كهيئة الجارية وأتتني به لا أشك انه جارية فكان يرى مني ما ترى الجارية من الجارية حتى اغتفلني يوماً وانا نائمة فما شعرت حتى علاني وخالطني فمددت يدي الى شفرة كانت الى جنبي فقتلته ثم امرت به فألقي حيث رأيت فاشتملت منه على هذا الصبي فلما وضعته القيته في موضع أبيه فهذا والله خبرهما على ما أعلمتك فقال عمر صدقت بارك الله فيك ثم أوصاها ووعظها ودعا لها وخرج وقال لأبيها بارك الله في ابنتك فنعم الابنة ابنتك وقد وعظتها وأمرتها فقال الشيخ وصلك الله يا أمير المؤمنين وجزاك خيراً عن رعيتك

﴿فنون شتى من أخباره﴾

عن الحسن قال عاتب عيينة عثمان فقال له كان عمر خيراً لنا منك أعطانا فاغنانا وأخشانا فاتقانا

تظلم رجل من بعض عمال عمر وادعى انه ضربه وتعدّى عليه فقال اللهم انى لا أحل لهم أعشارهم ولا أبشارهم (أموالهم وأجسامهم) كل من ظلمه أميره فلا

أمير عليه دوني ثم أقاده منه (أي أخذ له القود)

وقال المغيرة بن شعبة وذكر عمر فقال كان والله له فضل يمنعه أن يخدع وعقل يمنعه أن يخدع

في كنز العمال عن طاوس ان عمر قال أرأيتم ان استعملت عليكم خير من أعلم ثم أمرته بالعدل أقضيت ما علي قالوا نعم قال لا حتى أنظر في عمله أعمل بما أمرته أم لا

وفيه عن عمر قال الرعية مؤدية الى الامام ما أدى الامام الى الله فاذا رفع الامام رفعوا (أخرجه ابن سعد)

وفيه عنه انه قال لا ينبغي أن يلي هذا الامر الا رجل فيه أربع خلال اللين في غير ضعف والشدة في غير عنف والامساك في غير بخل والسماحة في غير سرف فان سقطت واحدة منهن فسدت الثلاث

وما ظن ان خليفة اتصف بهذه الصفات من غير تصنع ولا تكلف كعمر رضي الله عنه

وفيه عن قطن بن وهب عن عمه انه كان مع عمر بن الخطاب في سفر ولما كان قريباً من الروحاء سمع صوت راع في جبل فعدل اليه فلما دنا منه صاح يا راعي الغنم فاجابه الراعي فقال له اني مررت بمكان هو أخصب من مكانك فان كل راع مسؤل عن رعيته ثم عدل صدور الركاب (أخرجه الامام مالك وابن سعد)

وتالله ان هذا الاهتمام بشؤون الناس حتى في ارشاد لرعاة الى اماكن الخصب لجدير بأن تقوم به كل خليفة من خلفاء المسلمين اقتداء بسلفهم الصالحين وهيهات هيهات فان الشهوات علابة ومحبة لذات خلابة وليست كل النفوس خيرة كنفس عمر

وفيه عن سعيد بن المسيب ان عمر بن الخطاب قال في ولايته من ولي هذا

الأمر بعدي فليعلم أن سيرد عنه البعيد والقريب وأيم الله ما كنت إلا أقاتل الناس عن نفسي قتالا

وأخرج ابن الجوزي في المناقب عن يحيى بن جعدة قال : قال عمر لولا أني أسير في سبيل الله أو أضع جبيني لله في التراب أو أجالس قوما يلتقطون طيب القول كما يلتقط طيب التمر لأحببت أن أكون قد لحقت بالله

وفيه عن ابن سعد قال . قال عمر والله ما أدري أخليفة أنا أم ملك فإن كنت ملكا فهذا أمر عظيم : فقال قائل يا أمير المؤمنين ان بينهما فرقا قال ما هو : قال الخليفة لا يأخذ الا حقا ولا يضعه الا في حق وأنت بحمد الله كذلك والملك يعسف الناس فيأخذ من هذا ويعطي هذا فسكت عمر

وفيه عن الزهري قال كان جلساء عمر أهل القرآن كهولا كانوا او شبانا

وفيه عن الاوزاعي قال بلغني ان عمر (رض) سمع صوت بكاء في بيت ومعه غيره فمال عليهم ضربا حتى بلغ النائحة فضربها حتى سقط خمارها وقال اضرب فانها نائحة لا حرمة لها انها لا تبكي لشجوكم انما تهريق دموعها على أخذ دراهمكم انها تؤذي أمواتكم في قبورهم وأحياءكم في دورهم . انها تنهى عن الصبر الذي أمر الله به وتأمر بالجزع الذي نهى الله عنه

وفيه عن عبد الله بن بريدة قال ربما أخذ عمر بن الخطاب بيد الصبي يجيء به ويقول ادع لي فانك لم تذنب بعد وفيه عن محمد قال كان عمر يشاور حتى المرأة

وفيه عن أبي امامة بن سهل قال كتب عمر الى أبي عبيدة رضي الله عنهما علموا غلمانكم العوم ومقاتلتكم الرمي

ولا يخفى انه أراد بهذا التعليم التمرن على فنون الحرب من حال الصغر وانما كان تعلم الرمي من أهم لوازم الجند بالنسبة لذلك العصر

وأما في هذا العصر فلوازم الحرب كثيرة ومنها علم فنون الكيمياء لاجل عمل المواد الالتهابية التي يحتاج اليها المحارب وتعلم الهندسة والميكانيكات أي علم صناعة الآلات لاجل عمل المدافع والبنادق والقلاع والمتاريس ونحوها من لوازم القوة والدفاع وفن الجغرافية لاجل معرفة أطوال البلاد وعروضها وسهولها ونجودها وطرقها وجبالها وأخلاق أهلها وقوتهم وثروتهم وغير ذلك مما يعين على معرفة البلاد وأهلها معرفة تامة قبل مهاجمتها واعلان الحرب على أهلها (ومن الغريب) ان تقوم متفلسفتين بعض علماء المسلمين في مصر معلنين على ملأ الناس ان ادخال أهون هذه العلوم في أصول التعليم في الازهر وهو فن تقويم البلدان غير جائز ولا مفيد وهم يقرؤن كل يوم مئات من مثل هذه الآثار والاخبار تدعو الى الحض على العناية بفنون الحرب وصرف الهمم الى مباراة الامم في مضمار الحياة والقوة وكأنهم لا يقرؤن من ذلك شيئاً ولا يعلمون فانا لله وانا اليه راجعون

وأخرج الطبري عن زيد بن أسلم قال قال عمر كنا نعد المقرض بخيلا وانما هي المواساة

ومن مأثور كلامه قوله من كتم سره كان الخيار في يده - أشقى الولاة من شقيت به رعيته . أعقل الناس أعذرهم للناس ما الخمر صرفاً بأذهب لعقول الرجال من الطمع لا يكن حبك كلفاً ولا بغضك تلفاً مُرْ ذوي القرابات ان يتزاوروا ولا يتجاوروا قلما أدبر شيء فأقبل أشكو الى الله ضعف الامين وخيانة القوي من لا يعرف الشر كان أجدر أن يقع فيه (عن زهر الآداب وثمر الالباب)

ودخل عدي بن حاتم على عمر فسلم وعمر مشغول فقال يا أمير المؤمنين انا

عديّ بن حاتم فقال: ما أعرفني بك آمنت اذ كفروا ووفيت اذ غدروا وعرفت اذ أنكروا وأقبلت اذ أدبروا (عنه أيضا)

ومن جميل قوله اياكم والمعاذير فان كثيراً منها كذب. وقوله تعلموا المهنة فانه يوشك أحدكم ان يحتاج الى مهنته (المناقب)

عن قبيصة بن جابر قال . قال لي عمر بن الخطاب انك رجل حدث السن فصيح اللسان فسيح الصدر وانه يكون فى الرجل عشرة أخلاق تسعة أخلاق حسنة وخلق سيء فيغلب الخلق السيء التسعة الاخلاق الحسنة فاتق عثرات الاشياء

وفى المناقب عن عبيد أم كلاب انه سمع عمر يقول لا يعجبنكم من الرجل طنطنته[1] ولكن من أدّى الامانة وكفّ عن اعراض الناس فهو الرجل

وفيه عن اسماعيل بن أمية قال قال عمر الراحة فى ترك خلطاء السوء وما أعظمها من حكمة وأفيدها من موعظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد

وعن مسروق قال تذاكرنا عند عمر بن الخطاب الحسب فقال حسب المرء دينه وأصله عقله ومروءته خلقه

ومن قوله فى بيان فضيلة الكسب ما ذكره فى المناقب عن عطاء قال قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأن أموت بين شعبتي رَحلٍ (هو قتب الجمل) أسعى فى الارض أبتغي من فضل الله كفاف وجهي أحبُّ اليّ من ان أموت غازياً (كلمة اجمالية فى أخلاقه)

هذا ما أحببنا ايراده من مناقب عمر (رض) وأخلاقه وسيرته ومنه تعلم كيف كان ذلك الرجل العظيم فيتمثل لك فيه صورة من النور وجسم من الفضيلة

(١) صوت صلاته فى الليل

والكمال وعلم من اعلام الرجال الذين تفتخر بحياتهم الأمم ويقتدي بسيرتهم أرباب الهمم فالجد والصبر والثبات والجلد والقوة والعدل والتقوى والتواضع والرفق والحلم والبصيرة والرأى كلها أخلاق قل ان تجتمع فى عدد عديد من الرجال وقد اجتمعت فى عمر بن الخطاب كما رأيت فيما أوردناه من سيرته وكل أخلاقه هذه تكاد تكون فطرية لا يظهر عليها شيء من التصنع أو التكلف ولو أردنا استقصاء كل أخباره وآثاره لأعجزنا هذا الامر كما أعجز كثيراً غيرنا من الفضلاء الذين حاولوا جمع أخباره وتتبع آثاره فلم يدركوا غايتها ولم يأتوا بمعشارها ومن أحسن وصف موجز وصف به عمر ماروى ان معاوية بن أبى سفيان قال لصعصعة بن صوحان صف لي عمر بن الخطاب فقال

كان عالماً برعيته عادلا فى قضيته عاريا من الكبر قبولا للعذر سهل الحجاب مصون الباب متحرياً للصواب رفيقاً بالضعيف غير محاب للقريب ولا جاف للغريب

وكان من أخص صفاته الجد المصحوب بالحزم مع التأنى في الامور والاستشارة في جليلها وحقيرها لهذا من تتبع سيرته لا يراه فشل في أمر من الامور بل كل تلك الاعمال التي عملها فى خلافته وذلك الفتح العظيم الذي كان على عهده توفق اليه توفيقاً صاحبه من أول عهده بالخلافة الى حين وفاته وسبب هذا التوفيق هو الجد والحزم وعدم التردد فى الامر وتمحيص الاشياء شأن كل رجل عظيم يريد مايقول ويقول مايريد ولو بحثنا في تاريخ الامم القديمة والحديثة لوجدنا لكل أمة رجلاً أو رجالاً من رجال السياسة والحرب تفتخر بهم وتعلي ذكرهم ولكن ليس من هؤلاء الرجال من اجتمعت فيه كل تلك الخصال السامية والاخلاق الحميدة التي اجتمعت في عمر بن الخطاب . إذن فاذا افتخرت كل أمة

وربما نحن لا نبالغ إذا فاخرنا بهذا الرجل العظيم كل الأمم وإذا كان هناك مبالغة في القول أو غلو في الوصف ووقف غيرنا من سير رجال الأمم المشهورين على من اتصف بكل صفات عمر فليبينه لنا وهو المتفضل وأنا أضع له خدي في التراب اعترافا بالحق وإقرارا بفضل ذوي الفضل من رجال العالم

ثم ان من مشهوري الرجال رجالا أسسوا ملكا عريضا أوسع من ملك عمر وافتتحوا من الممالك ما لم يفتتحه ونالوا من السيادة على الشعوب الكثيرة فوق ما نال ولكن هل منهم من كان كعمر جبارا غير ظالم كريما غير مسرف عادلا لا عن ضعف شجاعا غير متهور قنوعا غير شره زاهدا غير تصنع حليما من غير جبن تقيا غير متنطع كلا ما نظن ان أوصافا كهذه تجمع في رجل واحد غيره قط لا سيما اذا نشأ في بيئة كبيئته وبين قوم كقومه حالهم من البداوة معروف والتاريخ حكم عدل وما بسطناه من سيرته في هذا الكتاب خير شاهد أمين وانا والله لنتمنى لكثير ممن مضى من خلفائنا الذين نشأوا في مهاد الحضارة وحنكتهم تجارب الزمان وغذتهم لبان السياسة بعضا من أخلاق عمر يحملون بها الامة على طريق الخير والسعادة ويربونها على الجد ويتنكبون بها طرق المهالك التي ساقتها اليها يد الظلم والاستبداد والجهل باصول سياسة الرعية ولله في خلقه شؤون

﴿ أولياته ﴾

تقدم معنا كلام طويل على آثار عمر في الخلافة وفي تلك الآثار ما هو من أولياته ونحن ننقل هنا بوجه الاجمال أوليات عمر كما ذكرها السيوطي في تاريخه فهو أول من كتب التاريخ من الهجرة وأول من اتخذ بيت المال وأول من سن قيام شهر رمضان وأول من عس بالليل وأول من عاقب على الهجاء وأول من ضرب في الخمر ثمانين وأول من حرم المتعة وأول من نهى عن بيع أمهات الاولاد

وأول من جمع الناس في صلاة الجنائز وأول من فتح الفتوح ومسح السواد وأول من حمل الطعام من مصر في بحر أيلة (البحر الأحمر) الى المدينة وأول من احتبس صدقة [١] في الاسلام وأول من أعال الفرائض [٢] وأول من أخذ زكاة الخيل وأول من قال أطال الله بقاءك (قاله لعلي) وأول من قال أيدك الله (وقاله له أيضا) وأول من اتخذ الدرة وأول من استقضى القضاة في الامصار وأول من مصر الامصار وأول من سمي أمير المؤمنين وكان يكتب اولاً من خليفة أبي بكر او من خليفة خليفة رسول الله حتى كتب مرةً الى عامل العراق ان يبعث اليه رجلين جلدين يسألهما عن العراق وأهله فبعث اليه لبيد بن ربيعة وعدي بن حاتم فقدما المدينة ودخلا المسجد فوجدا عمرو بن العاص فقالا استأذن لنا على امير المؤمنين فقال عمرو انتما والله اصبتما اسمه فدخل عليه عمرو فقال السلام عليك يا امير المؤمنين فقال ما بدا لك في هذا الاسم لتخرجن مما قلت فأخبره وقال أنت الامير ونحن المؤمنون فجرى الكتاب بذلك من يومئذ

وهو أول من اتخذ دار الدقيق يعين به المقطع وأول من وسع المسجد النبوي وفرشه بالحصباء

هذا ما نقله السيوطي من أوليات عمر عن النووي والعسكري وابن سعد ونزيد عليه انه أول من ضرب النقود في الاسلام وأول من استعمل البريد لنقل الرسائل واول من أقام واليا للحسبة وأول من شق الترع واقام الجسور وأول من وضع المرابطة من الجند في الثغور وسمى الاجناد واول من أمر بالعناية بالمناطير وأول من عين شخصا مخصوصا لاقتصاص أخبار العمال وتحقيق

---

(١) أي وقف وقفا (٢) أعال من العول المعروف في الفرائض وهي ان ترد الفريضة في الحساب فتعدل القسمة على وجه معروف عند علماء الفرائض

الشكايات التي تصل الى الخليفة من عماله وهو محمد بن سلمة وربما كان له أوليات أخرى غير هذه وقد تقدم الكلام على كل هذا مفصلاً فيما مر من هذا الكتاب

باب كتبه

١

كتب الى أبي عبيدة حين ولي الخلافة يوليه على جند الشام

أوصيك بتقوى الله الذي يبقى ويفنى ما سواه الذي هدانا من الضلالة وأخرجنا من الظلمات الى النور وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد فقم بأمرهم الذي يحق عليك لا تقدّم المسلمين الى هلكة رجاء غنيمة ولا تنزلهم منزلا قبل أن تستريده(١) لهم وتعلم كيف مأتاه ولا تبعث سريّة الا في كثف من الناس وإياك والقاءَ المسلمين في الهلكة وقد أبلاك الله بي وأبلاني بك فاغمض بصرك عن الدنيا وأله قلبك عنها وإياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم (هكذا وردت صورة هذا الكتاب في تاريخ الطبري ورأينا صورة غيرها في حقائق الأخبار وهي نصها

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الى أبي عبيدة عامر بن الجرّاح سلام عليك فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو وأصلي على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وقد وليتك أمور المؤمنين فلا تستحي فان الله لا يستحي من الحق واني أوصيك بتقوى الله العظيم الذي لا يفنى ويفنى سواه الذي استخرجك من الكفر الى الايمان ومن الضلالة الى الهدى وقد وليتك على جند خالد فاقبض الجيش منه ولا تقدم المسلمين الى الهلاك رجاء غنيمة ولا تبعث سرية الى جمع كثير ولا تقل اني أرجو لكم النصر وإياكم والتغرير والقاء المسلمين الى الهلكة واغمض عن الدنيا عينك واَلْهِ عنها قلبك وإياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم واختبرت سرائرهم وبينك وبين الآخرة نبت كالحمام وقد تقدم اليه سلفك فنتظر سيراً أو سفراً طويلا من دار قد مضت نضارتها وذهبت منها زهارها وأحزم الناس الخارج الى غيرها واتق الله في سرك ونجواك وتفكّر في زاد الهوى وراع المسلمين ما استطعت وأما الحنطة والشعير التي وجدتموها في دمشق وكثرت مشاجرتكم عليه فهي للمسلمين وأما الذهب والفضة ففيهما الخمس والسلام اه

(١) تخبره

٢

وكتب الى أبي عبيدة يلومه على تركه حصار حلب

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عمر بن الخطاب الى أبي عبيدة عامر بن الجراح سلام عليك فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو وأصلي على نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبعد فقد ورد كتابك عليّ مع رسلك فسرّني ما سمعت من الفتح وعلمت من قتل من الشهداء وأما ما ذكرت من انصرافك عن قلعة حلب الى النواحي التي قربت من انطاكية فهذا بئس الرأى أتترك رجلاً ملكت دياره ومدينته ثم ترحل عنه وتسمع أهل النواحي والبلاد بأنك ما قدرت عليه فما هذا رأى فيضعف رأيك ويعلو ذكره بما صنع ويطمع من لم يطمع فترجع اليك الجيوش وتكاتب ملوكها فاياك أن تبرح حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين فبثّ الخيل في السهل والسعة واكففها في المضايق والجبال ومن المعدات الى حد الدروب ومن صالحك منهم فاقبل صلحه ومن سالمك فسالمه والله خليفتي عليك وعلى جميع المسلمين وقد انفذت اليك كتابي هذا ومعه أهل مشارف اليمن ممن وهب نفسه لله ولرسوله ورغب في الجهاد في سبيل الله وهم عرب وموال رجال وفرسان والمدد يأتيك متوالياً ان شاء الله تعالى اهـ



٣

وكتب أبو عبيدة كتاباً الى عمر يخبره فيه بأنه لايريد الاقامة بانطاكية لطيب هوائها وخوف اخلاد الجيوش الى الراحة فأجابه بما نصه

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عبد الله عمر بن الخطاب الى أبي عبيدة بن الجراح سلام عليك فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو وأصلي على نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم واشكره ملياً (كثيراً) على ما وهب من النصر للمسلمين وجعل العاقبة للمتقين ولم يزل معيناً لطيفاً وأما قولك انك لم تقم بانطاكية لطيب هوائها فالله عز وجل لم يحرّم الطيبات على المتقين الذين يعملون الصالحات فقال تعالى في كتابه العزيز (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً اني بما تعملون عليم) وكان يجب عليك أن تريح المسلمين من تعبهم وتدعهم يرغدون (١) في مطعمهم ويريحون أبدان النصبة في قتال من كفر بالله وأما قولك انك تنتظر أمري لدى آمرك بـ [illegible]

(١) يتوسعون ويتنعمون

الدروب خلف العدو فانت الشاهد وأنا الغائب والشاهد يرى مالا يرى الغائب وأنت بحضرة عدوك وعيونك يأتونك بالاخبار فان رأيت الدخول الى الدروب صواباً فابعث اليهم السرايا وادخل معهم بلادهم وضيق عليهم مسالكهم وان طلبوا منك الصلح فصالحهم وأما قولك ان العرب أبصرت نساء الروم فارادوا التزوج فمن أراد ذلك فدعه ان لم يكن له في الحجاز أهل ومن أراد أن يشتري الاماء فدعه وذلك أصون لفروجهم والسلام عليك وعلى جميع من معك من المسلمين ورحمة الله وبركاته

(نقله والدي فيه في حقائق الاخبار عن مشآت السلاطين لفريدون بك)

٤

وكتب اليه كتاباً فقرأه على الناس بالجابية ونصه

من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى أبي عبيدة بن الجراح سلام عليك أما بعد فانه لم يقم أمر الله في الناس الا حصيف العقدة (١) بعيد الغرة (٢) لا يطلع الناس منه على عورة ولا يحنق في الحق على جرته (٣) ولا يخاف في الله لومة لائم (كنز العمال)

٥

وكتب الى ابنه ينصحه

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فان من اتقى الله وقاه ومن توكل عليه كفاه ومن شكر له زاده ومن قرضه جزاه فاجعل التقوى عماد قلبك وجلاء بصرك فانه لا عمل لمن لا نية له ولا أجر لمن لا حسبة له ولا جديد لمن لا خلق له (العقد الفريد)

٦

وكتب الى أبي موسى الاشعري يوصيه

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فان للناس نفرة عند سلطانهم فاعوذ بالله ان تدركني واياك عمياء مجهولة وضغائن محمولة وأهواء متبعة ودنيا مؤثرة فاقم الحدود ولو ساعة من نهار واذا عرض لك أمران أحدهما لله والآخر للدنيا فآثر نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا فان الدنيا تنفد والآخرة تبقى وكن من خشية الله على وجل

---

(١) قوله حصيف العقدة اي محكمها والعقدة بالضم الولاية على البلد او هي من عقد الحبل ربطه وهي كناية عن احكام الامر بالمعنى الثاني واحكام الولاية بالمعنى الاول (٢) الغره هي الغفلة (٣) قال في لسان العرب لا يصلح هذا الامر الا لمن لا يحنق على جرته اي لا يحقد على رعيته ومنه لا يحنق على جرته اي لا يكتم سراً

وأخِف المساق واحملهم يداً بداً ورحلا رحلا واذا كانت بين القبائل نائرة (١) وتداعوا يآل فلان فانما تلك نجوى الشيطان فاضربهم بالسيف حتى يفيئوا الى امر الله وتكون دعواهم الى الله والى الامام وقد بلغ أمير المؤمنين أنّ ضَبّة تدعو يآل ضَبّة واني والله ما اعلم أنّ ضبة ساق الله بها خيراً قط ولا منع بها من سوء قط فاذا جاءك كتابي هذا فانهكهم عقوبةً حتي يفرقوا (٢) ان لم يفقهوا والصق غيلان بن خَرَشَةَ من بينهم وعُدْ مرضى المسلمين واشهد جنائزهم وافتح بابك وباشر امرهم بنفسك فانما انت امرؤ منهم غير ان الله جعلك أثقلهم حِملا وقد بلغ امير المؤمنين انه فشا لك ولاهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها فاياك ياعبدالله ان تكون بمنزلة البهيمة التي مرت بواد خصب فلم تكن لها همة الا السمن وانما حتفها في السمن واعلم ان للعامل مردًّا الى الله فاذا زاغ العامل زاغت رعيته وانّ اشقى الناس من شقيت به رعيته والسلام (مفتاح الافكار)

٧

وكتب الى معاوية وقيل الى ابي عبيدة

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فاني لم آلك في كتابي اليك ونفسي خيراً اياك والاحتجاب وأدن الضعيف وأدنه حتى تبسط لسانه وتجرّئ قلبه وتعهد الغريب فانه اذا طال حبسه وضاق اذنه ترك حقه وضعف قلبه وانما ترك حقه من حبسه واحرص على الصلح بين الناس ما لم يستبن لك القضاء واذا حضرك الخصمان بالبينة العادلة والايمان القاطعة فامض الحكم (مفتاح الافكار)

٨

(كتابه لاهل ايلياء « القدس »)

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الامان أعطاهم أماناً لانفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها انه لاتسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيّزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يُضارُّ أحد منهم ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود وعلى أهل ايلياء أن يُعطوا الجزية كما يُعطي أهل المدائن

١ قوله نائرة أي عداوة وقوله يفيئوا أي يرجعوا (٢) وقوله حتى يفرقوا أي يخافوا ويفزعوا واذا كانت بمعنى الراء فمعناها يفرقوا

وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت (١) فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن كان بها من أهل الارض فبل مقتل فلان (٢) فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على اهل إيلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع الى أهله فانه لا يؤخذ منهم شيء حتى يُحصدَ حَصَادهم وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا أعطوا الذي عليهم من الجزية شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان وكتب وحضر سنة ١٥ (تاريخ الطبري)

٩

(كتابه الى أهل لد)

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل لُدٍّ ومن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين أعطاهم أماناً لانفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبهم وسقيمهم وبريئهم وسائر ملتهم انه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص من حيزها ولا مللها ولا من صُلبهم ولا من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم وعلى أهل لُدّ ومن دخل معهم من أهل فلسطين ان يعطوا الجزية كما يعطي أهل مدائن الشام وعليهم ان خرجوا مثل ذلك الشرط الى آخره (عن الطبري)

١٠

« كتب الى سعد في اليوم الذي يرتحل فيه من شراف »

أما بعد فاذا كان يوم كذا وكذا فارتحل بالناس حتى تنزل فيما بين عُذَيب الهجانات وعذيب القوادس وشرّق بالناس وغرّب بهم « عن الطبري »

١١

(وكتب اليه أيضاً جواباً عن كتابه)

أما بعد فتعاهد قلبك وحادث جندك بالموعظة والنية والحِسبة ومن غفل فليُحدثهما «٣» والصبرَ الصبر فان المعونة تأتي من الله على قدر النية والاجر على قدر الحسبة . والحذر الحذر على من أنت عليه وما أنت بسبيله واسألوا الله العافية واكثروا من قول لا حول ولا قوة الا بالله واكتب اليَّ اين بلغك جمعُهم ومن

(١) وفي رواية واللصوص وهو الظاهر (٢) هكذا في الاصل (٣) هكذا في الاصل والاحداث لأبداء فليحرر

وأشهم الذي يلي مصادمتكم فانه قد منعني من بعض ما أردت الكتابة به اليك قلة علمي بما هجمتم عليه والذى استقر عليه أمر عدوّكم فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذى بينكم وبين المدائن صفة كأني أنظر اليها واجعلني من امركم على الجلية وخف الله وارجه ولا تدل بشئ واعلم ان الله قد وعدكم. وتوكل لهذا الامر بما لا خلف له فاحذر ان تصرفه عنك ويستبدل بكم غيركم

« وكتب الى سعد وهو بشراف يريد العراق وحرب الفرس ما نصه »

اما بعد فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين وتوكل على الله واستعن به على أمرك كله واعلم فيما لديك انك تقدم على أمة عددهم كثير وعدتهم فاضلة وبأسهم شديد وعلى بلد منيع وان كان سهلا كؤوده لبحوره وفيوضه ودآدئه (١) الا ان توافقوا غيضاً من فيض واذا لقيتم القوم أو واحداً منهم فابدؤهم الشد والضرب واياكم والمناظرة لجموعهم ولا يخدعنكم فانهم خدعة مكرة أمرهم غير أمركم الا ان تجادوهم واذا انتهيت الى القادسية والقادسية باب فارس في الجاهلية وهي أجمع تلك الابواب لمادتهم ولما يريدونه من تلك الاصل وهو منزل رغيب خصيب حصين دونه قناطر وانهار ممتنعة فتكون مسالحك على أنقابها ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات الحجر وحافات المدر والجراع بينهما ثم الزم مكانك ولا تبرحه فانهم اذا أحسوك انغضتهم رموك بجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم فان انتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الامانة رجوت ان تنصروا عليهم ثم لا يجتمع لكم مثلهم ابداً الا ان يجتمعوا وليست معهم قلوبهم وان تكن الاخرى كان الحجر في أدباركم فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم الى أدنى حجر من أرضكم ثم كنتم عليها اجرأ وبها أعلم وكانوا عنها اجبن وبها اجهل حتى يأتي الله بالفتح ويرد لكم الكرة عليهم (هذا الكتاب وما قبله عن الطبري)

١٢

(وكتب الى سعد)

قد جاءني كتابك وفهمته فأقم مكانك حتى ينغض الله عدوك واعلم ان لها

---

١ » كؤوده اي صعبه وفيوضه اي مياهه الفائضه ولد آد جمع دأداء وهو [illegible] وسع وتوافقوا اي لاقوا غيضاً من فيض أي قليلاً من كثير التب [illegible] في حل و [illegible] انقاب ولعل مراده بالانقاب هنا أنقاب المناظر لتي [illegible] [illegible] والعمران او المدن والفضاء لان المدر هي المدن والحجر هي [illegible] الرمل [illegible] اعضهم [illegible]

ماسدها فان منحك الله أدبارهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن فانه خرابها ان شاء الله (الطبري)

١٣

وكتب اليه أبو عبيدة ومعاذ بن جبل ينصحانه

(بسم الله الرحمن الرحيم) من أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل الى عمر ابن الخطاب سلام عليك فانا نحمد اليك الله الذي لا اله الا هو (أما بعد) فانا عهدناك وأمر نفسك لك مهم فأصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها يجلس بين يديك الصديق والعدو والشريف والوضيع ولكل حصة من العدل فانظر كيف أنت يا عمر عند ذلك وانا نحذرك يوماً تعنو فيه الوجوه وتجب (١) له القلوب وتنقطع فيه الحجج بحجة ملك قهرهم بجبروته والخلق داخرون «٢» له يرجون رحمته ويخافون عقابه وانا كنا نحدث ان أمر هذه الامة يرجع في آخر زمانها ان يكون اخوان العلانية أعداء السريرة وانا نعوذ بالله ان تنزل كتابنا سوى المنزل الذي نزل من قلوبنا فانا انما كتبنا اليك نصيحة لك والسلام

(فكتب اليهما)

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عمر بن الخطاب الى أبي عبيدة عامر بن الجراح ومعاذ بن جبل سلام عليكما فاني أحمد اليكما الله الذي لا اله الا هو (اما بعد) فقد جاءني كتابكما تزعمان انه بلغكما اني وليت أمر هذه الامة احمرها واسودها يجلس بين يدي الصديق والعدو والشريف والوضيع وكتبتما ان انظر كيف انت ياعمر عند ذلك وانه لاحول ولاقوة لعمر عند ذلك الا بالله كتبتما تحذراني ماحذرت به الامم قبلنا وقديماً كان اختلاف الليل والنهار بآجال الناس يقربان كل بعيد ويبليان كل جديد ويأتيان بكل موعود حتى يصير الناس الى منازلهم من الجنة والنار ثم توفى كل نفس بما كسبت ان الله سريع الحساب كتبتما تزعمان ان امر هذه الامة يرجع في آخر زمانها ان يكون اخوان العلانية اعداء السريرة ولستم بذاك وليس هذا ذلك الزمان ولكن زمان ذلك حين تظهر الرغبة والرهبة فتكون رغبة بعض الناس الى بعض اصلاح دنياهم ورهبة بعض الناس اصلاح دنياهم وكتبتما تعوذاني بالله ان أنزل كتابكما مني سوى المنزل الذي نزل في قلوبكما وانما كتبتما نصيحة لي وقد صدقتما فتعهداني منكما بكتاب فلا غنى

(١) تخاف (٢) اى اذلاء صاغرون

في عنكما والسلام عليكما (مفتاح الافكار)

وله كتب عمر هذه تقدم ايرادها في عشرينا أخباره وكتب أخرى كتبها الى عمرو بن العاص وهو في مصر رأينا من تمام الفائدة أن نرجئ ذكرها الى سيرة عمرو بن العاص لأن ايرادها في سيرته أنسب لاشتمالها على تبادل المكاتبة بين الاثنين في شؤون خاصة ستروى في محلها ان شاء الله

(كلام على وجوب التناصح في الاسلام)

وأنت ترى من هذين الكتابين كيف كان المسلمون يتناصحون بالمعروف عملاً بأمر كتابهم وهدي نبيهم ولا يكتمون عن أبناء النصيحة للامام لكونه اماماً له عليهم السلطان بل يرون أن النصيحة له أحرى وله أولى وان له عليهم حق الطاعة كما لهم عليه حق النصيحة والارشاد الى مواقع الخطأ والتعهد بما يقيم الأود ويصلح العمل شأن الأمم التي تعاون رؤساءها على البر وتعتمد في رفع شأنها على قوة التكافل في الحق والتعاون على شؤون الملك وقد انتهت بهم حرية الفكر والانطلاق عن قيود العبودية والقيام على حسن المناصحة أن لا يغفلوا ساعة عن نصيحة الامام وهو من هو قد الأمة الاسلامية وفخر الاسلام والمثل المضروب في التقوى والعدل عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعنهم أجمعين وقد بلغ بهم الاغراق في حرية الضمائر وعدم الامساك عن الحق ان قال أحدهم لمثل ذلك الخليفة العظيم لما سأله عما اذا رخص بأمر من أمور المسلمين (لو فعلت لقومناك تقويم القدح) أي تقويم السهم المعوّج كما رأيت ذلك فيما سطرناه في باب سياسته فما ازداد ذلك الخليفة العظيم الا سروراً بقول ذلك المسلم واستبشاراً في أن المسلمين قائمون على شؤونهم رجال في أخلاقهم متمسكون بشرع نبيهم متنبهون لكل خطأ يصدر عن خليفتهم وكان ذلك دأبه مع الناس في استطلاع طلع ضمائرهم من جهته ليعلم مبلغ الحياة فيهم ويسترشد الى عيوبه بجميل نصحهم وصادق قولهم ولم يكن يخطر له على بال أو يمر له في خيال ان استرشاده بآراء ذوي الرأي والبصيرة من المسلمين واستنصاحه بنصائحهم فيه حطة في شأنه أو مس لسلطانه لهذا كتب لأبي عبيدة ومعاذ لما نصحاه في آخر كتابه (قد صدقتما فتعهداني منكما بكتاب فلا غنى بي عنكما) وقد رأيت فيما مر ذكره لمن اعترض على قائل قال له اتق الله يا عمر وقوله للمعترض دعه فلا خير فيكم اذ لم تقولوها ولا خير فينا اذ لم نسمعها اذا تقرر هذا علمنا أن التناصح بين المسلمين واجب لا يستثنى منه أمير ولا صغير بل الأمير أولى بأن ينصح ويستنصح بسبب ما وسد اليه من أمور الملك التي ليس من طوق الآحاد

القيام بها الا اذا سلكوا سبيل الأثرة وأطاعوا هوى النفوس وكان الانفراد بالسلطان والتسلط على الرعية والطوح بمصالح الملك والدولة في مهاوي الهوى أحب اليهم من الانتصاح بنصيحة الاعوان والأخذ على شكائم النفوس الأمارة بالسوء التي يقودها الهوى الى تصور أن الامارة مرتبة لاينبغي لها أن تكون الا في مصاف الملائكة المقربين أو الانبياء المعصومين وحدا لو تحقق هذا التصور لاستبان من أولئك الامراء اذن والله لحكموا الناس بحكم الانبياء وهو هو التناصح الذي يهربون منه والتعاون الذي يترفعون عنه وحسب هذا الترفع آفة انه أودى بدولة بني مروان في اثنان شبابها كما أودى بكثير من اضرابها

المناصحة بالمعروف أس من أسس السعادة القومية في كل قبيل وعصر بل هي مدرسة الامة التي تتربى فيها الاخلاق وتنمو الفضيلة وتتطهر الاعراق وتبث روح الألفة والتعاون وليس لمدرسة مثلها أثر في الاخلاق ومؤثر في نفوس الامة قط اذ تتناول بالتعليم الكبير والصغير عفواً بلا أجر وتسرى روحها بين كل الطبقات مختارة بلا اكراه فيربي الكبير الصغير ويرشد المهتدى الضال وينصح الصغير الامير وكلهم يتبادل النفوس مع الآخر بما ينفعه في اخلاقه ويقوم أوده فينتفع الكل بالكل وتعم السعادة والرخاء سائر الناس

أجل هذه هي المدرسة التي ربت مثل معاذ وأبي عبيدة وعمر واضرابهم من عامة المسلمين وخاصتهم فسادوا بالمناصحة والاخلاص على كل الامم وأدهشت سيرهم انظار الشعوب وامتد ظل سلطانهم على نصف الكرة ونالهم من السعادة والعز والمجد فوق ما رأيت في هذا الكتاب

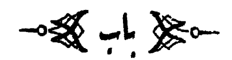
وهي هي المدرسه التي علمت الشعوب الاوربية حرية الضمائر والافكار ورفعتهم من حضيض الجهالة وسلكت بهم سبيل المجد وسوّدتهم لهذا العهد على الامم فملكوا ثلاثة أرباع المعمور وقضوا على استقلال الدول الشرقية فمحوا بعضه محواً وجعلوا بعضه صورة في الخيال قد باتت على وشك الزوال كما زالت دول الهند العظيمة وافريقيا الكبرة والحاوى والقريم وبخارى وسمرقند وما لا يعد من الشعوب والدول الاسلامية

أليس بعجيب أن يصير المسلمون فى أسر الدول المتغلبة وتتقلص ظل مجدهم عن الارض بعد اذ كان شأنهم فى المناصحة والقيام على الحق ما ذكر ثم بلغ ترك المناصحة وانحطاط النفوس والاخلاق عن فريق كبير منهم ان صاروا يعدون الناصح بالمعروف

حارجاً عن دينه خارجاً على سلطانه والدين يقول (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم) (واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى) والنبي صلى الله عليه وسلم يقول (من لم يحمد عدلاً ولا يذم جوراً فقد بارز الله تعالى بالمحاربة) (١)

ومن البديهي ان مدح العدل وذم الجور انما يكون بأن يقول المسلم للعادل المحسن عدلت وأحسنت وللجائر على نفسه أو على غيره جرت وأسأت فاستقم كما أمرت وهو من باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي وردت آياته الباهرة في الكتاب الكريم

ومن الاغراق في الجهالة والتناهي في الانحطاط ان يرى المسلمون بلادهم تخرب واستقلالهم ينتزع وملكهم يزول ودولهم تدول والاوربيون قد غلبوهم على أمرهم وزاحموهم في ملكهم وتحكموا فيهم وفي دولهم وسبقوهم في العلم والمعارف والاختراع وأخذوا عليهم بالخيل والرجل وسدوا دونهم منافذ الصناعة والتجارة واذا دعاهم ناصح من اخوانهم غيور من بني دينهم الى النظر في أسباب انحطاطهم وارتقاء غيرهم وتقهقرهم وتقدم سواهم وأبان لهم طرفاً من تلك الاسباب وحكمهم في التفريق بين خطئها والصواب اعرضوا عنه اعراض المريض عن الماء الزلال بل ربما رماه بعضهم بانواع الزور وتقرب بماله واهله وذمه الى ولاة الامور رجاء نيل الحظوة عندهم والتزلف اليهم واكتساب رضاهم وان اغضب الله والمروءة والوجدان وخرج عن الانسانية والدين اذ لاوازع من النفس ينهاه ولا فضيله تلوى عنان شهوته عن ظلم اخيه والشواهد على هذا كثيرة في الاشخاص والأعمال سنأتي على بيانها في محالها ان شاء الله لتكون عبرة يتعظ بها الآتي والحاضر وصورة في التاريخ ترهب قلوب الاشرار وتزعج عن مواطئ الرذيلة اقدام الفجار



باب



خطبه

اورد ابن عبد ربه ذكر ان خطبة اول خطبة خطبها ورأينا في روايه جرير رواها ابن الجوزي في المناقب عن جامع بن شداد عن ابيه ورواها غيره من المحدثين من طرق

---

(١) اخرج هذا الحديث في سند الغابة في ترجمة المغيرة بن نوفل

اخرى ان اول خطبة خطبها عمر (رض) ان صعد المنبر وحمد الله واثنى عليه وقال (اللهم اني شديد فليني واني ضعيف فقوني واني بخيل فسخني) وقد رأينا هذه الخطبة في العقد الفريد بعبارة اطول الا انها لاتخرج عن هذا المعنى

٢

وفي تاريخ الحافظ ابن عساكر عن سعيد بن المسيب قال لما ولي عمر بن الخطاب خطب الناس على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله واثنى عليه ثم قال

ايها الناس اني قد علمت انكم كنتم تؤنسون مني شدة وغلظة وذلك اني كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكنت عبده وخادمه وجلوازه (شرطيه) وكان كما قال الله تعالى بالمؤمنين رؤفاً رحيما وكنت بين يديه كالسيف المسلول الا ان يغمدني او ينهاني عن امر فأكف عنه والا أقدمت على الناس لمكان امره فلم ازل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك حتى توفاه الله وهو عني راض والحمد لله على ذلك كثيراً وانا به اسعد ثم قمت ذلك المقام مع ابي بكر الصديق خليفة رسول الله بعد رسول الله وكان من قد علمتم في رفقه ولينه فكنت خادمه وجلوازه وكنت كالسيف المسلول بين يديه على الناس اخلط شدتي بلينه الا ان يتقدم الي فاكف والا اقدمت فلم ازل حتى توفاه الله فكان عني راضياً والحمد لله على ذلك كثيراً وانا به اسعد ثم صار امركم اليوم الي وانا اعلم انه يقول قائل كان يشتد علينا والامر الى غيره فكيف به لما صار الامر اليه فاعلموا انكم لاتسألون عني احداً قد عرفتموني وخبرتموني وقد عرفت بحمد الله من محمد نبيكم صلى الله عليه وسلم ما قد عرفت وما اصبحت نادماً على شيء كنت احب ان اسأله الا وقد سألته واعلموا ان شدتي التي كنتم ترونها ازدادت أضعافاً عن الاول على الظالم والمتعدي والاخذ للمسلمين لضعيفهم من قويهم واني بعد شدتي تلك واضع خدي الى الارض لأهل العفاف وأهل الكفاف ان كان بيني وبين من هو منكم شيء من أحكامكم أن أمشي معه الى من أحبه منكم فينظر فيما بيني وبينه فاتقوا الله عباد الله وأعينوني على نفسي بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر واحضاري النصيحة فيما ولاني الله من أمركم (١)

(١) عرفت غيره طائفة من النقص لاوارده هذه الخطبة لان الناسخ الذي نسخ لي سيرة عمر من تاريخ ابن عساكر من مكتبة دمشق لم يتمكن من ضبط الالفاظ المشوشه والمسامة بسقامة خط الاصل



وفي تاريخ الحافظ ابن عساكر أيضاً عن الشعبي قال : لما ولي عمر بن الخطاب صعد المنبر فقال

ما كان الله ليراني أن أرى نفسي أهلاً لمجلس أبي بكر فنزل مرقاة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال اقرأوا القرآن تعرفوا به واعملوا به تكونوا من أهله وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا وتزينوا للعرض الأكبر يوم تعرضون على الله لا تخفى منكم خافية . انه لم يبلغ حق ذي حق أن يُطاع في معصية الله (١) ألا وانى أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة ولىّ اليتيم ان استغنيت عففت وان افتقرت أكلت بالمعروف

٤

وفي الخراج لأبي يوسف خطبة بهذا المعنى الا أنها أطول وأجمع رواها عن طلحة بن معدان قال

خطبنا عمر بن الخطاب خطبة فحمد الله وأثنى عليه ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم وذكر أبا بكر فاستغفر له ثم قال أيها الناس انه لم يبلغ ذو حق في حقه أن يُطاع في معصية الله واني لا أجد هذا المال يصلحه الا خلال ثلاث أن يؤخذ بالحق ويعطى في الحق ويمنع من الباطل وانما أنا وما لكم كولي اليتيم ان استغنيت استعففت وان افتقرت أكلت بالمعروف ولست أدع أحداً يظلم أحداً ولا يعتدي عليه حتى أضع خده على الارض وأضع قدمي على الخد الآخر حتى يذعن للحق ولكم عليّ أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذوني بها لكم عليّ أن لا أجبي شيئاً من خراجكم ولا مما أفاء الله عليكم الا من وجهه ولكم عليّ اذا وقع في يدي أن لا يخرج مني الا في حقه ولكم عليّ أن لا أزيد أعطياتكم وأرزاقكم ان شاء الله وأسد ثغوركم ولكم عليّ أن لا ألقيكم في المهالك ولا أجمركم (أحبسكم) في ثغوركم . وقد اقترب منكم زمان قليل الامناء كثير القراء قليل الفقهاء كثير الامل يعمل فيه أقوام للآخرة يطلبون به دنيا عريضة تأكل دين صاحبها كما تأكل النار الحطب ألا من أدرك ذلك

---

(١) يعني بذي الحق نفسه وهو الحق والسلطة الذى لا يتعدى من أمر الله من لنفسه في ما تأمر به النفس وتطلبه السيادة وهو من قبيل قول أبي بكر (رض) في إحدى خطبه أطيعوني ما أطعت الله فيكم فرضي الله عن تلك النفوس السامية ما كان أعرفها بالحق والعدل وألزمها بشرعة الانصاف مع الرعية

منكم فليتق الله ربه وليصبر · يا أيها الناس ان الله عظّم حقه فوق حق خلقه فقال فيما عظم من حقه « ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون » ألا واني لم أبعثكم أمراء ولا جبارين ولكن بعثتكم أئمة الهدى يهتدى بكم فأدروا على المسلمين حقوقهم ولا تضربوهم فتذلوهم ولا تحمدوهم فتفتنوهم ولا تغلقوا الابواب دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم ولا تستأثروا عليهم وقاتلوا بهم الكفار طاقتهم فاذا رأيتم بهم كلالة فكفوا عن ذلك فان ذلك أبلغ في جهاد عدوّكم أيها الناس اني أشهدكم على أمراء الامصار اني لم أبعثهم الاّ ليفقهوا الناس في دينهم ويقسموا عليهم فيأهم ويحكموا بينهم فان أشكل عليهم شيء رفعوه اليّ اهـ

هذه الخطبة من أجمع خطبه لأنها تمثل عدله وسياسته وعقيدته وتحدد وظيفته وتبين مقاصده وتنبئ عن اخلاصه في خدمة المسلمين وشدته على الظالمين ورأفته بالمظلومين الى غير ذلك مما يدركه القارئ من معاني هذه الخطبة الغراء فرضي الله عنه

٥

﴿ وخطب خطبة فقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه ﴾

يا أيها الناس اني قد وُلّيتُ عليكم ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم وأقواكم عليكم وأشدكم استضلاعاً بما ينوب من مهم أموركم ما توليت ذلك منكم ولكفى عمر مهمّاً محزناً موافقة الحساب بأخذ حقوقكم كيف آخذُها ووضعها أين أضعها وبالسير فيكم كيف أسير فربي المستعان فإنّ عمر أصبح لايثق بقوّة ولا حيلة إن لم يتداركه الله عزّ وجلّ برحمته وعونه وتأييده (تاريخ الطبري)

٦

﴿ وخطب فقال ﴾

انّ الله عز وجل قد ولاّني أمركم وقد علمت أنفع ما بحضرتكم لكم واني أسئل الله أن يعينني عليه وأن يحرسني عنده كما حرسني عند غيره وأن يلهمني العدل في قسمكم كالذي أمر به ولن يعثّر لدى ولينٌ من خلاوتكم من خُلُقي شيئاً ان شاء الله فما العصمة لله عز وجل وليس للعباد منها شيء فلا يقولن أحد منكم أن عمر تغيّر منذ ولي عقل الحق من نفسي وأتقدّم وأبين لكم أمري فأيّما

رجل كانت له حاجة أو ظُلِمَ مَظْلَمَةً أو عتب علينا في خلق فَلْيُؤْذِنِّي «١» فانما أنا رجل منكم فعليكم بتقوى الله في سرّكم وعلانيتكم وحُرُماتكم واعراضكم واعطوا الحق من أنفسكم ولا يحمل بعضكم بعضاً على أن تحاكموا اليّ فانه ليس بيني وبين أحد من الناس هَوادة «٢» وأنا حبيب اليّ صلاحكم عزيز عليّ عَنَتُكم وأنتم أناس عامتكم حَضَرٌ في بلاد الله وأهل بلدٍ لا زَرْعَ فيه ولا ضَرْعَ الا ما جاء الله به اليه وان الله عز وجل قد وعدكم كرامة كثيرة وأنا مسؤول عن أمانتي وما أنا فيه ومُطَّلِع على ما بحضرتي بنفسي ان شاء الله لا أَكِلُه الى أحد ولا أستطيع ما بعد منه الا بالامناء وأهل النصح منكم للعامة ولست أجعل أمانتي الى أحد سواهم ان شاء الله (تاريخ الطبري)



﴿ وخطب أيضاً ﴾

فقال بعد ما حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم أيها الناس ان بعض الطَّمَع فَقْرٌ وان بعض اليأس غنًى وانكم تجمعون ما لا تأكلون وتأملون ما لا تُدركون وأنتم مؤجَّلون في دار غرور كنتم في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تؤخذون بالوَحي فمن أسرّ شيئاً أُخذ بسريرته ومن أعلن شيئاً أُخذ بعلانيته فأظهِرُوا لنا أحسن أخلاقكم والله أعلم بالسرائر فانه مَن أظهر لنا شيئاً وزعم أن سريرته حسنة لم نصدقه ومن أظهر لنا علانية حسنة ظننّا به حَسَناً واعلموا انّ بعض الشُّحّ شُعْبَة من النفاق (فأنفقوا خيراً لِأَنفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأُولئِكَ هُمُ المُفلحون) أيها الناس أطيبوا مَثْواكم وأصلحوا أموركم واتقوا الله ربكم ولا تلبسوا نساءكم القَباطيّ فانه ان لم يَشِفّ فانه يَصِفُ «٣» أيها الناس اني لوددتُ أن أنجُوَ كفافاً لا لي ولا عليّ واني لأرجو إن عُمِّرتُ فيكم يسيراً أو كثيراً أن أعمَلَ بالحق فيكم ان شاء الله وأن لا يبقى أحد من المسلمين وان كان في بيته الا أتاه حقُّه ونصيبه من مال الله ولا يُعمل اليه نفسَه ولم ينصَب «٤» اليه يوماً وأصلحوا أموالكم التي رزقكم الله ولَقليلٌ في رِفق خير من كثير في عُنف والقتل حَتْفٌ من الحتوف يصيب البَرّ والفاجر والشهيدُ

«١» أي فليعلمني وهي من آذنه بالامر أي أعلمه «٢» الهوادة الصلح والميل «٣» القباطي أثواب مشهورة وشف رق حتى يرى ما تحته ويصف منه من وصف أو من الواصف وهو أن يصفوا الشيء بعضهم لبعض «٤» ولا يعمل له نفسه أي لا يجهد نفسه اليه أي أنه لا طلب ولم ينصب أي لم يتعب

من احتسب نفسه وإذا أراد أحدكم بعيراً فليعمد إلى الطويل العظيم فليضربه بعصاه فإن وجده حديد الفؤاد فليشتره (تاريخ الطبري)

٨

﴿ وخطب أيضاً ﴾

فقال إن الله سبحانه وبحمده قد استوجب عليكم الشكر واتخذ عليكم الحجج فيما آتاكم من كرامة الآخرة والدنيا عن غير مسألة منكم له ولا رغبة منكم فيه إليه فخلقكم تبارك وتعالى ولم تكونوا شيئاً لنفسه وعبادته وكان قادراً أن يجعلكم لأهون خلقه عليه فجعل لكم عامة خلقه ولم يجعلكم لشيء غيره وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ (١) عَلَيْكُمْ نعمه ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَحَمَلَكُم فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ثم جعل لكم سمعاً وبصراً ومن نعم الله عليكم نعم عم بها بني آدم ومنها نعم اختص بها أهل دينكم ثم صارت تلك النعم خواصها وعوامها في دولتكم وزمانكم وطبقتكم وليس من تلك النعم نعمة وصلت إلى امرئٍ خاصة إلا لو قسم ما وصل إليه منها بين الناس كلهم أتعبهم شكرها وفدحهم (٢) حقها إلا بعون الله مع الإيمان بالله ورسوله فأنتم مستخلفون في الأرض قاهرون لأهلها قد نصر الله دينكم فلم تصبح أمة مخالفة لدينكم إلا أمتان أمة مستعبدة للإسلام وأهله يجرون لكم يستصفون معايشهم وكدائحهم ورشح جباههم (٣) عليهم المؤونة ولكم المنفعة وأمة تنتظر وقائع الله وسطواته في كل يوم وليلة قد ملأ الله قلوبهم رعباً فليس لهم معقل (٤) يلجؤون إليه ولا مهرب يتقون به قد دهمتهم جنود الله عز وجل ونزلت بساحتهم مع رفاعة العيش (٥) واستفاضة المال وتتابع البعوث وسد الثغور بإذن الله مع العافية الجليلة العامة التي لم تكن هذه الأمة على أحسن منها مذ كان الإسلام والله المحمود مع الفتوح العظام في كل بلد فما عسى أن يبلغ مع هذا شكر الشاكرين وذكر الذاكرين واجتهاد المجتهدين مع هذه النعم التي لا يحصى عددها ولا يقدر قدرها ولا يستطاع أداء حقها إلا بعون الله ورحمته ولطفه فنسأل الله الذي لا إله إلا هو الذي أبلانا هذا أن يرزقنا العمل بطاعته والمسارعة إلى مرضاته واذكروا

---

(١) أفاض (٢) أثقلهم «٣» قوله يجرون أي يعطون الجزية وكدائحهم أي سعيهم أو مكاسبهم ورشح الجباه عرقها (٤) حصن وملجأ (٥) رفاعة العيش سعته وخصبه

عباد الله آلاء الله عندكم واستتموا نعمة الله عليكم وفي مجالسكم مثنى وفرادى قال الله عز وجل قال لموسى (أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ) وقال لمحمد صلعم (وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ) فلو كنتم اذ كنتم مستضعفين محرومين خير الدنيا على شعبة من الحق تؤمنون بها وتستريحون اليها مع المعرفة بالله ودينه وترجون بها الخير فيما بعد الموت لكان ذلك ولكنكم كنتم أشد الناس معيشة وأثبته بالله جهالة فلو كان هذا الذي استشلاكم (١) به لم يكن معه حظ في دنياكم غير انه ثقة لكم في آخرتكم التي اليها المعاد والمنقلب وأنتم من جهد المعيشة على ما كنتم عليه أحرياء ان تشحوا على نصيبكم منه وان تظهروه على غيره فبله اما انه قد جمع لكم فضيلة الدنيا وكرامة الآخرة ومن شاء ان يجمع له ذلك منكم فاذكركم الله الحائل بين قلوبكم الاماعرفتم حق الله فعملتم له وقسرتم انفسكم على طاعته وجمعتم مع السرور بالنعم خوفاً لها ولانتقالها ووجلاً منها ومن تحويلها فانه لاشيء اسلب للنعمة من كفرانها وان الشكر امن للغير ونماء للنعمة واستجاب للزيادة : هذا لله علي من أمركم ونهيكم واجب (تاريخ الطبري)

٩

﴿ وخطب لما شيع جيش سعد بن أبي وقاص ﴾

ان الله تعالى ضرب لكم الامثال وصرف لكم القول ليحيي به القلوب فان القلوب ميتة في صدورها حتى يحييها الله . من علم شيئاً فلينتفع به وان للعدل أمارات وتباشير فأما الامارات فالحياء والسخاء والهين واللين وأما التباشير فالرحمة وقد جعل الله لكل أمر باباً ويسر لكل باب مفتاحا فباب العدل الاعتبار ومفتاحه الزهد . والاعتبار ذكر الموت بتذكر الاموات والاستعداد له بتقديم الاعمال . والزهد أخذ الحق من كل أحد قبله حق (أي عنده) وتأدية الحق الى كل أحد له حق . ولا تصانع في ذلك أحداً واكتف بما يكفيك من الكفاف فان من لم يكفه الكفاف لم يغنه شيء . اني بينكم وبين الله وليس بيني وبينه أحد وان الله قد ألزمني رفع الدعاء عنه فأنهوا شكاتكم الينا فمن لم يستطع فالى من يبلغناها نأخذ له الحق غير متعتع (٢) (تاريخ الطبري)

---

(١) استشلاه دعاه لينجيه من ضيق أو هلاك (٢) في القاموس تعتعه أي تله وحركه بعنف أو أكرهه في الامر

١٠

وسمع مرة ان نفراً يقولون لو مات عمر لبايعنا فلاناً اعتماداً منهم على ان بيعة أبي بكر تمت بمبايعة نفر من المهاجرين والانصار فأراد عمر رضي الله عنه أن يبين لهم ان بيعة أبي بكر كانت فلتة وأن أهليته واستعداده وحرج الموقف الذي وقف به المسلمون يومئذ سوغ تلك البيعة فخطب فيهم هذه الخطبة التي رواها الشيخان فقال.

قد بلغني ان فلانا منكم يقول لو مات عمر بايعت فلانا فلا يغترّن امرؤ ان يقول ان بيعة ابي بكر كانت فلتةً الا وانها كانت كذلك الاّ انّ الله وقى شرها وليس فيكم اليوم من تقطع اليه الاعناق مثل أبي بكر وانه كان من خيرنا حين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن علياً والزبير ومن معهما تخلفوا في بيت فاطمه وتخلفت الانصار عنا بأجمعها في سقيفة بني ساعدة واجتمع المهاجرون الى ابي بكر فقلت يا أبا بكر انطلق بنا الى اخواننا من الانصار فانطلقنا نؤمهم حتى لقينا رجلان صالحان فذكر لنا الذي صنع القوم فقالا اين تريدون يامعشر المهاجرين قلت نريد اخواننا من الانصار فقالا عليكم ان لاتقربوهم واقضوا امركم يامعشر المهاجرين فقلت والله لنأتينهم. فانطلقنا حتى جئناهم في سقيفة بني ساعدة فاذاهم مجتمعون واذا بين ظهرانيهم رجل مزمل فقلت من هذا قالوا سعد بن عبادة فقلت ماله قالوا وجع فلما جلسنا قام خطيبهم فأثنى على الله بما هو أهله وقال (امّا بعد) فنحن انصار الله وكتيبة الاسلام وانتم يامعشر المهاجرين رهط منا وقد دفت دافة (١) منكم يريدون ان يختزلونا من اصلنا ويحضونا من الامر فلما سكت أردت أن أتكلم وقد كنت زوّرت مقالة اعجبتني أردت ان اقولها بين يدي أبي بكر وقد كنت اداري منه بعض الحد وهو كان احلم مني وأوقر فقال ابو بكر على رِسلك فكرهت أن أعصيه وكان أعلم مني والله ماترك من كلمة أعجبتني في تزويري الاقالهـا في بداهته وافضل حتى سكتْ فقال

اما بعد فماذكرتم من خير فأنتم أهله ولم تعرف العرب هذا الامر الا لهذا الحيّ من قريش هم اوسط العرب نسباً وداراً وقد رضيت لكم احد هذين الرجلين ايهما شئتم. فأخذ بيدي وبيد أبي عبيده بن الجراح فلم أكره مما قال غيرها وكان واللهان أقدّم فتضرب عنقي لايقربني ذلك من ثم احب الى من أن أتأمر على قوم فيهم ابو بكر

(١) الدافة الجيش يدفون نحو العدو والاختزال الاقتطاع ويحضونا يكفونا

فقال قائل من الانصار انا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب منا امير ومنكم امير يامعشر قريش وكثر اللغط وارتفعت الاصوات حتى خشيت الاختلاف فقلت ابسط يدك ياأبا بكر فبسط يده فبايعته وبايعه المهاجرون ثم بايعه الانصار أما والله ماوجدنا فيما حضرنا امراً هو اوفق من مبايعة ابي بكر . خشينا ان فارقنا القوم ولم تكن بيعة ان يحدثوا بعدنا بيعة فاما ان نبايعهم على مالانرضى واما ان نخالفهم فيكون فيه فساد

١١

﴿ وخطب فقال ﴾

ايها الناس ما الجزع مما لابد منه وما الطمع فيما لايرجى وما الحيلة فيما سيزول وانما الشيء من اصله وقد مضت قبلنا اصول ونحن فروعها فما بقاء الفرع بعد اصله انما الناس فى هذه الدنيا اغراض تنتضل (١) المنايا فيهم وهم نصب المصائب مع كل جرعة شرق وفي كل اكلة غصص لاينالون نعمة الا بفراق اخرى ولا يستقبل معمر من عمره شيئاً الا بهدم آخر من اجله وانتم اعوان الحتوف على انفسكم وأين المهرب مما هو كائن وانما يتقلب الهارب في قدرة الطالب فما اصغر المصيبة اليوم مع عظم الفائدة غداً واكثر خيبة الخائب جعلنا الله واياكم من المتقين (مفتاح الافكار)

١٢

﴿ وخطب فقال ﴾

ايها الناس انه اتى علىّ حين وانا احسب ان من قرأ القرآن انه انما يريد به الله وما عنده ألا وقد خيل الي ان اقواماً يقرؤن القرآن يريدون به ما عند الناس الا فأريدوا والله بقراءتكم وأريدوه باعمالكم فانا كنا نعرفكم اذ الوحي ينزل واذ النبي صلى الله عليه وسلم بين اظهرنا فقد رفع الوحي وذهب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فانما نعرفكم بما أقول لكم الا فمن أظهر لنا خيراً ظننا به خيرا واثنينا به عليه ومن اظهر لنا شراً ظننا به شراً وأبغضناه عليه اقدعوا (٢) هذه النفوس عن شهواتها فانها طلعة فانكم الا تقدعوها تنزع بكم الى شر غاية ان هذا الحق ثقيل مريء وان

« ١ » في أساس البلاغة وخرجوا ان النضال وهم ينتضلون ويتناضلون ومعناه يتراموون ويتبارون « ٢ » قوله أقدعوا أي كفوا وقوله نفس طلعة كثير التطلع الى الشيء

الباطل خفيف وبيء وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ورب نظرة زرعت شهوة وشهوة ساعة اورثت حزنا طويلا (مفتاح الافكار)

١٣

﴿ وخطب فقال ﴾

انما الدنيا أمل مخترم (١) وأجل منتقص وبلاغ الى دار غيرها وسير الى الموت ليس فيه تعريج فرحم الله امرءا فكر في أمره ونصح لنفسه وراقب ربه واستقال ذنبه ثم ليس الجار الغني يأخذك بمالا يعطيك من نفسه فان أبيت لم يعدرك اياكم والبطنة فانها مكسلة عن الصلاة ومفسدة للجسم ومؤدية الى السقم وعليكم بالقصد في قوتكم فهو أبعد من السرف وأصح للبدن وأقوى على العبادة وان العبد لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه (مفتاح الافكار)

١٤

﴿ خطبته بالجابية عند أوبته من الشام الى المدينة ﴾

قال بعدان حمدالله وأثنى عليه ألا اني قدوُليتُ عليكم وقضيت الذي عليَّ في الذي ولاّني الله من أمركم ان شاء الله فبسطنا بينكم فيئكم ومنازلكم ومغازيكم وأبلغنا ما لديكم فجنَّدنا لكم الجنود وهيَّأنا لكم الفروج وبوَّأنا كم ووسَّعنا عليكم ما بلغ فيئُكم وما قاتلتم عليه من شأمكم وسمَّينا لكم أطماعكم وأمرنا لكم باعطياتكم وأرزاقكم ومَعاوِنكم فمن عَلِمَ عِلْمَ شئ ينبغي العمل به فلْيُعلمنا نَعْمَلْ به ان شاء الله ولا قوة الا بالله (تاريخ الطبري)

﴿ باب ﴾

﴿ مقتل عمر ﴾

ذكر أرباب السير والمحدثون عن مقتل عمر ان أبا لؤلؤة غلام المغيرة ابن شعبه شكا اليه ارتفاع الخراج الذي ضربه عليه مولاه المغيرة وطلب اليه

«١» مخترم اي منتقص وقوله منتقص من الانتقاص وهو التراجع والانتكاث

تخفيمه فمن قائل انه وعده خيراً او عزم أن يلقى المغيرة فى تخفيف الخراج عنه ومن قائل انه سأله كم خراجك قال درهمان فى كل يوم قال وايش صناعتك قال نحاس نقاش حداد قال فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الاعمال فتوعده الغلام وانصرف فقال عمر توعدني العبد

قالوا ولما انصرف عمر الى منزله جاءه من الغد كعب الاحبار فقال يا أمير المؤمنين اعهد فانك ميت في ثلاثة أيام: قال وما يدريك قال أجده في كتاب الله عز وجل التوراة قال عمر الله انك لتجد عمر بن الخطاب فى التوراة قال اللهم لا ولكني أجد صفتك وحليتك وانه قد فني أجلك قال وعمر لا يحس وجعاً ولا ألماً فلما كان من الغد جاءه كعب فقال يا أمير المؤمنين ذهب يوم وبقي يومان وهكذا مازال يجيئه كل يوم الى مساء اليوم الذي قتل في صبيحته . وممن روى هذا الخبر وذكر فيه قول كعب هذا ابن جرير الطبري في تاريخه رواه عن المِسْوَر بن مَخْرَمَة

وروى فى أسد الغابة عن أبى رافع ان أبا لؤلؤة لما طلب الى عمر ما طلب قال له عمر اتق الله وأحسن الى مولاك ومن نية عمر ان يلقى المغيرة فيكلمه ان يخفف عنه فغضب العبد وقال وسع الناس كلهم عدله غيري فأضمر على قتله فاصطنع له خنجراً له رأسان وشحذه وسمه ثم أتى به الهرمزان فقال كيف ترى هذا قال انك لا تضرب به أحداً الا قتلته قال فتحين أبو لؤلؤة عمر فجاءه في صلاة الغداة حتى قام وراء عمر وكان عمر اذا أقيمت الصلاة يقول أقيموا صفوفكم فقال كما كان يقول فلما كبر وجاءه (طعنه) أبو لؤلؤة فى كتفه وجاءه في خاصرته وقيل ضربه ست ضربات فسقط عمر وطعن أبو لؤلؤة بخنجره ثلاثة عشر رجلا (ممن حاولوا القبض عليه) وهلك منهم سبعة

وفى رواية ان أحد المسلمين ألقى على أبى لؤلؤة برنساً ليتمكن من القبض

عليه فلما أحس انه أتي وذاخر يتحدر . وفي رواية الطبري وغيره ان عمر لما سقط قال أين الناس عبد الرحمن بن عوف قالوا انه هو ذا قال تقدم فصل بالناس . فصلى عبد الرحمن بالناس صلاة خفيفة وعمر طريح ثم احتمل فأدخل داره فدعا بعلي وعثمان والزبير وسعد وأمرهم أن يتشاوروا في أمر الخلافة وقال لهم انتظروا أخاكم طلحة ثلاثا فان جاء والا فاقضوا أحدكم وليشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الامر شيء قوموا فتشاوروا وليصل بالناس صهيب ثم قال لابي طلحة الانصاري يا أبا طلحة ان الله أعز بكم الاسلام فاختر خمسين رجلا من الانصار وكونوا مع هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلا منهم وقال للمقداد بن الاسود اذا وضعتموني في حفرتي اجمع هؤلاء الرهط وقم على رؤسهم فان اجتمع خمسة على رأي واحد وأبى واحد فأشدخ رأسه بالسيف وان اجتمع أربعة ورضوا وأبى الاثنان فاضرب رأسيهما فان رضي ثلاثة رجلا وثلاثة رجلا فحكموا عبد الله بن عمر فان لم يرضوا بعبد الله وكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين ان رغبوا عما اجتمع عليه الناس

وفي المناقب عن ابن ميمون قال لما طعن عمر دخل عليه كعب فقال (الحق من ربك فلا تكن من الممترين) قد أنبأتك انك شهيد فقلت من أين لي الشهادة وأنا في جزيرة العرب وفي تاريخ الطبري ان المهاجرين والانصار جعلوا يدخلون على عمر لما طعن فيسلمون عليه ويقول لهم أعن ملإ منكم كان هذا فيقولون معاذ الله ودخل في الناس كعب فلما نظر اليه عمر أنشأ يقول

فأوعدني كعب ثلاثا أعدها	ولا شك ان القول ما قال لي كعب
ومابي حذار الموت اني لميت	ولكن حذار الذنب يتبعه الذنب

وفي رواية أبي جعفر الطبري ان عبيد الله بن عمر قتل بأبيه ابنة أبي لؤلؤة

وقتل جفينة رجلا نصرانيا من اهل الحيرة أتى به سعد بن ابى وقاص ليعلم الناس الكتابة وقتل الهرمزان فوالله سبب قتله للاثنين الاخيرين ان عبد الرحمن بن ابي بكر قال غداة قتل عمر رأيت عشية امس الهرمزان وابا لؤلؤة وجفينة وهم يتناجون فلما رأوني ثاروا وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه وهو الخنجر الذي ضرب به عمر فقتلهم عبيد الله وقال والله لاقتلن رجالا ممن شرك في دم ابي يعرض بالمهاجرين والانصار فبلغ ذلك صهيبا فبعث اليه عمرو بن العاص فما زال به حتى اخذ منه السيف ثم ثاوره سعد بن ابي وقاص واخذه وحبسه في داره

هذه الروايات التي جاءت في قتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن امعن فيها النظر وراجع ما كتبناه عن الهرمزان ونكثه عهد المسلمين قبل اسره المرة بعد المرة وكيف احتال للخلاص من القتل ثم اذا اضاف الى هذا ما ذكرناه في اخبار نهاوند من ان ابا لؤلؤة فارسي الاصل من نهاوند وقد كان اسره الروم ثم اسره منهم المسلمون ولما قدم سبي نهاوند الى المدينة جعل ابو لؤلؤة لا يلقى منهم صغيرا الا مسح رأسه وبكى وقال له اكل عمر كبدي وان جفينة نصراني وان كعب الاحبار يهودي حديث عهد بالاسلام وان مراجل الحقد على عمر وتدويخه لبلادهم وقهره لهم ولملوكهم كانت تغلي في صدور هؤلاء الدخلاء في الدين اتضح لديه ان قتل عمر لم يكن الا عن مؤامرة بين اولئك الدخلاء كما شهد بذلك عبد الرحمن بن ابي بكر وان السبب الظاهر الذي اختلقه ابو لؤلؤة تحته اسباب اهم واعظم وهي الغيظ والحقد على المسلمين وان ابا هريرة كان واقفا على امر هذه المؤامرة فانذر عمر بالقتل قبل ثلاثة ايام من قتله والا فقوله لعمر انه رأى حتم قتله في التوراة كلام غير معقول يرفضه العقل بتاتا وليس عليه دليل كما انه ليس لابي هريرة ان يعلم الغيب وانما علمه عند الله ومن المحتمل ان لا يكون لابي هريرة يد في هذه المؤامرة الا

انه علمها واراد ان يعرّض بذكرها لعمر رضى الله عنه بالكناية تحذيراً له ولم يشأ ان يصرح له بذلك لامر لا نعلمه الا ان عمر رضى الله عنه لم يعبأ لسلامة صدره بقوله ولم يشدّد عليه فى السؤال وربما لم يخطر له ذلك الامر فى بال لما يعلمه من نفسه من القيام على الحق والعدل وانصاف الناس مسلمهم وغير مسلمهم وعربهم وعجميهم ومن كان هذا شأنه يكون بالطبع آمناً غائلة الناس وغدر الغادرين وخصوصاً عمر بن الخطاب الذى يحكى انه جاءه مرة رسول من قبل ملك الروم فوجده نائماً على الارض متوسداً الحصا فقال لله انت عدلت فأمنت فنمت.
ولكن قُدّر على المسلمين ان يغفلوا عن مضرة وجود امثال اولئك الدخلاء فى المدينة فى مثل عصر عمر الذى كانت فيه جيوشه تضرب فى انحاء الارض وتثل عروش الملوك وتزعزع اركان الممالك وتشيد بنيان الاسلام وهذا كله مما يحفظ قلوب الاعداء ويطوى جوانحهم على دغل ويستدعى الانتباه لمثل ابى لؤلؤة والهرمزان وجفينة وامثالهم من الدخلاء ولا ينبغى ان يحسن بهم الظن الا مع الاحتياط والتحذر ريثما يتناسون ثأرهم وتضعف فى نفوسهم اسباب الضغن ويسكنون الى سلطان المسلمين. يألفون حكم الاسلام ويوثق باخلاصهم فى الطاعة وامانة الجوار هذا مع ان عمر رضى الله عنه كان يكره وجود الاعاجم فى المدينة فلا ندرى لهذا السبب ام لغيره فقد اخرج فى المناقب عن ابن عمر قال كان عمر يكتب لامراء الجيوش لا تجلبوا علينا من العلوج احداً جرت عليه المواسى فلما طعنه غلام المغيرة قال الم اقل لكم لا تجلبوا علينا من العلوج احداً فغلبتمونى فربما كان على علم وبينة مما يضمرون الا انه لم يظن انهم يجرأون عليه مادام قائماً فيهم وفى كل الرعية بالقسط هذا ولما طعن عمر قال لابن عباس انظر من قتلنى فجال ساعة ثم جاء فقال غلام المغيرة بن شعبة قال الصنيع قال نعم قال قاتله الله لقد امرت به معروفا

فالحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل يدعي الاسلام ولما حمل الى بيته جزع الناس عليه جزعاً شديداً وكأنه لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ وأما هو رضي الله تعالى عنه فقد أظهر من الثبات والجلد ماهو معروف به في حال الشدة والرخاء وكان اول همه النظر في أمر الخلافة وتقريرها على وجه يمنع من حصول الفتنة بعدها فرأى ورأيه الحق أن يتركها شورى بين النفر الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ففعل وبلغ به الحرص على دفع الفتنة وتعجيل نصب الخليفة بعده ان امر المقداد بما أمر كي لا يكون بينهم فتنة وان كانت فان تقمع بالسيف

وفي المناقب عن ابن عمر ان عمر دعا طبيب ينظر في جرحه فجاءه بطبيب من الانصار من بني معاوية فسقاه لبناً فخرج من الطعنة أبيض فقال له الطبيب ياأمير المؤمنين اعهد فقال عمر صدقني أخو بني معاوية ولو قلت غير ذلك لكذبتك فبكى عليه القوم حين سمعوا فقال لا تبكوا علينا من كان باكياً فليخرج ألم تسمعوا ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعذب الميت ببكاء أهله عليه

وفيه عن جعفر بن محمد قال لما طعن عمر اجتمع اليه البدريون المهاجرون والانصار فقال لابن عباس اخرج اليهم فسلهم عن ملاء منكم ومشورة كان هذا الذي أصابني قال فخرج ابن عباس فسألهم فقال القوم لا والله وَلَوَدِدْنَا أَنْ زاد الله في عمرك من أعمارنا

وفي العقد عن ابن عباس قال دخلت على عمر بن الخطاب في أيام طعنته وهو مضطجع على وسادة من أدم وعنده جماعة من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال له رجل ليس عليك بأس قال لئن لم يكن عليّ اليوم ليكونن بعد اليوم وان للحياة لنصيباً من القلب وان للموت لكربة وقد كنت أحب أن أنجي نفسي وأنجو منكم وما كنت من أمركم الا كالغريق يرى حياة فيرجوها ويخشى ان يموت دونها

فهو يركض بيديه ورجليه. وأشدّ من الغريق الذي يرى الجنة والنار وهو مشغول ولقد تركت زهرتكم كما هي ما لبستها فأخلقتها، وثمرتكم يانعة في أكمامها ما أكلتها وما جنيت ما جنيت الا لكم وما تركت ورائي درهما ما عدا ثلاثين أو أربعين درهما: ثم بكى وبكى الناس معه. فقلت يا أمير المؤمنين أبشر فوالله لقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنك راض ومات أبو بكر وهو عنك راض وان المسلمين راضون عنك قال (أي عمر) المغرور والله من غررتموه أما والله لو ان لي ما بين المشرق والمغرب لافتديت به من هول المطلع

وفيه عن هشام بن عروة عن أبيه قال لما طعن عمر بن الخطاب قيل له يا أمير المؤمنين لو استخلفت: قال ان تركتكم فقد ترككم من هو خير مني وان استخلفت فقد استخلف عليكم من هو خير مني ولو كان أبو عبيدة بن الجراح حياً لاستخلفته فان سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول انه أمين هذه الأمة ولو كان سالم مولى حذيفة حياً لاستخلفته فان سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول ان سالما ليحب الله حباً لو لم يخفه ما عصاه قيل له فلو انك عهدت الى عبد الله فانه له أهل في دينه وفضله وقديم اسلامه قال بحسب آل الخطاب ان يحاسب منهم رجل واحد عن أمة محمد ولوددت اني نجوت من هذا الامر كفافاً لا لي ولا عليّ ثم راحوا فقالوا يا أمير المؤمنين لو عهدت فقال قد كنت أجمعت بعد مقالي لكم ان أولي رجلا أمركم ارجو ان يحملكم على الحق واشار الى عليّ بن ابي طالب ثم رأيت ان لا أتحملها حياً ولا ميتاً فعليكم هؤلاء الرهط الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم انهم من اهل الجنة وذكر السبعة واستثنى من الشورى سعيد بن زيد وقال عن السنة وليختاروا منهم رجلا فاذا ولوكم واليا فأحسنوا موازرته (اى معاونته) في حديث طويل سيأتي معناه هو بتمامه في قصة الشورى ان شاء الله

ومن هذا تعلم مقدار حرج الموقف في منصب الخلافة الرفيع حتى ان عمر لم يقبل ان يتحمل مسؤليته بعد الموت كما تحملها في الحياة وانما يعرف هذه المسؤلية من كان له دين يردعه كعمر بن الخطاب رضى الله عنه واخوانه من الخلفاء الراشدين

أخرج في أسد الغابة عن عمرو بن ميمون في حديث طويل ان عمر قال لابنه يا عبد الله بن عمر انظر ما علي من الدين فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفاً قال ان وفى له مال آل عمر فأدوه من أموالهم والا فسل في بني عدي فان لم تف أموالهم فسل في قريش ولا تعدهم الى غيرهم فأد عني هذا المال وانطلق الى عائشة أم المؤمنين فقل لها يقرأ عليك عمر السلام ولا تقل أمير المؤمنين فانى لست اليوم للمؤمنين أميراً وقل يستأذن عمر بن الخطاب ان يدفن مع صاحبيه فسلم (أى عبد الله) واستأذن ودخل عليها فوجدها قاعدة تبكى فقال يقرأ عليك عمر ابن الخطاب السلام ويستأذن ان يدفن مع صاحبيه وقالت كنت أريده لنفسى ولأوثرن به اليوم على نفسى فلما أقبل قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء : قال عمر ارفعونى فأسنده رجل اليه فقال مالديك قال الذي تحب قد أذنت قال الحمد لله ماكان شيء أهم الي من ذلك فاذا أنا قبضت فاحملونى ثم سلم فقل يستأذن عمر بن الخطاب فان أذنت لي فأدخلوني وان ردتني ردونى الى مقابر المسلمين

روي انه لما ثقل عمر قال لابنه عبد الله ضع خدى على الارض فوضعه على الارض فجعل يقول ويلي وويل أمي ان لم يرحمني ربى ثم مات ولما توفي صلي عليه في المسجد وحمل على سرير رسول الله صلى الله عليه وسلم وغسله ابنه عبد الرحمن وصلى عليه صهيب وكان تقدم قبل ذلك علي وعثمان للصلاة عليه فقال عبد الرحمن لا اله الا الله ما أحرصكما على الامرة أما علمتما ان أمير المؤمنين قال ليصلِّ بالناس صهيب

قال في أسد الغابة روى أبو بكر بن اسماعيل بن محمد بن سعد انه قال طعن عمر يوم الاربعاء لاربع ليال بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين ودفن يوم الاحد هلال المحرم سنة أربع وعشرين وكانت خلافته عشر سنين وخمسة أشهر واحد وعشرين يوما وقال عثمان بن محمد الاخنسي هذا وهم توفي عمر لاربع ليال بقين من ذي الحجة وبويع عثمان يوم الاثنين لليلة بقيت من ذي الحجة

وتوفي عمر وهو ابن ثلاث وستين سنة وقيل اقل والاول أصح الاقوال في عمره.

(وصيته لمن يخلفه)

أخرج ابن الجوزي وغيره من الحفاظ والمحدثين عن ابن عمر انه قال: دفع الي عمر كتاباً فقال اذا اجتمع الناس على رجل فادفع اليه هذا الكتاب واقرأه مني السلام فاذا فيه

أوصي الخليفة من بعدي بتقوى الله وأوصيه بالمهاجرين الاولين الذين أخرجوا من ديارهم واموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله ان يعرف حقهم ويحفظ لهم كرامتهم. وأوصيه بالانصار خيراً (الذين تبوؤا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا) الى قوله تعالى: المفلحون. ان يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم وأن يشركوا في الامر. واوصيه بذمة [1] الله وذمة محمد صلى الله عليه وسلم ان يوفي لهم بعهدهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم وان يقاتل من ورائهم (اى يحميهم) اه

«١» وهم أهل الذمة من غير المسلمين ويدخل فيها الفرس والكتابيون وكل من رضى بدفع الجزية للمسلمين فصار ذمة له مالهم وعليه ما عليهم

هكذا انقضت حياة هذا الرجل العظيم نقية طاهرة بعد أن فتح الممالك ورفع منار الاسلام وبسط بساط العدل وبث روح الجد والنشاط فى العرب وأسس لهم ذلك الملك العريض وفل بهم جيوش فارس والروم وربأهم على العفاف وكف يد الظلم واحترام العهود والوفاء بالذمة كما أمر به الاسلام وقررته شريعة محمد عليه الصلاة والسلام فسعدت بحياته الرعية من سائر الملل ودخل الامم فى طور جديد من الحرية والعدل والأمن والراحة لم يكونوا يعهدونه ولم يكن لأسلافهم أن يروه وبلغ به الحرص على ذلك البذار الطيب الذى بذره فى المسلمين أن أوصى عند آخر نسمة من حياته بتلك الوصية الغراء التى تدل على الهمة العالية والشيم الطاهرة والاخلاق البارة التي اكتسبها عمر من نبيه عليه الصلاة والسلام فكان خير قدوة للمسلمين وذكرى الفخر الخالد لهم بين الناس أجمعين

لما توفى عمر أكثر الشعراء من مراثيه فرثاه حسان بن ثابت وعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل وكانت زوجه وغيرهما

(صفته)

قال في أسد الغابة كان عمر أعسر يسر أيعمل بكلتا يديه وكان أصلع طويلا قد فرع [1] الناس كأنه على دابة وقال الواقدى كان عمر أبيض أمهق [2] تعلوه حمرة يصفر لحيته وانما تغير لونه عام الرمادة لانه أكثر من أكل الزيت وحرم على نفسه السمن واللبن حتى يخصب الناس . وقال بعضهم انه كان أسمر شديد السمرة وهو الاكثر عند أهل العلم

---

(١) علاهم (٢) الابيض لاحمرة فيه

باب

(ولده وعماله)

(ولده)

قال ابن قتيبة ولد عمر بن الخطاب هم عبدالله وحفصة أمهما زينب بنت مظعون وعبيدالله (وهو الذى قتل الهرمزان وجفينة) وأمه مليكة بنت جرول الخزاعية وعاصم وأمه جميلة بنت عاصم بن ثابت حمى الدبر وفاطمة وزيد وأمهما أم كلثوم بنت علىّ بن أبي طالب · ومجبر واسمه عبدالرحمن · وأبو شحمة (وهو الذى حده أبوه في الخمر فمات) واسمه أيضاً عبدالرحمن وبنات أخر

وأما الذين أعقبوا من أولاد عمر فهم عبدالله وعبيدالله وعاصم ومجبر وعقب مجبر هذا بادوا ولم يبق منهم أحد

(عماله)

كان عماله على الامصار سنة ٢٣ أى السنة التي توفي بها على مكة نافع بن عبدالحارث الخزاعى · وعلى الطائف سفيان بن عبدالله الثقفى وعلى الكوفة المغيرة ابن شُعبة وعلى البصرة أبو موسى الاشعرى · وعلى مصر عمرو بن العاص . وعلى دمشق معاوية بن أبى سفيان · وعلى حمص عُمَيْر بن سعد وعلى البحرين وما حولها عثمان بن أبي العاص الثقفي وعماله فى الحرب من علمناس القواد الذين مر ذكرهم قبل وكاتبه زيد بن ثابت وكتب له مُعَيْقِيب أيضاً وعلى بيت ماله عبدالله بن أرقم وحاجبه يرفأ مولاه

باب

(الحالة الاجتماعية على عهده)

كانت الحالة الاجتماعية على عهد عمر غيرها على عهد أبى بكر رضي الله عنهما اذ

توطد على عهد الثاني للمسلمين الملك وشيدت دعائم الدولة وصارت تلك الأمة العربية المشهورة بالانقسام والتفرّق والجهل بأمور الدولة والانغماس في الجهالة وسذاجة الفطرة سائسة ملك وربة سطوة ومجد ومقننة قانون وصاحبة دين جعلها أمة تذكر في التاريخ بأنها أعظم الامم وكانت تلك الحياة العربية والجامعة الملية مع انها بادية الظهور تنمو سريعة وتؤذن بانقلاب عظيم يحدث في أنحاء العالم وتهتز له أركان الدول العظمى يومئذ حيث اندفعت هذه الأمة بقوّة الجامعة الاسلامية والاتحاد القومي على أطراف الممالك المجاورة لها وهي فارس والروم فانتزعت من الأولى سلطانها وتغلغلت بجيوشها في أحشاء بلادها وقلبت سرير ملكها وأزعجت قادتها ورؤساءها وألجأت للانكماش الى أطراف البلاد الشرقية والتخلي عن الملك أسرة الاكاسرة من ملوكها وأقصت من الثانية أطرافها وقلصت عن سورية والجزيرة ومصر ظلها وهي تتقدم في داخل بلادها وتتهدد بالهجوم عاصمة الامبراطور

تأصلت في تلك الممالك جذور الاستعباد وتناسى الروم معنى الحرية التي كان يقاتل دونها أسلافهم الرومان ويداهنون عنايد الامبراطرة والملوك وخنع الفرس للاكاسرة واستعبدوا لاشراف البلاد وألف الفريقان حكم العبودية وفقدوا مبدأ الاعتماد على النفس والاستقلال الذاتي في الحياة فجاءهم العرب وقد امتزج في دمائهم حب الحرية حتى ما يطيقون علو أمير المؤمنين عليهم واستئثاره بشيء من أمورهم دونهم كما رأيت فيما مر فمشوا في روعهم روحاً جديدة من حب الاستقلال الذاتي والحرية الشخصية فهبوا كمن نشط من عقال فوضعوا أيديهم في أيدي الغالبين علامة الشكر والوفاء وشعروا حينئذ بأنهم بشر لا يحطون في الحقوق العامة عن مرتبة الامراء وبلغ بهم ذلك ان لما أهين رجل مصري من

ابن أمير مصر عمرو بن العاص شخص الى مقر الخلافة يشكوه ويطلب انتصافه منه ولم يهدأ الا بعد ان استنزل أباه عن منصة إمارته فقدم هو وابنه الى المدينة وأقادا ذلك الفرد من الرعية بحضور الخليفة كما سبق ايراده فى غير هذا المحل وما نعلم ان قوما بلغت بهم الحرية الشخصية يوماً مبلغها فى ذلك العصر وتمتعوا بعدل مثل ذلك العدل وهو حال ما أهنأه لتلك الأمم يومئذ من حال رفعهم من حضيض الذل والعبودية الى ذرى العز والحرية وبشرهم بعصر جديد وسعادة ما عليها مزيد

خالط العرب هذه الامم ودال اليهم ذلك الملك العريض ورأوا أبهة الحضارة واستشعروا لزوم الحياة المدنية للامم الغالبة وليس لديهم من ذلك الا الاستعداد الفطري لقبول الخير والشر والشرع الالهي الذي دعاهم الى الخروج من ظلمات البداوة فأخذوا بحكم الضرورة يقلدون مجاوريهم فى العادات وبدأوا يبارونهم فى مضمار الحياة وكان مطمح نظرهم وأول عملهم بالطبع تقليد مجاوريهم فى الامور الحربية واستعمال آلات القتال الفارسية والرومية ليقابلوا القوة بمثلها ويعدوا لهذه الفتوح عدتها ثم تطرقوا من ذلك الى الامور السياسية والادارية فوضع الخليفة عمر رضي الله عنه التاريخ ودوّن الدواوين على نحو ما هو موجود فى الدولتين الرومية والفارسية ثم أقبل على ترتيب الولايات وتقسيم الاعمال وانتقاء العمال ثم فرض الاعطيات وقرر مصرف الفيء في غير سرف ولا تقتير ونشر جناح الأمن وأقام ميزان العدل وقرر أصول الجباية بلا اجحاف في حقوق الرعية ولا غبن للدولة فعم الرخاء وبدأت مظاهر العمران تتجلى فى أنحاء المملكة وانهال الغنى والثروة على الفاتحين وخطوا خطى حثيثة الى ميدان الراحة والنعيم مع الاخذ على الشكائم والتحوش في المأكل والملبس والتوسط في العيش والقصد فى الانفاق والامساك عن البذل خوف الاخذ على أيديهم من عمر بن

الخطاب رضي الله عنه كما أخذ على يد خالد بن الوليد اذ وصل بعشرة آلاف من الدراهم شريفاً من أشراف العرب كما رأيت فى باب سياسته مع العمال

هذا من وجه ومن وجه آخر فان عمر رضي الله عنه لم يدع للعرب بمداذ دفع بهم في غمار الحضارة وقذف بهم الى ميدان الحروب وقتاً للاخلاد الى الراحة والايواء الى ظل التنعم والسكون تحت كنف الامصار بل شغلهم عن ذلك بالفتح وألهاهم بادخار المغانم عن التمتع بها ريثما يصل من غرب الدول المجاورة ويأمن غائلة الامم المغلوبة وكان له بهذا مآرب أخرى أيضاً وهي اشغال العرب في الحرب ورجهم في مضمار الفتح ليأنسوا بأصول الاجتماع والحضارة وتتبدل أخلاقهم الجافية وتزول من نفوسهم أسباب التنافر والانتماء الى العصبية الداعية الى الشقاق والفرقة يدلك على هذا ما كتبه لابي موسى الاشعري فى الكتاب عدد ٦ الذي جاء في باب كتبه وأمره فيه بأن يضرب من ينادي بالعصبية بالسيف

استفاد العرب فى حالتهم الاجتماعية من هذه السياسة العمرية لكن اندفاعهم عنهم للفتح وتفرقهم فى انحاء الممالك وتعجلهم فى ذلك الظهور قبل تأصل الدين فى عامتهم نشأ عنه بعد تشويش في الدين والملك منه عدم التمكن من محو آثار الوثنية من البلاد المفتتحة مع دخول أهلها فى الاسلام وانما اختفت هذه الآثار حيناً ثم بدأت تظهر ثانية مصبغة بصبغة أخرى دعت لسرعة تفرق أهواء المسلمين وظهور البدع والمبتدعين خصوصاً بين الاعاجم من المسلمين مما لا محل لتعداده وذكره فى هذا المقام . ومنه سرعة تقهقر الأمة العربية بمقدار سرعة تقدمها في الحضارة والمدنية الى غير ذلك من الامور التى ربما يمر معنا ذكرها فى هذا الكتاب ومع هذا فاذا نظرنا من جهة أخرى الى سياسة عمر في تعجل الفتح نرى لها فوائد كبيرة فى حينها وذلك لان دفعه للقوم الى الفتح فى ابان الظهور وحين التحمس

مهد لهم السبيل لقهر الامم وتدويخ الممالك لاسيما وانه كان من ورائهم جزاه الله عنا وعنهم خير الجزاء يؤدبهم بأدبه ويحملهم على القناعة والقصد ويحبب فيهم الامم ويغل أيديهم عن التطاول الى حقوق الغير ويأمرهم بمحاسنة الناس وحماية أهل الذمة حتى كان من ذلك ان ارتاح لحكمهم الشعوب وسهل عليهم استخضاع الاقوام وبث دعوة الاسلام فلم يخرج على سلطانهم خارج إباء لحكمهم أو تظلماً من سياستهم مع حداثة عهدهم فى الفتح وقلة الحامية بينهم بين ظهراني الشعوب الخاضعين لسلطانهم الآمنين في أوطانهم

بسط المسلمون على عهده يد السلطة على الشعوب واستفتحوا أعلاق الكنوز وملكوا ماملكوا من البلاد ومع هذا فلم تأخذهم الدنيا بزخارفها ولم يغرهم الغنى والسلطان بالنعيم ولم يبطرهم المال ولم تخط بهم الحضارة الاخطى قليلة الى الامام فكانوا وسطاً في المعيشة فى كل الامور وذلك لان عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يريدهم على البطء فى السير فى طريق الترقي ويحملهم على التوسط فى العيش فلا يمنعهم منعاً ولا يدفعهم دفعاً اللهم الا الامراء والعمال فانه كان يحملهم على طريقته فى التقشف وشظف العيش لحكمة ذكرناها فيما سبق من هذا الكتاب يدلك على هذا كتابه الى أبي موسى الاشعرى الذي يقول له فيه بلغني انه فشت لك ولاهلك هيئة فى المطعم والملبس وينصحه بالتزام القصد وتأنيبه لسعد بن أبى وقاص على أن سمى داره فى البصرة قصر سعد وغير هذا من أخباره الكثيرة مع العمال ومنها شرطه عليهم ان لا يأكلوا نقياً ولا يركبوا برذوناً الخ ماجاء في باب سياسته مع العمال وأما عامة المسلمين فكان لا يريدهم على هذا الحال ولا يمنعهم عن التمتع بما أحل الله لهم من الطيبات بل يرغب حملهم على طريق الوسط وحسبك دليلاً على هذا كتابه الى أبى عبيدة بن الجراح الذى يلومه فيه

على رحيله من انطاكية لطيب هوائها وتنعم المسلمين فيها

وأما انه كان يريدهم على البطء فى السير فى طريق الترقى فيدلك عليه ما رواه عامة أهل السير أن الاحنف بن قيس وفد عليه مرة وتكلم عن أهل البصرة بكلام دل عمر على سعة عقله فاحتبسه عنده حولا وأشهرا ثم سرحه وكذلك فعل مع زياد بن أبيه لما وفد عليه من العراق ورأى فيه قوّة العارضة والفطنة وزلاقة اللسان احتبسه عنده ولما سأله زياد عن السبب قال كرهت ان أحمل الناس على فضل عقلك . وانما كان يريد للعرب بهذه السياسة الترقي التدريجي حتى فى المدارك على ان مخالطتهم الامم وسكنى الامصار غيّر ولا شك من أخلاقهم وألان من طباعهم وزاد فى معارفهم ولا يعقل ان قوما كانوا يظنون الكافور ملحا أيام فتح المدائن تصير اليهم كنوز الارض بعد ذلك ويسوسون الامم الا باستمداد عظيم في قوى المدارك كمن فى نفوسهم وأظهره الاحتكاك بتلك الامم على وجه خال بالطبع عن كل شائبة من شوائب التصنع والختل المشهور بهما أهل الامصار في ذلك العصر وفى كل عصر فهم اذن كانوا أحسن أخلاقا وأسد عملا على سذاجة فطرتهم وجدة اسلامهم ممن حاربوهم من الامم وهذا شأن لا ينكر على مثل عصر عمر رضى الله عنه الذى دأب فيه هذا الخليفة العظيم على تدريب هذه الأمة على أصول السياسة وتهذيبها على وفق ما جاء به القرآن من آيات الحث والترغيب فى أسباب الظهور على الأمم يدلك على هذا ما رواه الطبرى فى أخبار القادسية ان رستم زعيم الفرس وقائدهم قال يومئذ أكل عمر كبدي أحرق الله كبده علّمَ هؤلاء حتى علموا وفيه دليل على ان العرب لم يكونوا قبل الاسلام في نظر الفرس شيئاً مذكوراً لبعدهم عن أسباب الحضارة واعراقهم فى الجهالة ولما اجتمعوا على كلمة الاسلام واستكفأوا على مملكتي فارس والروم وظفروا بحسن قيادة عمر

رضي الله عنه بدولتي الفرس والروم عرف رستم وأشباهه من زعماء الدولة الفارسية عظم قدر عمر بن الخطاب وبعد نظره في السياسة وحسن قيامه على تربية المسلمين وتعليمهم كيف تكون حياة الامم ولهذا قال رستم ما قال ولا جرم فلاخلاص الراعي لله وحبه لرعيته وحسن قيامه على مصالح الأمة دخل عظيم في تسودهم على الامم وتميزهم بالعلم والقوة والعكس بالعكس

وبالجملة فالحالة الاجتماعية على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه على حداثة عهد أهلها في تسنم ذرى الارتقاء تمثلها لك سيرة هذا الخليفة الجليل في قالب الجد والاستقامة والعزيمة وتظهرها لديك في مظهر النهوض الى ارتقاء قمم المجد التي انتهى اليها المسلمون فيما بعد سيرهم سيراً حثيثاً مدة تزيد عن جيلين وقفوا بعدها وقفة المستريح من وعثاء سفر شاق المتلذذ بجني ثمرات الجد والنشاط والعمل وهكذا حتى تغير الحال وانقلب الجد والنشاط الى فتور واهمال وكان بعد ذلك ما كان من هبوط مستمر بلغ بنا الآن ان فقدنا كل حول وقوة الا من السفاسف والاوهام وكل اشتغال الا بالاباطيل وكل سعي الا وراء الرتب والالقاب التي أضحكت علينا الأمم وأسرعت ببقية الاخلاق الفاضلة فينا الي هوّة العدم والغربيون يلقون الينا كل يوم بنذير من الرهبوت والقوة وواعظ من العلم والاعتبار ومنبه من التسلط على الممالك الاسلامية والديار الشرقية ومرشد الى كيف تكون حياة الامم وسيادة الشعوب ونحن سكوت لا يسمعون لنا ركزاً الا في تهاتر ولا يحسون منا حركة الا الى تدابر قد امترج الاستعباد في نفوسنا حتى ما نطيق الحرية ولا نرضى العلم ولا نقبل التذرع الى السيادة والسعي الى المجد وهي حالة يالله تمزق عشاء القلوب وتنذر بشق الجيوب فواغوثاه وواعمراه

﴿ اعتذار ﴾

هذا جهد ما استطعته في استقصاء أخبار رجل الأمة العظيم عمر بن الخطاب رضي الله عنه واني لأرجو بما بذلته من الجهد وما عانيته من النصب وتعب الفكر في تطبيق الحوادث وجمع الاشباه والنظائر وضرب الامثال وتحقيق الاخبار واستنتاج النتائج واداء النصيحة أن يقابل قومي خدمتي هذه بالقبول ويحملوا كل ما خطه قلمي على محمل الاخلاص في خدمة الملة والحق والله يشهد اني لا غرض لي أرمي اليه سواه ولا أرغب في هذه الحياة الا فيه فان أصبت فيما كتبت فذلك ما أتمناه والا فالانسان محل الخطأ وصاحب الفضل من ردّ الي خطأي ونبهني الى غلطي لأصلحه في الجزء الذي يلي هذا الجزء وحسبي ما رأيته من قومي في جميع الاقطار الاسلامية من الاقبال على الجزء الاول من هذا الكتاب تنشيطاً لي وداعياً لي الى المضي في عملي والمثابرة على اتمام هذا الكتاب على أسلوبه الجديد مهما عانيت من المشاق ولاقيت من التعب اذ كل شيء سهل بعد رضى قومي عن كتابي هذا . وقد بعث رضاؤهم في نفسي رجاءً عظيماً في تحقيق أمنيتي التي قصاراها تنبيه العقول الراقدة لا الفاقدة الى سير أسلافهم الكرام ورجال الاسلام العظام الذين يمثلون صورة الحياة العالية في أجلى مظاهر الجد والقوة والنشاط فيقوم بها خيال في النفوس الخامدة يزعجها عن مواطن الخمول والرذيلة وينهض بها الى تناول المجد من قمته الشامخة بوسائل الجد لا بالوسائل السافلة والله ملهم الصواب

هذا وقد كنت وعدت قرّاء الجزء الاول بأن أصدر هذا الجزء مشتملاً على سيرة عمر بن الخطاب ومن اشتهر في دولته وبهذا عنونت هذا الجزء الا اني لما انتهيت من سيرة عمر رضي الله عنه وجدت ان الجزء قد زاد عن الحجم الذي قدرناه له ولو أضيفت اليه سيرة رجال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما وسعها الوفاء

بشرط بيع الاجزاء بثمن هين ولخالف ذلك رغبتي في تعميم الكتاب لا سيما وان كثيراً من قراء الجزء الاول سألوني سرعة انجاز سيرة رجل الاسلام عمر بن الخطاب لهذا رأيت ان أصدر هذا الجزء خلواً من سيرة مشهوري الرجال فى خلافة عمر رضى الله عنه وان أرجئها الى الجزء الذي يليه فاسأل القراء المعذرة كما أسأل الله التوفيق انه أكرم مسؤول

﴿ كلمة للجرائد ﴾

(وشكر للمنتقدين)

التمست فى الجزء الماضى من أهل الفضل وأرباب الجرائد الانتقاد على ما في ذلك الجزء من خطأ بما بدر به القلم لاصلحه فى هذا الجزء فسبق بهذا التفضل من المجلات العلمية كل من مجلة المقتطف والهلال الشهيرتين اللتين خصتا بخدمة المعارف والعلم منذ أنشئتا الى هذا العهد فطلبت الي الاولى ان أوسع النظر في تواريخ الغربيين واستقصى منها حالة دولة الروم على عهد الفتح الاسلامى لا توسع فى بيان العلل والاسباب التى أوجبت قهر تلك الدولة بواسطة الجيوش العربية وفى الحقيقة فان هذا الامر من الامور الجديرة بتدقيق المؤرخين الخليقة بالنظر والتأمل لهذا راجعت أشهر التواريخ الافرنجية التى كتبت عن العرب والروم فى ذلك العهد كتاريخ الامبراطورية الشرقية لادورد جبون الانكليزي وتاريخ العرب للمؤرخ الفرنساوي ديفرجي والذي رأيته فيهما وفي غيرهما من التواريخ مالا تخلو منه كل دولة فى مبادئ ضعفها من المفاسد الاجتماعية والسياسية كالظلم وحب الشهوات ونبذ القانون وتجاذب أطراف الرياسة وغير ذلك وزاد عليه في الدولة البزنطية تفاقم خطب المجادلات الدينية التى أودت بحياة القوم السياسية الا أن الامبراطور هرقل كان والحق يقال عضداً عظيماً لهذه الدولة فى حال

ضعفها ذلك لانه من أعاظم الملوك البزنطيين وأشدهم حرصاً على حياة الدولة كما نرى ذلك من وقائعه الشهيرة مع المسلمين ومكافحته لهم بجيوش الروم مكافحة أهل العزيمة والحزم ومهاجمته لهم الكرة بعد الكرة لكن لم يغن عنه ذلك الكفاح شيئاً فى جانب قوّة المسلمين وكفاءة قوّادهم العظام على انّ الاطلاع على تاريخ الروم وأخبار دولة الخلفاء الراشدين فى عهد الفتح ولو مجردة عن التعليقات السياسية والقياسية يكفى المؤرّخ أن يستخرج العلل والاسباب من ثنايا السطور ومتفرقات الاخبار وقد بذلت فى هذا الجزء جهد المستطاع فى تتبع العلل السياسية والاجتماعية التى دعت لسرعة ظفر المسلمين بدولتى الفرس والروم يومئذ ولم أدع خبراً من الاخبار الا أردفته بما خطر لي من الخواطر الفلسفية أو وقفت عليه من الحقائق التاريخيه لأمثل ذلك العصر فى صورة يراها القارئ كأنما هو فيه خصوصاً فيما يتعلق بدولة الخلفاء الراشدين وسياسة المسلمين فان أصبت فيما قلت وبينت ثمة فذلك هو المطلوب والا ففوق كل ذى علم عليم وللمقتطف فى تنبيهى الى ذلك فضل أشكره عليه من صميم الفؤاد

انتقد المقتطف الاغر كلاما آخر من كتابي وسألني بيانا عمن هو المسؤل عن بعض الحوادث التاريخية التى جرت فى بعض أنحاء القطر السورى فى منتصف القرن الماضى والجواب عن هذا الا علاقة له بهذا الجزء وانما هو من خصائص الاجزاء الاخيرة من هذا الكتاب وسيأتي فى محله ان شاء الله

وأمّا مجلة الهلال الغراء فقد انتقدت عليّ قولي فى الجزء الماضى أن دمشق كانت على عهد الفتح الاسلامى حاضرة بنى غسان وقد أفردت للجواب عن هذا الانتقاد فصلا مخصوصاً فى هذا الجزء فيه البيان الكافي فلا حاجة هنا لغير اسداثها شكرى ومشاركتها فى أجرى لانها كانت السبب فى استقصائي الادلة

التاريخية التى اذا لم تقد فى بابها اليقين فانها تكون عونا للباحثين

وحبذا لو حذت حذو هاتين المجلتين كل المجلات العربية فى انتقاد الكتاب وتتبع ما فيه من الخطأ أذن والله لرادتي انبعاثا لتحقيق الاخبار وبسط الافكار ونهتني الى ما ربما لم يخطر لي من الحوادث التاريخيـة فى بال اذ العلم اجزاء لا يتناولها عقل الفرد والأمة جسم لا يحرك عضو منه الآ بالاستعانة باخيه فما بال مجلاتنا التى هى عون المعارف وسند الباحثين ومنار المسترشدين لا يفيض من كنوزها على المؤلفين الا قول أحسن وأجاد ألعلها تجهل انّ مدرسة الامة العامة هى الكتب والمؤلفات وان الجرائد هى المسيطرة على هذه المدرسة المكلفة بتعهدها بالنظر والبحث فيما يفسد اخلاق الناس او يصلحها من خير اوشر وحق او باطل

او لعلها تجهل ان معظم البلاء الذي حلّ بالشرقيين عامة والمسلمين خاصة انما كان منشأه الكتب التى شحنت بالاباطيل وانتزعت من النفوس ملكات العلم الصحيح فأفسدت الاخلاق وأضعفت العقول وجعلت الحق والباطل فى نظر اكثر الناس سواء بل جعلت الحق عند فريق كبير تابعا للاهواء ان شاءت جعلته باطلاً وضربت به وجوه العلماء

ان جرائد الشرق ولا نكران للحق مصابة بنفس مصاب الأمة لم تستثن من ذلك البلاء لانها لا تخط على صفحاتها للمؤلفين غير المدح والاطراء ولا تنبه المؤلفين الى حقيقة ولا تمنعهم من شر باطل

هذا وما خلا المجلات فقد انتقد عليّ بعض الادباء إغفالي تفسير الالفاظ اللغوية التى وردت في كلام القوم في الجزء الماضى على اني لم أغفلها الا اقتصاداً للوقت كما نبهت على ذلك ثمة ومع هذا فقد استدركت هذا الخطأ فى هذا الجزء ففسرت الالفاظ اللغوية الا ما كان منها كثير التداول مفهوماً بقرينة المحاورة

فاني لم أفسره اعتماداً على ذكاء القارئ

وقد نبهني بعضهم أيضاً الى غلطات مطبعية غير ما صححته في آخر ذلك الجزء فعزمت ان أضيفها الى فهرس الخطأ والصواب الذي يلحق بهذا الجزء

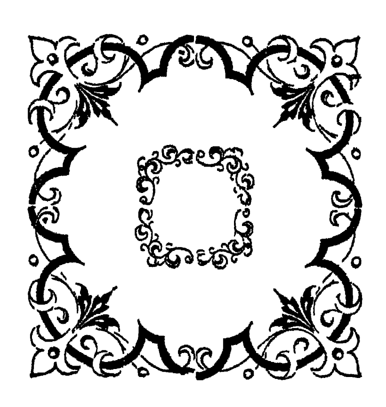
وانتقد علي بعضهم كثرة استعمال الالفاظ الدينية كالدعاء بالصلاة والترضي بحجة ان التاريخ ينبغي ان يكون خلواً من ذلك الحشو اذ يقرأه المسلم وغير المسلم ومن يرى لزوم الدعاء ومن لا يراه

ونحن مع علمنا بأن هذا شيء لم يرد عن لسان الصحابة والتابعين بل اصطلح عليه بعض المحدثين بقصد تعظيم الصحابة وان لهؤلاء من الفضيلة الذاتية ما يغنيهم عن مثل هذا التعظيم وان أكبر المحدثين والمؤرخين كابن جرير الطبري لم يستعمل الدعاء في تاريخه الا لكبار الصحابة واستعمله بالترحم لا بالترضي وفيه دليل على أن وجوب التعظيم انما هو في القلب لا في اللسان والمؤرخ في الخيار باستعمال أية صيغة من صيغ التعظيم اللفظية أو عدمه

مع هذا كله فاني لم أر بأساً من ايراد ذلك الدعاء اقتداء بالائمة المحدثين الا اني رمزت اليه بحرفي (رض) على اصطلاح بعض المتأخرين ليتلوه من شاء ومن شاء فلا ولا يخفى على فطنة المنتقد ان ذلك العصر عصر ديني أكثر مما هو سياسي والصحابة هم الرجال الذين قام بهم الاسلام وضمير كل انسان يستشعر بشيء من وجوب التعظيم ان لم يكن باللسان ففي القلب عند ذكر كل رجل عظيم من أي قبيل أو ملة كان وكيف بالمسلم عند ذكر رجال أمته العظام وأئمته الكرام الذين رفعوا منار الاسلام وأسسوا ذلك الملك العريض وأعلوا شأن المسلمين

﴿ تنبيه ﴾

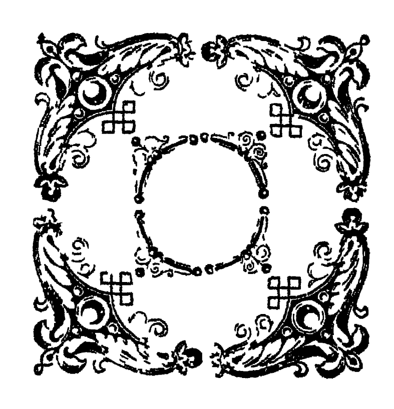
نقلت عن منتخب كنز العمال كثيراً من الاحاديث فى هذا الكتاب ولم أذكر أسماء المخرجين اكتفاء بالعزو الى كنز العمال ليراجعه من أحب معرفة المخرج الذى ذكر فى الكنز فيرجع الى كتابه عند قصد معرفة السند وكذلك نقلت عن السيرة العمرية لابن الجوزي التي جردها من السند أسامة بن مرشد واكتفى باسم الصحابي فقط كثيراً من الاحاديث المتعلقة بسيرة عمر رضى الله عنه وعزوتها الى السيرة ومن أحب معرفة سلسلة سند كل حديث فليرجع الى الاصل ويوجد منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية بمصر



فهرست

الجزء الثاني من اشهر مشاهير الاسلام

﴿ تمت الفهرست ﴾



﴿ اصلاح الغلط الواقع في الجزء الاول والجزء الثاني ﴾

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
١٨	١٧	وتحملهم علىّ	وتحملهم على
٢٠	٩	واحار	واحار
٢٥	٧	مسايح	مسالح
٢٨	١٦	عقلا	عقالا
٤٧	١٤	للحقية	للحقيقة
٥٦	١٠	العالمس	العاملين
٦١	٤	سطام	سطام
٠٠	١٣	طائقه	طائفة
٧٤	١٠	لحمهم اليه	لجمعهم اليه
٧٦	١	قاتلت مع النبي	قاتلت النبي
٨٣	٦	رأسى	رأس
٠٠	١٦	السالمة	المسالمة
١٠١	١٣	اشتعلوا	اشتغلوا
١٠٤	عدد الصحيفة	١٤٠	١ ٤
١٠٤	٤	عصرة	عصره
١٠٥	٧	ليبرء	ليبرأ
١٠٦	٤	طرء على المسلمين ماطرء	طرأ على المسلمين ماطرأ
١٠٧	١٩	للموصى	الموصى
١١٢	٨	لااله اب هو	لااله الاهو
١١٩	١٦	بحيركم	بخيركم
١٢٠	٤	وأمعن فيما	وأمعن النظر فيما
	١٤	الشور	الشورى
١٢٦	٦	ستقوى والاعتصام	بتقوى الله والاعتصام

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
١٢٧	٣	شر بعد الحنة	شر بعده الحنة
١٣٠	٦	واتباعه أمره	واتباع أمره
١٣٢	١١	دحلت عليله	دخلت عليه
٠٠	١٩	ولم ينى	ولم ينثن
١٣٨	٨	صدفت	صدقت
١٤٠	٨	مع المسلمين	مع المشركين
١٤٣	١	فى المديسة	فى المدينة
١٥١	١٨	وحلسه	وأحاسه
١٥٣	١٥	على الناطل	على الناطل
١٥٤	٢٠	حاءته الحيل	حاءته الحيل
١٥٥	١	ممايا	مسايا
٠٠	١٦	الى أبي بكرد	الى أبي بكر
١٦٨	١٣	في اليرموں	في اليرموك
١٧١	١٦	بعرله	الى عرله
١٧٩	١٩	المعاهد	والمعاهد
١٨٥	١٦	اشعالا عنها	اشتعالا عنها
١٦٦	١١	نصحيان	نصحهان
١٩٠	١٢	على لحق	على الحق
١٩٤	٧	المشكات	المشكاة
٠٠	٨	ساناً	بياناً
٠٠	١٧	والحشهانية	والحسمانية
١٩٦	٦	عن بيعه	عن بيعته
٠	١٤	الكفائة	الكفاءة
١٩٩	١٥	يقعلان فى العقول	يفعلان فى العقول
٢٠١	٣	وشترط عايهم	واسترط عليهم
٠	١١	يتديسون	تديسون
٢٠٥	١٦	لحياهم	لحياتهم

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٠٠	٢٠	أوسرعها	أواسرعها
٢٠٨	٥	عين المسالمة	عين المسلمة
٢١٠	٢٢	أسعر لهيها	أسعر لهيبها
٢١١	١	قوة لعلب	قوة العلب
٢١٢	٦	إدنّ	إدن
٢١٥	١١	لدي يطهر	الدى يطهر
٠٠	١٣	لاسلا	الاسلام
٢١٦	١٢	إن ترصى	أن ترصى
٢١٨	١٥	فطمرت الرو	فطمرت الروم
٠٠	١٦	الحدىىة	الحديبية
٠٠	٢١	ارور	ارويز
٢٢٤	٢	عمائة	عمالأة
٢٢٦	١٠	المملك	الملك
٢٢٩	٢٠	وليسوفى	وليسوافي
٢٣١	١٢	ولاسعد	ولايسعد
٢٣٣	٧	بالمصلاط	بالمقسلاط
٢٣٤	١٣	المتوفي سة	المتوفى سنة
٢٣٥	٦	درحات المدسة	درحات المدينة
٢٣٦	١٥	المسايں	المسلمين
٢٣٨	٤	هدا الهرر	هدا الهدر
٢٤٥	١٦	وأحو حرامي	وأحو حرام
٠٠	١٨	وأمر الفيقار رحلاً	وأمر الفيقار رحلاً
٢٤٦	٧	عمر س العاص	عمرو س العاص
٠٠	١١	عم سفرح	عم تفرح
٢٥٩	٥	فسرس فتحص	فسرس سار الى حاصر حلب فتحص
٢٦٣	٣	وبلغ أبو عبيدة	وبلغ أبا عبيدة
٢٦٦	١٧	ولا برهدا	ولا برهدوا

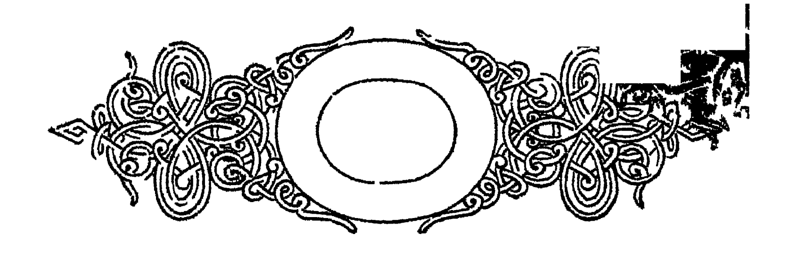
صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٢٧٣	١٠	كان عهد الروماسيين	كان على عهد الروماسيين
٢٧٦	٧	وتوابعهم	وتوابعها
٢٧٧	٧	تداول	وتداول
٢٧٩	٣	تترقى	تترق
٢٨٣	١١	موحود	موجود
٢٨٤	٢	مارأدنا	ماأردنا
٢٨٨	١١	والدمةعن عن	والدمة عن
٢٩٠	١٧	حلودلمر ٠٠ ترل بالمرحة	حلودالمر ٠٠ رل بالمروحة
٢٩٣	١١	الفرات لاحر	الفرات الآحر
٢٩٥	١١	وحرير	وحريراً
٢٩٥	١٨	نشجاعة ساشهن	نشجاعة اسأنهم
٠٠	٢١	ويصمس	ويصمدن
٢٩٩	١٢	استعداد مثنى	استعداد المثنى
٣٠٠	١٨	على احادة	على حادة
٠٠٠	٢٠	تصمير العصا	تصعير العصا
٣٠٢	١٥	حاحة الرمان	حاحة
٣٠٣	١	بحكم لوسط	بحكم الوسط
٠٠	٦	ابهما كمهم	ابهما كهم
٣٠٥	١٩	الاسد	قالوا الاسد
٣٠٨	٢	وحهم	وجههم
٣١٥	٢٠	بمحى عن	بمحو عن
٣١٨	٨	احجاف	احجاف
٣١٩	٨	حمسن ألف شحصاً	حمسين ألف شحص
٠٠٠	١٠	أرلعه وعشرس	أرلعة وعسرون
٠٠٠	١٣	مليوناً درهما	مليون درهم
٣٢٠	١٠	ثرولة	ثروة
٠٠٠	١٢	انقائها	انقاءها

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
...	٢٠	للدين	للدين
..	٢١	حاد	حاء
٣٢١	٨	سرافة	سراقة
٣٢٣	٩	أن نعميه	أن يعميه
٣٢٤	١	لا دُرُّ دعايهم	لا يردعليهم
...	١٥	لم ييق	لم يبق
٣٢٥	١١	واسقت لة	واتسقت له
٣٣٨	٧	وهرالسرادق	وهو السرادق
٣٣٩	٩	فاردكه	فأدركه
٣٤٤	٩	فتح الحررة	فتح الحريرة
٣٤٩	٦	بعصها	بعضها
...	١٨	رداءً	رداءً
٣٥٣	١٠	بن جهل	بن أبي جهل
٣٥٧	٦	لاف ثلثه	آلاف ثلثه
٣٥٨	٦	أيادى العرب	أيدي العرب
٣٦٤	٤	تشرح لك	تشرح لك
...	٢١	وقرأنها ومواستهم	وقرأنها ومواساتهم
...	٢٣	سعادة الحياة	سعادة الحياة
٣٦٥	١	فى المالك	في الممالك
٣٦٦	٥	فقدقمطها	وقد قطعها
...	٢٠	مارات	مماراة
٣٦٧	٤	نحو دلك	ونحو ذلك
...	٥	والأمة . مثل	والأمة . لمثل
٣٧٢	١٤	حر من الحرورة	حرء من الحرورة
٣٧٩	٨	قلوبهم لاسلام	قلوبهم الاسلام
٣٨١	٤	لقي رحلا	لقي رجل
..	١٤	ن عساكر	ابن عساكر

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٣٨٣	٣	امهلتهم	أمهاتهم
٣٨٦	١٠	حديفة بن ليمان	حديفة بن اليمان
٣٨٩	١١	اطراح لا مه	اطراح لأمة
٠٠٠	١٥	ولاتحد من المل	ولاتحدمن المسال
٣٩١	٢	بارشارهم	بارشادهم
٣٩٢	٩	وهومن	وهو
٣٩٣	٢	اليعوث .. نهاود	البعوث ٠٠٠ نهاوند
٠ ٠	١٧	بن حرير	ابن حرير
٣٩٥	١٨	ورى الطبرى	وروى الطبري
	٨	فتصوها	فتقسوها
٣٩٩	٩	واقلو من الرواية	وأقلوا من الرواية
	١١	بن الحوري	ابن الحوري
	١٥	المهدم	المتهدم
٤٠٠	١١	الاشعب	الاشعث
٤٠١	١٥	لحمت	لحمت
٤٠٢	١٥	الآ ن	الآن
٠٠٠	١٦	فرق	فرقاً
٤٠٤	١١	بهبا حق	بها حق
٤٠٥	٥	أطعو الله	أطيعوا الله
٠	٢١	تستندد	تستند
٤ ٦	١٧	فاعاده	فاعاد
٤ ٧	١٧	بن عم خالد	ابن عم خالد
٠٠	٢٠	بن العم	ابن العم
٤ ٨	١٢	لا حكم الا الله	لاحكم الا لله
٤٠٩	٩	مرتبه	مرتبة
٤١٩	١١	لمساواة	المساواة
٤٣١	٩	يتمنى الحايل	يتمنى الحلل

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٤٤٩	٩	عمر يقول	عمر يقول
٤٥٦	٢٣	ولامن صابهم	ولامن صلبهم
٤٥٧	٢٦	«٢» هكد	«٣» هكذا
٤٥٨	٢٤	يمعض الله	بعض الله
٤٦٢	٣	نقد نارر	فقد نارر
٤٦٦	٨	احمل	احمل
٤٧٠	٢٥	يتساناصلون	يتناصلون
...	٢٦	نفس طامة	نفس طلعة
٤٧٥	٤	وعرامهم	وعرامهم
٤٧٨	١٠	عمراس	عمرس
٤٨٢	١٣	جرور	حدور
٤٩١	٩	والحث	والبحث

وردت امطة الاردن في هذا الكتاب بتشديد الراء تارة وتشديد الدال احرى والصواب تشديد النون فليتنبه



قد وقع في هـذا الجزء اغلاط أخرى غير الاغلاط المبينة في فهرست الخطأ والصواب لم اطلع عليها الا بعد تمام طبع الكتاب لاني لم أدم على طبع قسم كبير منه لانحراف ألم بصحتي واضطرني الى السفر ومنها انه جاء في صحيفة ٣٥٣ سطر ١٤ اسم أشيم وصوابه بن أشيم وفي الصحيفة ٣٦٧ سطر ٤ نحو وصوابه ونحو وفي الصحيفة نفسها سطر ٥ مثل والصواب لمثل وفي الصحيفة ٤٢٩ سطر ١٦ وتقتضي والصواب وتقضي وفي الصحيفة نفسها سطر ١٧ بقبول وصوابها بفصول وفي الصحيفة ٤٣١ سطر ٣ منه والصواب منها وفي الصحيفة ٤٣٦ سطر فقصد والصواب فقد وجاء في الصحيفة ٤٣٧ جملة طويلة بعد كتابه الى شريح القاضي أولها وأما أقضيته الخ الجملة وليس هـذا محلها بل هي في ختام هذا الفصل بعد كتاب أبي موسى الاشعري وفي الصحيفة ٤٤٢ سطر ١٢ جملة لم يتوقف عن جمع كلة الأمة وصوابها يتوقف لجمع كلمة الامة وفي الصحيفة ٤٤٩ سطر ٩ أم والصواب بن أم في الصحيفة نفسها آخر سطر ١٨ عنوان فصل مخصوص لم يجعل وحده بين سطرين وسقط من الفهرس فانتبه اليه وفي صحيفة ٤٥٣ سطر ١ سلمة والصواب مسلمة وفي الصحيفة ٤٥٨ سطر ٢٤ يمص وصححت في الفهرس بغص وصوابها بغض بالعين وفي الصحيفة ٤٦٤ سطر ٦ للعوض والصواب للعرض وفي الصحيفة نفسها ٢٤ وهو الحق والسلطة وصوابه وهو الحق الذي تعين به حد السلطة العليا الخ وفي الصحيفة ٤٦٥ سطر ٤ ولا تحمدوهم والصواب ولا تحمروهم وفي الصحيفة نفسها سطر ٢٣ لذي والصواب الذي وفي الصحيفة ٤٦٧ سطر ١٥ مستعيدة والصواب مستعدة وفي الصحيفة ٤٧٠ سطر ٢٥ وجرحوا ان والصواب وجرحوا الى وفي الصحيفة ٤٧٢ سطر ٣ رأى والصواب أرى وفي الصحيفة نفسها سطر ١٨ وجاءه والصواب وجاءه بهمزة فوق الالف وفي الصحيفة ٤٧٨ سطر ١٢ ولأوثرت والصواب ولأوثرن والصحيفة ٤٨١ سطر ٦ الدير والصواب الدر والصحيفة ٤٨٤ في سطر ١٣ لفظ عنهم وهو زائد لا محل له وفي الصحيفة ٤٩١ سطر ١٧ سر والصواب سردواهم غلط جاء في هذا الجزء في الصحيفة ٤٧٤ سطر ١٨ وما بعده وهو اسم ابي هريرة بدل كعب الاحبار وهو سهو يدركه القارئ مما قبله وانما جنى عليه تشتت الخاطر وألم المرض ولم ينتبه من وقف على طبع الكتاب له ليصلحه لما اني لم أعد نظري عليه حال الطبع لتغيبي خارج القطر فأرجو كل من وقعت بيده نسخة من هذا الكتاب ان يصلحه بقلمه بان يضع اسم كعب الاحبار بدل اسم ابي هريرة وله الفضل وقد جاء في الفهرست فصل بعنوان بحث في الردة وهو حشو من الطباع اذ ليس في هذا الجزء فصل بهذا العنوان وانما هو في الجزء الاول فانتبه اليه

ومتى نفدت نسخ هذين الجزءين فسنعيد طبعهما أحسن اتقان ان شاء الله

﴿ يباع هذا الكتاب في مصر بالمكاتب الآتية ﴾

مكتبة الشعب بشارع محمد علي ومكتبة الهلال بالفجاله والمكتبة الازهرية بالسكة الحديدة قرب عطفة خط الازهر ومكتبة هنديه بالسكة الجديدة ومكتب جريدة المؤيد بالاسكندرية وثمنه عشرة غروش اميرية ويسقط ربع الثمن لمن يأخذ من مؤلفه في القاهرة زيادة على عشر نسخ

